نزهة قلب

رحلة في رياض المتقين

الدكتور

السيد أحمد هندية

دار البشير

للثقافة والعلوم

اسم الكتـــــاب: نزهة قلب رحلة فى رياض المتقين
التـــــــأليف: السيد أحمد هندية
الصف التصويري: الندي للتجهيزات الفنية
عدد الصفحـــات: 176
عـــدد الطبعات: (الطبعة الأولى 2012)
التوزيع النشـــر : **دار البشير للثقافة والعلوم**
مصر - طنطا
تليفون : 01067467492 -01062836461
darelbasheer@hotmail.com
dar_elbasheer@yahoo.com
الإيداع القانوني : **2012/2835**
الترقيـــم الدولي : **I.S.B.N.978/977/278/417 /1**

1433 هـ
2012 م

الإهداء

إلــي طــلاب المعــالي ، وعــشاق الجنــان ، وأصحاب الهمم العالية .

إلي الذين يسارعون في الخيرات ، وينـشدون أعلي المقامات ، فيتقلب أحدهم علي الفرش وروحه تحلق حول العرش.

إلــي أصــحاب العــزائم الــصادقة والنفــوس الكبيرة التي لا تطلب الراحة إلا مع أول قدم في الجنة .

السيد أحمد هندية

بسم الله الرحمن الرحيم

نزهة قلب

رحلة فى رياض المتقين

الدكتور
السيد أحمد هندية

قبل أن نبدأ

رحلتنا أيها الأحباب رحلة قلوب،لا رحلة أبدان ، والقلوب صنفان : قلب كالحجارة أو أشد ، وهذا لن يجد الآن مكانا بيننا ، ولكن لا يفقد الأمل ، فالأحوال تتغير ، والأمور تتبدل ، والقلب أسرع تقلبا من القدر إذا استجمعت غليانا ، وشقي اليوم تقي غدا ، ولا تنس الفضيل ، وانتظر وتهيأ لرحلة قادمة .

وقلب إذا ذكر الله عز وجل وجل وخفق ، واطمئن وسكن ، عرف الطريق فلزمها ، فصاحبه خير رفيق علي أفضل طريق ، فراجع نفسك ، وتحسس قلبك وتأكد قبل أن تحجز مقعدك أنك أهل لهذه الرحلة.

ورحلتنا أيها الأحباب للأحياء لا للأموات ، فالناس صنفان : حي جعل الله له نورا يمشي به في الناس . وهذا قد حجز مكانه هنا ، واستلم تأشيرة السفر ، وميت يخبط في الظلمات ليس بخارج منها ، وهذا أبواب الرحله دونه موصدة ، ومطاياها عنه مبعدة ، لكني أناشده ألا يتوقف عن محاولة اللحاق بنا . وأذكره بقول الله تعالي : ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الحديد:17] فالله سبحانه وتعالي يخرج الحي من الميت ، فلعله يولد من جديد وأسباب الميلاد كثيرة وما ذلك علي الله بعزيز .

إن رحلتنا أيها الأحبة : كما قال العبد الصالح يحيي بن معاذ : لا تقطع بالأقدام . ولكنها تقطع بالقلوب ، أو بتعبيره هو : مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام . ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب ولله دره قال حقيقة ونطق صدقا ، ونحن الآن سننطلق في رحلة نحو الآخرة ، ولهذا نحتاج أخي الكريم إلي قلبك لا إلي بدنك ، فعمل القلوب هو روح العبودية ولبها ، وإذا فرغ عمل الجوارح من عمل القلب كان كالجسد الميت لا روح فيه ، وهل أتاك أيها الحبيب قول ابن عطاء رحمه الله وهو يقدر قيمة القلب . ويمجد عمله ؟ إن لم يكن أتاك ، فأنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، يقول رحمه الله : ما قل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب ، وصدق ونصح ، فهل يستوي عملان : عمل خرج من قلب زاهد ، وأخر برز من قلب راغب ؟ لا والله لا يستويان .

أيها الطالب سفرا معنا إلي رياض ناضرة ، وحدائق مبهجة ، وقطوف دانية ، وآفاق عالية ، إن عدتنا لهذه الرحلة : قوة عزيمة ، وصدق رغبة ، وعلو همة ، يقول ابن القيم رحمه الله : والتقدم والسبق إلي الله إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة ، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل ، فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله .

والطريق أيها الأحباب مجربة ، فقد قطعها من قبل صالحون ، ومضى فيها مقربون ، وسار عليها أولياء لله وأتقياء ، وهؤلاء كتب لهم السبق لما طهروا القلوب ، وغسلوا الأرواح ، وعالجوا النفوس فعاشوا يتطهرون ، وماتوا طيبين ، فجاءتهم بشرى :- ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:32] فالسر أخي هو القلب ، وطهارته شرط اللحاق بالركب ، والاستقامة علي الطريق ، والانتظام في الدرب ، ولهذا قال ابن مسعود ﷺ يخاطب جموع التابعين وقد رأي نشاطهم في عبادات الجوارح : أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهادا من أصحاب رسول الله وهم كانوا أفضل منكم ، قيل له : بأي شيء؟ قال : إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم .

وقبل أن ننطلق أيها الأحباب هذا تحذير وإنذار للمتخلفين ، فالمتخلف نادم ، والقاعد وراءنا خسران ، وسيسفر النهار غدا عن قائم لله وقاعد ، وكسول وناهض ، ولا يستوي الفريقان : من جاهد نفسه وركب معنا ، ومن غلبته نفسه وركب هواه ، وأذكر الكل بما قاله ابن القيم رحمه الله تعالي عن المتخلفين ، لعل رجلا يفيق من سباته ، ويصحو من غفوته ، ويودع أيام لهوه وغفلته ، يقول الإمام : والمتخلف في ظل الشجرة نائم ، فوالله ماكان الإ قليل حتي ذوت أغصان تلك الشجرة . وتساقطت أوراقها وانقطع ثمرها ، ويبست فروعها وانقطع مشربها . فقلعها قيمها من أصلها فأصبح أهلها في حر السموم يتقلبون ، وعلي ما فاتهم من العيش في ظلها يتحسرون ، أحرقها قيمها فصارت هي وما حولها نارا تلظي ، وأحاطت النار بمن تحتها ، فلم يستطع أحد منهم الخروج منها .

هذا حال المتخلفين أخي : انخدعوا بوهم . واغتروا بسراب ، حتي انكشف عنهم

الغطاء ولكن للأسف بعد أن فاتتهم الرحلة وغادرهم الموكب ، وسبقهم الركب ، فندموا طويلا وسألوا بحسرة عن الرحلة وأهلها فقيل لهم : ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم ، فرأوهم وهم من البعد في قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات ، فتضاعف عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم ، وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون ، وقيل هذا جزاء المتخلفين .. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:118] .

فاحذر التخلف وجدد النية . وصحح العزم ، واعلم أن رحلتنا هذه ستمر عبر رياض أربع إليك عناوينها:

- **الروضة الأولي : التوبة** : **ما أحلي الرجوع اليه**.
- **الروضة الثانية : الإخلاص** : **فليتك تحلو والحياة مريرة** .
- **الروضة الثالثة : الزهد** : **والآخرة خير وأبقي** .
- **الروضة الرابعة : الدعاء** : **لغيرك ما مددت يدا** .

فاستعد أخي واستعدي أختاه ، اربطوا أحزمتكم ، والزموا أماكنكم ، وانظروا أمامكم ، بدأ العد . فانطلقوا علي بركة الله ، معكم في هذا الرحلة ، الفقير إلي رحمة مولاه : السيد أحمد هنديه راجيا لكم رحلة ممتعة ، وأوقات نافعة ، وسعيا مشكورا ، وعملا متقبلا ، اللهم استجب .



الروضة الأولي

التوبـــــة
ما أحلي الرجوع إليه

يقول ربك عز وجل :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:104]

الروضة الأولي

ويقول حبيبك ﷺ :

" من تاب إلي الله قبل أن يغرغر قبل الله منه "

صحح رواه أحمد والترمذى

وعن ابن عباس رضي الله عنه :

" ما دمعت عين إلا بفضل الله ، وما دمعت عين امرىء حتى يمسح الملك قلبه ".

تنبيه المغترين الإمام السمرقندي

من هنا نبدأ

أخي وحبيبى من هنا نبدأ ، من دوحة القلوب وبستان الأرواح ، من روضة التوبة ، والسبب – وأظنه لا يخفي على مثلك – أن التوبة ضرورة للعبد ولازمة للسالكين طريق الرب في أول الطريق وفي أوسطه وفي نهايته ، فإذا أفقت من غفلتك وانتبهت من غفوتك ، ويممت وجهك شطر مولاك فإن التوبة هي زادك في أول الطريق وآخره وما بينهما ، ستحملها معك نورا في دربك ورحيقا مختوما في قلبك وعبيرا نديا يرطب جفاف حياتك حتي تصل إلي ما تريد ، فتقر عينك، ويستريح فؤادك في منازلك وجنانك العلي ، يقول شيخنا ابن القيم رحمه الله تعالي مبينا منزلة التوبة ومكانتها وفضلها : (**ومنزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات ، وإن ارتحل الى منزل آخرارتحل به واستصحبه معه ونزل به ، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها في النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها في النهاية كذلك**) (1) .

اللهم زد هذا الشيخ – وكل مشايخنا – تكريما وتعظيما ، هل قرأت أخي كلامه ؟ هل أبصرت حروفه ؟ إنها بنات النور وشقائق الروح كأنه يقول لي ولك ولكل سالك إلى ربه مستقيم علي دربه : إننا حين ننزل روضة التوبة ونطرق بابها ونحل بساحتها ، فإننا ننزل بساحة ظلها ممدود ، وماؤها مسكوب ، وأكلها دائم ، وفاكهتها هي بنت الخلود وصفها خالقها بقوله : ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:33] فدع عنك أخي الحبيب هذه المقطوعة الممنوعة بنت العدم ، وعلق أمالك بما يبقي فإن قيمة المرء ما يطلبه ، فمن النفس بماء لاينضب ، وخضرة لا تتبدل ، وملك لا ينقطع ونعيم لا ينفد ، إن روضة التوبة مفتاح الجنة وبابها ، فمن عجز اليوم عن الوصول إليها وطرق بابها والإلحاح في الطرق حتي يفتح له فيدخل سيكون عن الجنة أعجز وعن بابها أبعد ، وعن رياضها وأنهارها وقصورها وحورها وجوار ربها أبعد وأبعد ، فهلم أخي الحبيب ، ابدأ الآن

---

(1) مدارج السالكين ج1 صـ198 .دار الحديث .

معي ، وافتح أقفال النفس وأزل غشاوة العين ، وحطم قيود الفؤاد وارفع عن إذنيك أوقارها لتري وتبصر وتسمع إلى المولي يناديك لتدخل .

ربك يدعوك

انظر هناك أخي الحبيب ، إن بين يديك شجرة طلح تدلت أوراقها ، خضراء تسر الناظر ، وتسعد الخاطر ، وعلي ورقة منها بخط واضح ، وقلم عبقري ساحر ، مكتوب هذه الأية : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[النور:31] يالله ما أروعه من مشهد ، وما أجملها من آية ، انظر إليها تقر عينك ، وتدبرها يتألق قلبك ، وهذه بعض معانيها فأعرني سمعك **الآن وليس غدا:**

أولا : إن ربي وربك أخي – وهو الحكيم – خاطب بهذه الآية قوما هم خير من احتضنت الأرض أقدامهم ، ولامس الثري نعالهم بعد الأنبياء ، اصطفاهم الله تعالي لنفسه ورباهم علي عينه ، وترقوا تحت سمعه وبصره إعدادا وتربية ، حتي نضج الزرع واستوي علي سوقه ، وبلغ القوم في الربانية آفاقا لا يطار لها علي جناح ولا يسعي إليها علي قدم ، ومع كل ذلك أخي يطلب ربك منهم التوبة ، ويعلق عليها فلاحهم . ويربط بها نجاحهم وفوزهم ، ويا له من معني لطيف وسر دقيق ، يأسر اللب ويسبي القلب مع شيء من التدبر وقليل من التفكر ، بمعني أنه إذا كان ربنا جل وعلا يطلب من هذه الكواكب المضيئة في سماء التقي أن تتوب لتفلح وأن تعود إليه لتفوز وتنجح ، فنحن أخي بالتوبة أولى ، وبالإنابة أحق ، لما بيننا وبينهم في الإيمان من مسافات جعلتهم في السابقين . وجعلتنا علي الأثر لا ندري أن نلحق بهم أم نتعثر .

ثانيا: أما المعني الثاني أيها الحبيب ففي قوله تعالي : " وتوبوا " أتدري أخي أنه أمر ؟ إن مولاك يطلب منك أن تهاجر إلي رحابه . وأن تفر إلي جنابه ، وأن تحمل عصاك في يدك وتبدأ سفرك نحوه في طريق لا تقطع بالأقدام وإنما تقطع بالقلوب ، فهل تستجيب لمولاك فهو أرفق بك من نفسك ، وأبر بك من أب يغذوك وأم ترعاك ؟ أيليق بك أخي أن تسمع مولاك يدعوك ثم تعرض عنه ؟ لا والله . إن الذي

يفعل ذلك هو غيرك ، أما أنت فلا ثم لا ثم لا ، إن ما يدعوك إليه مولاك هو الخير الذي لا خير وراءه ، وتأمل لو أن طبيبا وصف لك دواء أخي الحبيب : هل تتردد في أخذه ؟ ما أظنك تفعل ، ولا يفعلها أحد ، فهل أمر ربك وولي نعمك ومالك أمرك أهون عندك من أمر الطبيب الذي يصيب ويخطيء ؟ يا لله عذرا إني أربأ بك أخي وأنت سليل الربانيين وحفيد المقربين ، من آدم ونوح إلي إبراهيم وموسي حتي عيسي ومحمد صلوات ربي عليهم ، أن تسمع وتعرض فاستجب لله ورسوله إذا دعاك لما فيه حياتك وفلاحك ، وأعرض عن الشيطان وحزبه وذريته فإنه ﴿يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:6]

ثالثاً : أما المعني الثالث ففي قوله تعالي : " **جميعاً** " إن التوبة أخي هي سلم الفلاح ومعراج الرقي ، ولن تفلح الأمة إلا بعودة جماعية إلي الله تعالي ، فلا يصح أخي ان تتوب أنت وتعود الي ربك في هجرة مباركة ، وأظل أنا في الغي سادر ، وعن الحضرة غائب ، وعن الطريق محجوب ومردود ، ولا يصح أخي أن أتوب أنا ويظل أخ لى خارج السرب مع شيطانه يغرد ، وفي ماخور الهوى يرقص وعلي أبواب اللهو وأندية الهوى يتقلب ويلعب ، لا ثم لا ، إن الكل مدعو الي التوبة الآن وليس غدا، إن أرادات الأمة لنفسها نهضة ، ولدينها رفعة ، ولرايتها عزة ولنبيها نصرة ، ولنفسها علوا بالحق وفلاحا.

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور:31] إنها معان لطيفة أخي ، وأسرار بديعة تتجلى من خلف الحروف وتضيء من وراء الكلمات ولن تجدها إلا هنا في روضة التوبة ، فنقل معي الخطو ، بعقل متفتح ، وقلب متيقظ ، وإياك والغفلة فإنها عقبة في الطريق ، وعثرة علي الدرب فانطلق .

مشهد مؤثر

إنه مشهد المهاجرين إلى الله ، فهل قرأت أخي قوله تعالي علي لسان النبي الصالح :- ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾[العنكبوت:26] ؟ والله إنه لقول يأخذ بمجامع القلب لو كان ينبض ، ويحيط بأقطار النفس إذا كانت بها حياة ، وإن أروع مشهد يمكن أن

تقع العين عليه وتدركه النفس ، هو مشهد إنسان يفر إلي الله تعالي من جحيم الهوي وحصار الشيطان وقيود النفس ، إنسان يهرب من الضلالة إلي الهدي ، ومن الحيرة والشك الي اليقين والرشد ، ومن الظلمات والتيه إلي أنوار فجر ذي ثغر باسم وأمل قادم ، إن مشهد التائب أخي يبعث في نفس الإنسان نشوة غامرة تستعصي علي الفهم ، إذا حاول المرء فهمها ، وعلى الوصف حين يحاول الإنسان وصفها ، وأظنك أخي قد رأيت أو سمعت أو قرأت عن عائد إلي ربه بعد طول غياب ، ومنيب إلى سيده بعد طول قطعيه ، ومهاجر إلى مولاه بعد أن استبد به الهم وأضناه ، فهل ترك ذلك المشهد في نفسك أثرا ؟ وهل طبع في قلبك صورة ؟ إن لهذا المشهد جمالا لا يقاوم فما هو سر هذا السحر الذي يحيط به وبرؤيته ؟ تعال أخي نضع القلم ، وندع شيخنا العلامة "**البوطي** " يرسم لنا بريشة فنان ، ويصور لنا بمداد من دم قلبه سر هذا المشهد وسحره، ليحلق بنا في آفاق من النور وسماوات من الروعة قلما تدرك أو تطال ، يقول الشيخ أطال الله بقاءه ونفع به : (إنهما أمران يبعث كل منهما في القلب نشوة غامرة تستعصي **علي الترجمة والوصف :**

أولهما : هذه الملاحقة الربانية للشاردين والضالين أن يعودوا إلي كنفه وأن يمثلوا أمام مائدة فضله وإكرامه.

الثاني : تلك الاستجابة التي تذكر بعودة الطفل آمنا مغتبطا إلى صدر أمه .

وإنك لتنظر فتجد علي وجوه هؤلاء العائدين فرق مابين أمسهم الغابر ، إذ كانت تغشاهم ظلل داكنة من شقاء الضلال والابتعاد عن حمي المولي عز وجل ، ويومهم الجديد إذ تعلو وجوههم إشراقة التوبة وسكينة الهداية وبهجة معرفة الله والتعرف إليه) (1)

يا لله ! اقرأ أخي وتآمل ، وأطلق العنان لتلك المعاني الربانية لتصل إلي قلب قلبك ، وعش معها بروحك قبل أن تحرك بها لسانك ، لتنعم وتتنعم بذات الإحساس الذي يجده التائب حين يعود ، والمهاجر حين يصل ، والمسافر يرجع فيقر عينا بالإياب ، إن روعة هذا المشهد أخي لا تقف عند معانيه الظاهرة ، ولا يليق بك – وأنت من أنت –

---

(1) شخصيات استوقفتني : صـ20 طـ دار الفكر .

أن تقف عند الصورة دون الحقيقة ، وإنما الذي يليق بك أن تنظر في التوبة **إلي أمرين اثنين** :

الأول : لطف الله سبحانه الذى يصطفي التائبين ويختارهم لجواره ويضمهم إلي حضرته، وياله من معني ، فربك أخي هو اللطيف ، وحين يمس لطفه هؤلاء الشاردين تتبدل أحوالهم ، وتنقلب حياتهم ، وتتغير بوصلة قلوبهم في اتجاه آخر اتجاه اللطيف الذي دعاهم فأجابوا ، وناداهم فاستجابوا ، ثم تاب عليهم أيها الحبيب... فتابوا .

الثاني : ثم انظر في التوبة كذلك إلي تلك العودة المفعمة بمعاني اللقاء بعد الغياب ، والقرب بعد البعاد ، والود بعد الجفاء والصد ، وتأمل حال طفل أعادوه إلي صدر أمه بعد أن أتبعه البعد وأضناه الهجر ، هذا هو حال الربانيين حين يتوب عليهم مولاهم ، فيطمئنون بعد قلق ، ويأنسون بعد وحشة ، ويسكنون بعد تشتت واغتراب .

مثال يوضح المقال

ولن يكتمل المشهد أخي وتبدو روعته إلا بمثال يشرح لنا : كيف عاد إلي ربه ؟ وما السبب؟ وكيف لحق بقوافل المهاجرين إلي رب العالمين ، وألقي وراءه جبالا من المعاصي ، وأكواما من الخطايا . وعمرا من اللهو واللعب ؟ ليأنس بعدها بالروح والريحان ، والنور والفرقان ، إن صاحبنا أخي ومثالنا الذى أريد ، هو الإمام الربانى الفضيل بن عياض ، أمام عصره ووحيد دهره ، شهد بذلك القاصي والداني ، حتي قال فيه محمد بن سعد : كان ثقة فاضلا نبيلا عابدا ورعا كثيرالحديث [(1)] ، وشهد له الإمام الزاهد الورع عبد الله بن المبارك – ومن شهد له ابن المبارك فحسبه – حيث يقول فيه : ما بقي علي ظهر الأرض عندى أفضل من الفضيل بن عياض [(2)] ، وقال نصر بن مغيرة البخارى : سمعت إبراهيم بن شماس يقول : رأيت أفقه الناس وأورع

(1) طبقات ابن سعد جـ6 صـ500 دار صادر .

(2) سير أعلام النبلاء . جـ8 صـ424 الإمام الذهبى طـ الرسالة .

الناس وأحفظ الناس : وكيعا والفضيل وابن المبارك [1]، هل رأيت أخي كيف شهد أولئك الأعلام للفضيل ؟ ولكن المفاجأة التى ستدهشك هي أن ذلك الرجل الذى شهد له الجميع بالإمامة في الورع والسبق في الصلاح والزهد، قضي شطر شبابه لصا يقطع الطريق ويستلب الناس أموالهم ، لينفقها علي متعه وأهوائه ، ويبددها فيما تمليه عليه ملاذه وشهواته ، وفى غمرة تلك الحياة الشاردة والتائهة ، لقي الفضيل فتاة فعلق بها قلبه ، وهاج من عواطفه نحوها ما صرفه عن المال وجمعه ، وعن الغني وسحره ، وأخمد العشق في نفسه نار البغي وحرارة البطش ، فلم يعد له وقت يتسع لأكثر من التفكير فيها والتخطيط للقائها والسكون إليها ، وأنسته جذوة الحب التي اشتعلت في نفسه ظلمة لياليه ، وأقصت شيئا فشيئا قسوة قلبه ورعونة نفسه ، وأسدل الحب حجابا كثيفا بينه وبين ما غبر من أيامه ولياليه ، وذات ليله – ويالها من ليلة – شرع يفكر كيف يغزو بيت محبوبته ، ويقتحم الجدران التي تفصل بينها وبينه في جنح الليل دون أن يهيج أحدا أو يثير ريبة ، ولما وقف بجوار البيت لم يعدم شيئا يتعلق به وارتقى الجدار ، وقبل أن يهوى ساقطا في الدار ، وقف يلقي السمع إلي صوت هنا أو هناك ، بحثا عن الأمن في مغامرته والسلامة في مخاطرته ، بينما هو كذلك ، إذ سمع قارئا في جوف الليل يرتل قول مولانا جل وعلا : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:16] وسأترك قلمي ثانية أخي الحبيب وأدع الأستاذ البوطى يصف لك برقة لفظه وربانية نفسه ومداد قلبه ما حدث للفضيل في تلك اللحظات الفاصلة من حياته ، يقول الشيخ ولله دره : (**كان قلب الفضيل قد تحرر في تلك الساعة من رعونات نفسه ، وتساقطت منه الأغشية التي غلفته بالقسوة تحت تاثير الحب الذي سرى في أنحائه ، فما أن طرقت سمعه هذه الكلمات الربانية الفياضة بالحب والعتب الرقيق ، حتى سرت منها شعلة إلي قلبه الذى صقله الحب ، وهذبه الوجد**

---

(1) نفس المصدر السابق .

فأضاء مصباحه المنطفىء ، وأوقد ناره الخامدة ، وإذا هو يصيح بصوت مجلجل اخترق سكون الليل من حوله ، بلي يارب لقد آن ، وتحول في اللحظة ذاتها ، فسقط في المكان الذى تسلق فيه ، وأسرع كالململدوغ لا يلوى على شيء ، ومضى يصيح مرددا: بلي يا رب لقد آن) [1] .

الله أكبر ، في تلك الليلة أخي الحبيب ، وفي هزيعها المتأخر ، تم عقد الصلح بين عبد ومولاه ، وفي ظلمات تلك الساعة طوى الفضيل تاريخا مظلما ، وصفحات سوداء ، وولد على أثرها فضيل جديد ، عابد زاهد تقى ورع اسمه : فضيل بن عياض ، فاقرأ أخي وأعد القراءة ، فإن مشهد التوبة هذا يفيض رقة ، ويقطر عذوبة ، ويملأ جوانب النفس أملا مشرقا فى غد نقى ، ومستقبل ندي ، ينضم فيه التائهون إلى الركب ويعود الشاردون إلى الدرب ، فيلحقون بالقافلة المؤمنة التي تمضي في طريقها تردد أهازيج النصر ، وتغرد بتراتيل الحب ، حتي تتم الملحمة ويكتمل البناء ، ولا تسأل أخي متي فقد سألها قوم من قبلك فأتاهم الرد الإلهي عذبا رقيقاً نديا ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء:51]

توبة بين توبتين

ليس في الوجود من حولك أخي أجمل من هذا المشهد : مشهد العودة ، مشهد التوبة ، مشهد الإنابة والرجوع ، الطفل الغائب إلى صدر أمه ، والعبد الشارد إلى رحاب ربه . إن توبة فضيل أخي التي قصصت عليك خبرها ، مثال واضح يبين لطف السيد بعبده حين يريد به الخير ، وتسبق له الحسنى ، إن الرب يتفضل بداية علي العبد بالتوبة فيتوب ، فإذا تاب أدركته من مولاه توبة أخري ، فنصير أمام توبة من العبد بين توبتين من الرب، وسأدع ابن القيم رحمه الله تعالي يشرح لك ذلك ، فهو الذى يملك قلما ربانيا يفصل به مادق من المعاني وما خفى من الأسرار يقول رحمه الله : (**وتوبه العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله قبلها وتوبة منه بعدها ، فتوبته بين توبتين من ربه سابقة ولاحقة . فإنه تاب عليه أولا إذنا و توفيقا**

---

(1) شخصيات استوقفتني صـ25 مصدر سابق .

وإلهاما ، فتاب العبد ، فتاب الله عليه ثانيا قبولا وإثابة . قال سبحانه : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[التوبة:117،118] **فاخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هي التى جعلتهم تـائبين ، فكانـت سببا مقتضيا لتوبتهم . فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب عليهم)** (1) .

سبحانك ربي ما أعظم فضلك ، سبحانك ربي ما أوسع حلمك ، سبحانك ربى ما أقرب فرجك ، أرأيت أخي كيف يكون لطف الله تعالي بعبده ؟ إن توبة العبد سبقتها توبة ربه عليه وهى التى سماها ابن القيم رحمة ربي عليه : توبة التوفيق والإلهام والإذن ، وكأن أحدا لن يوفق إلي العودة للحضرة الإلهية إلا بإذن منه سبحانه ، الله أكبر! فإذا تاب العبد هذه التوبة لحقتها توبة من الله عليه سماها الإمام ابن القيم : توبة القبول والإثابة ، أى قبول التوبة والجزاء عليها بأجمل ما يكون الثواب.

بكل هذا ندرك أن توبة الإنسان بين توبتين من الرحمن ، فتأمل أخى فضل ربك عليك ، وسله أن يلهمك التوبة أولا والقبول وحسن الثواب آخرا إن ربي رحيم ودود .

التوبة مرتان

والعبد يتوب إلي ربه مرتين : مرة في الدنيا عندما يفيق من غفلة ، ويصحو من سكرة ، وينهض من عثرة ، وتتفتح مدارك نفسه لدعوة الحق وكلمة التقوى ، هذه مرة ، أما الأخري فعندما تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، ويقوم الناس لرب العالمين ، وهذه عودة للجزاء والمكافأة ، فهما إذن توبتان فطن شيخ الإسلام ابن القيم إليهما ، وراح يحدث عنهما حديثا فيه عبق الروح وعبير الريحان ونفحات اليقين ، يقول رحمه الله : (**والتوبة لها مبدأ ومنتهى ، فمبدؤها الرجوع إلي الله بسلوك صراطه المستقيم الذى نصبه لعباده ، موصلا إلى**

---

(1) مدارج السالكين . جـ1 . صـ339 .

رضوانه ، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام:153] وقوله تعالى : ﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الحج:24] ونهايتها الرجوع إلي الله تعالي في المعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلا إلى جنته فمن رجع إلي الله في هذه الدار بالتوبة . رجع إليه في المعاد بالثواب، وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالي : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان:71] قال الإمام البغوى وغيره : يتوب إلي الله متابا : يعود إليه بعد الموت متابا حسنا يفضل عليه غيره ، فالتوبة الأولي وهي قوله تعالي ﴿ وَمَن تَابَ ﴾ رجوع عن الشرك ، والثانية رجوع إلي الله للجزاء والمكافأة) (1) .

أرأيت أخي ؟ إن نور اليقين يقطر علي القلوب كالندي والبرد من فضاء تلك الكلمات ، وإن القلب لينتفض لها كما ينتفض العصفور بلله القطر، فاعلم أخي أنها طريق واحدة ، أولها هنا وآخرها في الجنة ، فاعقلها أخي وافتح لها عقلك وقلبك ، فإن كنوز القوم لا ينالها إلا قلب متيقظ ، وعقل متحفز ، وأنت صاحب ذلك ، بعت لله نفسك فربح ولله بيعك ، ربح بيعك .

ذنب واحد يغضب الواحد

بعدما سمعت أخي ورأيت ، ألا تحدثك نفسك أن تلحق بالركب ، وأن تنضم إلي قوافل المهاجرين إلي رب العالمين ؟ ألم تنبعث همتك شيئا لتسرع في أثر القوم قبل أن يحال بينك وبينهم بموت عاجل أو مرض نازل أو فقر شاغل ؟ لقد آن لك أخي أن تدرك أن الذنب لا يؤذيك وحدك ، وأن شؤم المعصية لا يرتد فقط إلي نحرك، وأن عاقبة الإثم تلحق بولدك وأهلك وتؤثر علي متجمعك وأمتك ، بل إن نصرا من الله قريبا ومقدراً قد يتأخر بذنبك ، فتكون قد خنت مجاهدا يحمل لله سيفه ، وروحه علي كفه ، يغلب مرة ويغلب مرة ، يستبطيء النصر ويسأل : لماذا تأخر ؟ وأنت بذنبك السبب ولا تكاد تشعر ، فدعني أوجه إليك هذا السؤال : ألا تخاف

(1) نفس المصدر السابق . جـ1 صـ341 .

علي نفسك ؟ ألا تخشي عاقبة أمرك ؟ إن ذنبا واحدا تستهين به ولا تلقي له بالا قد يعرضك لما لا تحب ، ويحمل إليك أنباء تسوؤك ولا تسرك وأشياء تضرك ، وكنت أنت في غني عنها وسلامة منها ، فإياك – بعد اليوم – أن تستهين بذنب ، فإن إبليس إنما أهبط من منزل العز الذي كان يسكنه ، لأنه ترك سجدة واحدة أمر بها ، فتأمل هذا وتذكر كم سجدة لله تركتها ، وآبوك آدم أخرج من دار القرار ومنازل الأبرار بلقمة واحدة نهاه ربه عنها فما صبر عليها ، فتامل هذا وتذكر : كم لقمة من حرام أكلتها وفي فمك ألقيتها . وملأت جوفك بالسحت وقد نهاك عنه مولاك ، والقاتل أخي الحبيب ، حجب عن الجنة بملء كف من دم وأنت تقتل نفسك في اليوم مائة مرة حين توردها المهالك ، وتركب بها المعاصي ، وتقتل غيرك بلدغ اللسان وسيف البهتان وسهام العيون وبطش اليد وسطوة الرجل ، فقل لى بربك : ألا تخشي أن تحجب كما حجب هذا القاتل عن دار الخلود وجنات النعيم ؟ وهذا الزانى – حفظت أخي – قتله ربه شر قتله لإيلاج قدر أنملة فيما لا يحل له ، فتعفف أخي ، واحجر اليوم علي جوارحك وأنت لها مالك وعليها حاكم ، قبل أن تتحلل من سلطانك ، فتنطق رغما عنك وتقيم الحجة عليك ، قائلة :" **أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء** " في موقف تقوم فيه وحيدا ، وتبدو فيه ضعيفا ، أخي أيها المقيم علي الذنب ، المصر علي المعصية ، لقد أمر ربك بإيساع الظهر سياطا بكلمة قذف أو قطرات من مسكر ، وأنت سكران عمرك بخمر الهوي ، وشراب الشهوة ، فمتي تفيق ؟ ألا تدري أخي الحبيب أن ربك تعالي – وهو الحكيم – قد قطع يد السارق فيما يساوى ثلاثة دراهم ؟ هانت بالحرام يده فقطعت فيما لا قيمة له ، وأنت تقلب يدك ذات اليمين وذات الشمال ولا تبالي ؟ عجبا لك أخي ثم عجبا لك ، أما آن لقلبك أن يصحو من غفلته ، ولعقلك أن يفيق من سكرته ، ولهمتك أن تحلق بعيد عن الدنيا والدنايا ؟ أخي استحلفك بربك حرصا عليك وحبا لك وشفقة علي مصيرك ، قلها الآن قبل أن تحاول فتقشل ، وقبل أن تطلب فلا تجد قل : أستغفر الله . أستغفر الله . أستغفر الله .

أخي الحبيب ، إن الذي طرد إبليس من الجنة في سجدة تركها ، وأخرج آدم من جواره بلقمة أكلها ، وحجب القاتل عن الجنة فى كف دم ، وقتل الزاني شر قتلة بإيلاج قدر أنملة فيما لا يحل له ، وأوسع الظهر جلدا بكلمة قذف وقطع يدا في ثلاثة دراهم ، فلا تأمن أن يحبسك في النار بمعصية واحدة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس:15]

رأس البـــلاء

إن شر داء يصاب به المرء أخى هو : الغفلة ، فالغفلة داء يحل بالقلب فيقعد به عن كل خير ، ويقبض علي النفس فلا يدع لها همة ، ويعمى البصر فلا يعرف معروفا ، ويطمس البصائر فيعميها عن الحق ، وينزل كالوقر على الأسماع فلا يصل إليها من ألحان الإيمان صوت يوقظ القلب من غفلته ويبعث النفس من مراقدها ، وإجمالا أخى الحبيب : لا خير في الغفلة ولا فلاح لغافل ، ولهذا تقدم إليك إمام الواعظين وشمس أرباب القلوب شيخ الإسلام ابن الجوزي ونادي عليك بصوت ملؤه الحب ورحيقه الود ، وعبيره الإخلاص ، لتعلم أن الأمر جد ، وأن السفر بعيد ، وأن الزاد قليل ، وأن المصير إما جنة وإما نار . وأن المقام الدائم إما مع الأبرار وإما مع الفجار ، فاسمع إليه يقول لى ولك ويهتف بى وبك :(**يا أعجمى الفهم متى تفهم ؟ يا فرحانا بلذة عقابها جهنم ، ستدرى متى تبكى ومتى تندم، إذا جثا الخليل وتزلزل ابن مريم ، يا عاشق الدنيا كم مات بحبها متيم ، ما للفلاح علامة والله أعلم ، غاب الهدهد عن سليمان ساعة فتوعده ، فيا غائبا عنا طول عمره ، أما تحذر غضبنا ؟ خالف موسى الخضر ثلاث مراحل فحل وصل العقد :"هذا فراق بيني وبينك")** (1) .

لقد والله صدقك القول ، وأخلص لك النصح ، فدعني أنا أيضا أسال نفسى و أسألك – على قاعدة : فلينصح العصاة بعضهم بعضا – إلى متى نحن فى غفلة و الموت يحصد البرية حصدا ؟ سبحان الله ! إنها الدعاوى الكاذبة حين يفضحها الصدق، والأقوال المزخرفة حين يهتك سترها العمل السيء،ندعى نحن الاستعداد للموت

---

(1) المواعظ والمجالس صــ205 ابن الجوزى . مكتبة الإيمان والآية من سورة الكهف : 78

ونلبس لبوس الزاهدين و نحن أحرص الناس على حياة،و نزعم أننا أبناء الآخرة ، و قلوبنا ترتع فى الدنيا كالوحوش فى البرية،و ندعى أننا نحب الله و رسوله و حب العاجلة لم يدع فى القلب مجالا لغيرها وهذا كله جعل شقيقا البلخى يقول و كأنه ينظر إلى قلوبنا،و يكشف بأنوار بصيرته أستار الزيف التى تحيط بها و يقول : (**الناس يقولون ثلاثة أقوال و قد خالفوها بأفعالهم،يقولون : نحن عبيد الله و هم يعملون عمل الأحرار و هذا خلاف قولهم،و يقولون : إن الله كفيل بأرزاقنا و لاتطمئن قلوبهم إلا بالدنيا و جمع حطامها،و هذا أيضا خلاف قولهم،و يقولون : لا بد لنا من الموت و هم يعملون أعمال من لا يموت . و هذا أيضا خلاف قولهم**) [1] .

أتدري أخي الحبيب لماذا تخالف أفعالنا الأقوال ؟ إنها الغفلة أخي ، الغفلة التي تجعل أحدنا يقول بلسانه : اللهم إني عبدك وأفعاله ليست أفعال العبيد ولو كان عبدا لله حقا لألزمته العبودية صراطها ، ونسجت حوله خيوطها فاستقام عليها قولا وعملا ، ظاهرا وباطنا .

إنها الغفلة أخي ، الغفلة التي جعلت أحدنا يقول بلسانه : إن الرزق بيد الله ، ولم ينخ مطاياه بساحة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:58]، فراح يرتع في طلبها كوحش في فلاة ، لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال إلا إذا أمسك بتلابيبها وقبض علي حطامها ، وعض بنواجذه علي زينتها وزخرفها ، ولو كنا نؤمن حقا أن الرزق بيد الله ، لاطمأنت قلوبنا واستراحت نفوسنا في ظلال ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:6] .

نعم أخي إنها الغفلة التي تجعل أحدنا يقول بلسانه : لابد من الموت ، ولم يطب له المقام ساعة في واحة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64].

إننا أخي ندعي حب الله وحب رسوله وحب الصالحين من عباده ، ولكن حب ليلي وسعدي ولبني قد ملأ نفوسنا وشغل الطريق إلي قلوبنا ، فإلي الله تعالي نشكو عذب

---

(1) مكاشفة القلوب صـ25 الإمام الغزالي . مكتبة الإيمان

حديثنا وسوء فعالنا ، إننا لو كنا ندرك حقا ونؤمن صدقا أنه لابد من الموت لاستقام حالنا ، ولكنها الغفلة أخي فمتي نفيق ؟

فمتي التوبة من سوف؟

إن أهل النار أخي يصرخون ، ألم ينته إليك صراخهم ؟ ويستغيثون ، أتدري لماذا يستغيثون ؟ لن أجيبك ، فأنا مثلك ، أشكو ما تشكو ، وأعاني ما تعاني ، ولكن سأدع رجلا من الربانيين يجيبك ، فهو أهل ذلك ، حيث صفت روحه وسمت نفسه ، وانقشع غبار الغفلة ودخان الهوي عن قلبه فراح يحدث عن حقائق الأشياء كأنها رأي عين ، إنه الإمام ابن الجوزي فاسمع ما يقول :" **إن أكثر استغاثة أهل النار من (سوف) كانوا يقدمون علي المعصية ، ويؤخرون التوبة ، ويقولون : سوف نتوب ، فاختطفهم الموت علي شر حالة ، فألقوا في نار الجحيم** " [(1)] . ياالله ! سوف نتوب ، وآه من سوف ، فتأمل أخي قول هذا العبد الصالح : فاختطفهم الموت علي شر حالة ، واستعذ بالله من الغفلة ، فهي التي ضربت علي آذانهم وطبقت علي قلوبهم ، فباتوا في غيهم ، وأصبحوا علي بغيهم ، مقيمين علي المعصية حتي ...... حتي ماذا ؟ حتى جاءهم الموت بغتة وهم علي ذلك ، فكانت الخيبة – نعوذ بالله منها – وكان الهلاك والسبب أخي كما تري : الغفلة ، ولأجل ذلك كانت التوبة من الغفلة هي أعلي طبقات التوبة ، هكذا جعلها الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالي فقال يشرح لي ولك طبقات التوبة : **والتائبون علي ثلاث طبقات :**

فأدناهم : التائبون من الكفر.

وأوسطهم : التائبون من المعصية .

وأعلاهم : التائبون من الغفلة[(2)] .

إن الغفلة أخي تغلف القلب فلا يكاد يعي أو يذكر ، وتجعل علي العين غشاوة فلا تكاد تري أو تبصر ، وتضرب علي الآذان وقرا فأنى لها أن تسمع ؟ وهذه الحال – أعيذك بالله منها – هى حال أهل النار ، فتأمل قول ربك جل وعلا يصفهم لك لتفر

---

(1) التذكرة في الوعظ . صـ108 دار ابن خلدون .

(2) نفس المصدر السابق .

منهم ومن أوصافهم فرارك من مجذوم ، وتهرب من خيالهم هروبك من أسد قاتل ووحش كاسر يقول مولاك في وصف أهل النار : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:179] فتأمل قوله تعالي : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ واستمع إلي سيد رحمه الله تعالي في ظلاله وهو يشرحها لك ، فيمطر أذنيك زهرا وعطرا ، وقلبك روحا وريحانا وأنصت إليه يقول : (**فقد زودوا بالقلب الواعي والعين المبصرة ، والأذن الملتقطة ، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا ، إذا مروا بالحياة غافلين ، لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهدها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها ، فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلي استعداداتها الفطرية الهادية ، ثم يكون من ذرء جهنم يجري بهم قدر الله إليها وفق مشيئته**) [1] .

أخي الحبيب . إن العافية في الذكر والطاعة ، والبلاء كل البلاء في اللهو والغفلة ، والشفاء في الإنابة والتوبة ، فانفض غبار الغفلة ، واطرح عنك هموم العيش ، وفارق النفس وشواغلها ، وخذ لربك خطوة ، وناده نداء الكريم ، وجاوبه جواب الكليم : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:84] وكن علي ثقة أخي بأن مولاك كريم ، ولن تقترب منه شبرا حتي يقترب منك باعا ، ولن تقطع باتجاهه باعا ، إلا ضاعف إليك السعي فتقرب منك ذراعا ، ولن تطأ قدمك طريق التوبة إلا وجدته عز وجل يهرول نحوك ، فماذا تنتظر ؟.

عندما يضحك الصالحون

إن غفلتنا أخي وآه من غفلتنا ، جعلت الصالحين يضحكون ، ولكنه والله ضحك بطعم البكاء ، سمعناه من حكيم القوم أبي الدرداء رضي الله وهو في بستان التوبة يجلس ، فاقتربت منه وقلت : يا صاحب رسول الله سمعتك تضحك ، ورأيتك مطرق الرأس مشفقا قلقا ، فماذا أضحكك ؟ فرد بصوت ملائكي كأنه من رياض الجنة

(1) في ظلال القران جـ3 صــ1401 . طـ دار الشروق .

أتي وأجاب : أضحكني ثلاث : مؤمل دينا والموت يطلبه ، وغافل ليس مغفولا عنه ، وضاحك ملئ فيه لا يدري أرضي الله عنه أم سخط ، ألقاها الحكيم هكذا في وجوهنا وتركنا في دهشتنا ثم انصرف ، فيارب ثبت قلوب عبادك أن تنهد ، واربط عليها حتي لا تنفطر ، إن أبا الدرداء يضحك ، ولكنه – كما أسلفت – ضحك من اختلط الدمع بعينيه مع الدهشة في عقله ، فأثمرا معا حسرة في نفسه ، ضحك من يرى إنسانا بخفة الفراشة وحرص الذئب يلهث ويجري ، وهو لا يدري أن الموت بنفس الحرص –أو أشد – يستقبله علي الطريق ، ضحك من يري إنسانا أثقلته حاجاته ، وأسكرته رغباته ، فنسي أن ذنبه مرصود ، وأن عمره محدود ، وربه قيوم لا تأخذه سنه ولا نوم ، ضحك من يرى إنسانا لاهيا يضحك حتي يستلقي علي قفاه ، والمسكين لا يدرى هل رضي عنه ربه فحق له أن يضحك أم سخط عليه فالبكاء به أولي والصراخ بمثلة أليق ؟ يالله... يا رب العالمين ، ما أشد غفلتنا وما أعظم المصير الذي ينتظرنا ، إن حالنا والله هو حال النملة التي حدث عنها بشر الحافي فقال (**إن في هذه الدار نملة ، تجمع الحب في الصيف لتأكله في الشتاء ، فلما كان يوم أخذت حبة في فمها ، فجاء عصفور فأخذها والحبة ، فلا أكلت ما جمعت ، ولا ما أملت نالت**).

فهل وعيت المثل أخي وأنت اللبيب ؟ وهل التقطت الإشارة وأنت المؤمن الفطن الذي له في كل شيء أية تدل علي رجاحة عقله وعظيم فطنته ؟ إن هذه النملة هي أنا وأنت ، وكثير من أمثالنا ، نرتع في طلب الدنيا بحرص الثعلب وشراسة الذئب ، ونجمع في دئب وجد ، دون كلل أو ملل ثم ... ثم ماذا ؟ ثم يأتي الموت ، فلا يأكل المسكين منا ما جمعه ، ولا يدرك ما طلب ، بل وجد الله عنده فوفاه حسابه .

عظنا ياشبيه الأنبياء

أخي هل تذكر الحسن البصري ؟ هل تذكر مجالس وعظه ؟ إنها المجالس التي لا تختلف عن رياض الجنة ، تسرح فيها النفوس ، وتحن إليها القلوب ، وتهوي إليها الأفئدة ، حيث الحكمة يرسلها فكأنما خرجت من قلب نبي والموعظة كأنما جرت علي لسان ولي ، وكلامه الذي يحي القلب ويزجر النفس ،

هذا هو الحسن أخي يعظ بصدق النائحة الثكلي لا المستأجرة ، فإذا وعظه يصرخ فينا وباختصار عجيب ، يلخص قصة الخلق وتاريخ البشر يقول مناديا : يا ابن أدم .. السكين تشحذ ، والتنور تسجر ، والكبش يعتلف [1] فنحن الكباش أخي والموت هو السكين ، والنار مصير الغافلين ، أفبعد كلام الحسن تليق بناالغفلة ؟ إن روضة التوبة لا يدخلها غافل ، فالذنب سيجرحك ، والموت سيذبحك ، والموقف بين يدي ربك سيفضحك ، والنار من وراء هذا ستنضحك ، وكل امريء حجيج نفسه .

للذنوب عشرة عيوب

" **اترك الذنب أو ارحل** " لافتة معلقة بين شجرتين في روضة التوبة ، وقفت أمامها أقرأ وأتدبر ، فقال صاحب لي يحاورني : اترك الذنب أو ارحل ، شرط معجز ، فللذنب سلطان ، وللمعصية أعوان ، فمن ذا يستطيع أن يترك الذنب مع عادة تقيده ، ونفس تغريه ، وشيطان يعده ويمنيه وهوى يطيح به ويلقيه ، ودنيا من خمرها تسقيه ؟ قلت : إن العاقل ينظر في المآلات ، ويتدبر العواقب ، وإني أري لك عقلا فاسمع إلي الإمام السمرقندي يقص عليك ماللذنوب من عيوب ، ثم افعل بعدها ما يليق بك ، وما يجدر بمثلك ، يقول رحمه الله تعالي :" لا تغرنك هذه الآية : ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام:160] فإن السيئة هي **الأخري لها عشر من العيوب** :

أولها : أن العبد إذا عمل سيئة فقد أسخط خالقه علي نفسه .

والثاني : أنه بالذنب أسعد أحرص الخلق علي هلاكه ، وهو إبليس عدو الله وعدوه.

والثالث : أنه بالمعصية يتباعد عن أحسن المواضع وهو الجنة .

والرابع : وأنه يتقرب إلي شر البقاع والمواضع وهو جهنم .

والخامس : أنه جفا أحب شيء إليه وهو نفسه .

والسادس : أنه نجس نفسه بالمعصيه ، وقد خلقها الله تعالي طاهرة .

---

(1) حلية الأولياء جـ2 صـ152 .

والسابع: أنه آذي أصحابه الذين لا يؤذنه ، وهم الحفظة .
والثامن: أنه أحزن حبيبه محمدا عليه الصلاه والسلام في قبره ، فأعمالنا تعرض عليه .
والتاسع: أن الأرض والسماء والزمان والمكان كل ذلك تأذي بالمعصية .
والعاشر: أنه خان الخلق أجمع ، لأنه بمعصيته يمنع القطر أن ينزل من السماء .

يالله لطفا ، أفبعد كل هذا تسأل أيها الحبيب ، والتقي اللبيب : كيف أترك الذنب ؟ بالله عليك أخي : الم يؤلمك قوله عن الذنب : أنه يؤذي النبي في قبره لأن اعمالنا تعرض عليه ؟ ألم يرق لها قلبك ؟ أترضي أن تكون سببا في هم يدخل علي الحبيب ﷺ قبره ؟ أما يكفيه تطاول أعدائه ، وعناد شانئيه ومبغضيه حتي نضم إليها بجحود وقسوة ذنوب أتباعه وتقصير أشياعه ، حبيبي يا رسول الله عذرا فإن وليك الله وسوف يكفيك ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزُّمَر:36] أخي إن كان صعبا أن تترك الذنب ، وأن تهجر بساط المعصية ، فإن ما يترتب علي الذنب أشد وأصعب ، وما يعقبه من الحرمان أدهي وأمر .

في رحاب آية

الآن أخي أقترح عليك أن تجمع آيات التوبة في موضع واحد ، وبخط يدك ، ثم اقرأها وأعد قراءتها مرة بعد مرة ، متأملا زهرها ، ومتنفسا عطرها ، ودع نفسك تنتشي بجلال سحرها ورحيق خمرها ، أما أنا فهديتي إليك زهرة منها لا ككل الزهور ، بل هي في روعتها متفردة ، وفي بديع حسنها واحدة ، فافتح قلبك قبل أذنيك ، حتي يستقر عبيرها هناك ، في أعماق القلب ودهاليز الروح ، فهذا هو مكانها الذي يليق بها ، اقرأ أيها الحبيب دعاء ربك ونداء مولاك : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر:53] يالله ! ما هذه الروعة ؟ أعد قراءتها أيها الحبيب وقطع الآية هكذا : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ ثم توقف ، ثم أكمل : ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ثم توقف ، ثم أكمل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ ثم توقف ، ثم أكمل : ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ثم أجبني : هل اهتزت روحك ؟ هل انطبعت معانيها في

نفسك ؟ سأدع **سيدا** رحمه الله تعالي يمد لك يد العون بريشته المبدعة ، وقلمه المعبر ، ومعانيه الخلاقة ونفسه التواقة ، وروحه المرفرف يقول سيد : (**إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية ، كائنة ما كانت ، وإنها الدعوة للأوبة ، دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال ، دعوتهم إلي الرجاء والأمل والثقة بعفو الله فليس بين الإنسان وقد أسرف علي نفسه ولج في الذنب وأبق عن الحمي وشرد عن الطريق ، ليس بينه وبين الرحمة الندية الرطبة ، وظلالها السمحة الجميلة ، ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة ، والتوبة وحدها ، الأوبة إلي الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع ، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلي استئذان " وأنيبوا إلي ربكم وأسلموا له " ، الإنابة والإسلام والعودة إلي ظلال الطاعة وأفياء الإسلام هذا هو كل شيء ، دون طقوس ولا مراسم ، ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء ، إنه حساب مباشر بين العبد وربه وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق ، من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب ، ومن أراد الإنابة من الضالين فلينب ، ومن أراد الاستسلام من العاصين فليستسلم،وليأت وليدخل،فالباب مفتوح،والفيء والظل والندى والرخاء كله وراء الباب ، ولا حاجب دونه ولا حسيب،فهيا هيا قبل فوات الأوان،هيا فالوقت غير مضمون،وقد يفصل فى الأمر وتغلق الابواب فى آية لحظة من لحظات الليل والنهار**) [1] .

لا وقت للتردد

فلا تتردد أخي،إن الرحمة تنتظرك،والروح والريحان والنور والإيمان،على بعد خطوات منك،ففارق الذنب خطوة،فثم الأنس والحظوة،وابتعد عن المعصية فثم الراحة،راحة القلب،راحة البدن،راحة الضمير،إن ربك أخى لا تضره معصية،ولا تنفعه طاعة،وقد نصحك بالتوبة،فلماذا تتردد ؟ ودعاك إلى الدخول إلى حظيرته،فلماذا تتأخر ؟ كم من ناصح لك قد قبلت نصحه بالتوبة ، وهو بالنصيحة غير جدير،حتى هيجت الإمام ابن الجوزى فراح يعاتبك قائلا : (**لو أن طبيبا نصرانيا عافاك عن شرب الماء البارد لأجل مرض من أمراض**

---

(1) الظلال جـ5 صــ3058. مصدر سابق .

الجسم لأطعته فى ترك ما نهاك عنه،وأنت تعلم أن الطبيب قد يكذب وقد يصدق،ويصيب ويخطىء وينصح ويغش،فما بالك لا تترك ما نهاك عنه أنصح الناصحين وأصدق القائلين ؟ لأجل مرض القلب الذى إذا لم تشف منه فأنت من أهلك الهالكين ؟) [1] .

جرب هذا الدواء

أخى أيها المذنب – وكلنا ذلك الرجل – إذا غلبتك نفسك،وقهرك شيطانك،وصار الذنب يجرى منك مجرى الدم فى العروق . وأحاطت بك خطيئتك،فلا أرى لك عن الصوم بديلا،وإذا كان الذنب داءك،فإن الصوم دواؤك،يصد عن الذنب ويقطع الشهوة،ويفطم النفس عما تألفه،فعليك به،فقد نعته لك حبيبك ﷺ فقال لمن طلب منه النصيحة : عليك بالصوم فإنه لا مثل ، له وفى رواية لا عدل له ويشرح لك ابن قدامة رحمه الله فلسفة الصوم فيقول: (**إنه قهر لعدو الله،لأن وسيلة العدو الشهوات بالأكل والشرب ، ما دامت أرض الشهوات مخصبة فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى،وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك**) [2].وصدق والله وصدقته التجارب،فإن البطن إذا امتلأت تحركت الشهوة،وثارت الغريزة،ووجد الشيطان مسلكا آمنا إلى عقل الإنسان وقلبه ، فتكون الطامة والتجربة خير شاهد،واسمع واستمتع بما قصه عليك أحمد ابن الحوارى رحمه الله تعالى حيث قال : خرجت مع أبى سليمان الدارانى فمررنا على زرع،وإذا طائران يلتقطان الحب،فلما شبعا أراد الذكر الأنثى،فقال :(**يا أحمد انظر فيما كان،لما شبعا دعته بطنه إلى ما ترى**) [3]. إنها تجربة عملية،رآها الصالحون،ثم وضعوا لك تلك الحكمة : إذا شبعت المعدة جاعت الجوارح وهاجت الشهوات،فجرب الصوم وعليك بالصبر.

---

(1) التذكرة في الوعظ صـ36 مصدر سابق .
(2) مختصر منهاج القاصدين صـ43 طـ دار التراث .
(3) حلية الأولياء جـ9 صـ268 . مصدر سابق .

الصوم ثم الصوم

ويؤكد شيخ الإسلام ابن القيم ما مر ويزيد الحقيقة وضوحا فيقول بلسان الناصح وقلب الحريص المشفق : (**وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة .... فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات**) [(1)] .

إن الصوم علاج ناجع،ودواءنافع،وشفاء عاجل،فعليك به ولا تتردد،فالصبر والجوع بعض الوقت أهون من الصبر على النار كل الوقت،وأختتم أخى هذا المشهد بلوحة من ذهب لابن الجوزى رحمه الله فحفظها فهي جديرة أن تحفظ في خزائن القلب وإنسان العين يقول رحمه الله: (**لا نقدر على التخلص من بلوى المعصية إلا بالتخلص من سجن الغفلة،ولانتخلص من الغفلة إلا بتضمير البطن – يعنى الجوع – وتفريغ القلب ومواصلة الذكر،فجوع بطنك،وارفض شغلك،واذكر ربك يعتزلك شيطانك**) [(2)] .

فكن كأبي محجن

وأخيرا أخى الحبيب،اسلك درب الصالحين،والزم غرزهم،وضع القدم مكان القدم،واجعل من هديهم عونا لك على غايتك،واقتد بمن سبقك بإحسان تنل الحسنى عند ربك،واترك الذنب كما تركوا،تفتح لك مغاليق الأبواب،ويوضع لك القبول فى الأرض فلا تطرق بابا إلا فتح،ولا تطلب أمرا إلا قضى،نعم أخى الحبيب ، اهجر الذنب الآن وليس غدا،وقل له :هذا فراق بينى وبينك،وكن كأبى محجن يوم ترك الخمر لله،حيث تذكر أن ما عند الله هو خير،وأن من ترك لله شيئا عوضه الله تعالى ما هو أبقى،وإليك خبر أبى محجن لتعتبر،فأن فيه لذكر ولكن : هل من مدكر ؟

لما خرج المسلمون للقاء الفرس يوم القادسية كان معهم أبو محجن الثقفى،وهو رجل ذو خبرة فى القتال ودراية بالنزال ومع ذلك غلبته نفسه،ونزغه شيطانه فشرب

---

(1) زاد المعاد جـ2 صـ29 .

(2) التذكرة في الوعظ صـ36. مصدر سابق .

الخمر وهى أم الخبائث،وأس البلاء وحاملة المرء إلى طينة الخبال ودرك الشقاء،فما كان من سعد ﷺ إلا أن حبسه فى سجن و جعل القيود فى قدميه والأغلال فى عنقه و يديه،ويو م اللقاء الفاصل أشرفت زوجة سعد على ميدان المعركة،وأحست أن المسلمين فى حاجة إلى جهود هذا الفارس المقيد،فتصرفت بمفردها وحلت قيده،فركب فرسا لسعد،وحمل على الفرس كليث غابات كريه المنظرة،وأبلى بلاء حسنا،حتى هزم أعداء الله،وعاد أبو محجن بنفسه إلى السجن و وضع القيود فى قدميه والأغلال فى يديه،ورجع سعد فأخبرته زوجته،ووقف سعد على شدة بأسه وعظيم بلائه فقال :والله لا أحبسه فى الخمر أبدا،فما كان من أبى محجن إلا أن رد التحية بخير منها وقال : وأنا والله لا أشرب الخمر بعدها أبدا،وقد كان فتاب البطل توبة نصوحا،وترك خمرا فى الدنيا تذهب العقل ، طمعا فى خمر الجنة التى تزيد فى العقل،وتشفى الصدر،من أنهار جارية،يفترش المتقون شواطئها،فى جنات ونهر عند مليك مقتدر.

فكن أخى كأبى محجن واهجر الذنب وقل : وداعا أيها الذنب وداعا لا لقاء بعده،يبدل ربك سيئاتك حسنات،ويستر لك الهفوات.

لا تكن كهؤلاء

بعض الناس أيها الحبيب،تجده يترك الذنب حياء من الناس،أو عجزاً عن إدراكه ، وهذا لا بأس به للمنعزل عن الله،المنقطع عن مولاه،أما أنت أخى فلك شأن آخر لأنك :

ممن ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:57]

وممن : ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:90]

وممن : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:16]

وأنت أخى من الذين قال الله فيهم : ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج:27،28]

نعم أخى الحبيب أنت من هؤلاء الربانين لست موسميا فى الطاعة،ولا شيطانيا فى السلوك،ولأجل هذا لا يليق بك **أن تكون من هؤلاء :**

- ممن ترك الذنب فقط لأجل أنه يؤثر على سمعته بين الناس.
- ممن ترك الذنب فقط لأجل أن يحفظ قوته و يتقى الخبيث من الأمراض.
- ممن ترك السرقة فقط خوفا من الحارس أو فقد المنفذ إلى غايته.
- ممن ترك الذنب فقط لأنه عجز عن الوصول إلى شريك له فى الإثم.
- ممن أصر على الذنب فهو يذكره إذا أصبح،ويطلبه إذا أمسى،و لكنه فقط يتركه عجزا عن إدراكه وفقدا لأسبابه.

إنها أمثلة تغني عن الحصر،فإياك إياك وهؤلاء،وكن فقط ممن ترك الذنب لله تعالى يرجو رحمته،ويخاف مقامه تنل ثناء ربك وجزاء مولاك الذى أثنى على هذا الصنف المبارك وحدد جزاءهم حين قال : ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:46]،وقال كذلك : ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات:40،41] . يقول سيد رحمه الله :(والذى يخاف مقام ربه لايقدم على معصيته) [1] .

وبعد الترك ندم

أتعرف أخى عاقبة المعصية ؟ أتعرف مصير المذنب المقيم على الذنب لا يرحل ؟ أتدرى حين تجرأت على الذنب على من تجرأت ؟ وفى حق من أخطات ؟ إن عاقبة الذنب وخيمة، ومصير المصر خزى وألم،وأنت كذلك قد تجرأت على مولاك فأين حرقة الندم وحمرة الخجل ، وأمارات الحياء ؟ إن حبيبك ﷺ يقول :" **الندم توبة** "[2] فإذا وفقت لترك الذنب فاجتر الندم اجترارا، وأظهر لمولاك تواضعا وانكسارا،وأره منك مذلة وخضوعا وألما وحسرة، واستعرض ذنوبك ذنبا ذنبا،صغيرها والكبير،وأظهر الإشفاق والإطراق،واسمع ما قاله حبيبك ﷺ تعرف قيمة الندم على الذنب ومنزلة التائب إذا أحزنه فعله والّله ذنبه يقول ﷺ : "**إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له** " [3] . ما تقول أخي فى هذا الحديث ؟ إنه يطمئنك،ويدخل الراحة على نفسك،ويفتح أبواب الأمل المشرق أمام عينك

---

(1) في ظلال القران جـ6 صـ3818 . مصدر سابق.
(2) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده عن ابن مسعود.
(3) أخرجه أبو نعيم في الحلية .

حتى لا تقنط،وقبل أن يغيب عنك معناه إليك أخ له ليثبت فى ذهنك،ويرتكز فى قلبك يقول ﷺ : لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم " –أخرجه ابن ماجه عن أبى هريرة وإسناده حسن – بلفظ لو أخطئتم ثم قال : ثم تبتم كما فى هامش الإحياء جـ4 صـ21 . أما الصالحون أخى فلله درهم،لقد أدركوا ما للندم من مكان و مقام وما للنادم من ثواب وجزاء فراحوا واحدا بعد الآخر يذكرون ويحفزون،فاسمع ما يقوله عبد الله ابن سلام :لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل،إن العبد إذا عمل ذنبا ندم عليه طرفة عين،سقط عنه أسرع من طرفة عين[1]،أيعجبك هذا ؟

نعم والله إنه لعجيب،وهذه أخى الحبيب أعجب : يقول حبيب بن ثابت :تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب **فيقول :**

أما إنى كنت منه مشفق فيغفر له [2] ، إن الندم طريق القبول،وأول خطوة نحو الوصول ، فاندم اليوم قبل أن تبحث عن الندم فلا تجده،ولعلك تسأل الآن :لماذا الندم ؟

وعلى أي شيء يكون ؟ **فيجيب الصالحون :**

- تندم على بعدك عن مولاك لحظة ركوبك الذنب وسقوطك في الإثم
- تندم على مطاوعة الشيطان وخضوعك له وإسراعك فى مرضاته .
- تندم على بعد الملائكة عنك ونفورهم منك حال ملابسة الذنب .
- تندم على ما ضاع من عمرك فى معصية ربك .

تندم على كل ذلك،واحمد ربك الذى منحك فسحة الأمل لتستدرك ما بدر منك،وتغسل بالدمع ما كان فى زمن الغواية والهوى،واسمع شيخك ابن الجوزى رحمه الله وهو يهتف بك : (**ويحك ، اغسل العثرة بالعبرة،وادفع الحوبة – الإثم – بالتوبة،ما دام فى الوقت مهلة،وفى زمن السلامة فسحة،قبل أن ترى أن السمع والبصر قد كلا،وتقول : " رب ارجعون " فيقال "كلا"،قبل أن يكون دمع الأسى من جفن الأسى منهلا ويقال: هلا كان هذا قبل هذا هلا**) .

---

(1) إحياء علوم الدين جـ3 . صـ23 . الإمام الغزالي .

(2) المواعظ والمجالس. صـ181 . مصدر سابق .

عبرة تغسل العثرة

ثم اسكب أخى ماء عينك،وليكن منبعه الفؤاد،ومصبه فى الجفون وعلى الخدود،واغسل به ما لوثته الذنوب،وأرسل الدمع مدرارا يطفىء ببرده نيران الخطايا وينزل على الجراح بردا وسلاما،ليعيد البكاء من خشية الله تعالى إلى القلب ما فارقه من الأمن فى ظلال الطاعة،وما فاته من السكينة والأنس فى رحاب المولى عز وجل،فابك على خطيئتك،فلعل دمعة تحلق بك إلى العلى والدرجات بعدما نزلت بك الذنوب إلى الحضيض والدركات،ابك على ذنبك لعل البكاء اليوم يرد عنك لهب النيران غدا،نعم أخى ابك لتصبح من أهل هذه البشارة يقول حبيبك ﷺ : **"عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله،وعين باتت تحرس فى سبيل الله"**،وصدق الحبيب حين يقول لكننا أخى لظروف نعرفها فاتتنا الحراسة فى سبيل الله فلا سيف نحمله،ولا رباط نحميه ولا خيل نعدها فإن لاحت لنا نجاة ففى دمعة ندم على ذنب مضى أو خفقة قلب من خشية الله،فإن فاتتنا الحراسة فلا يجوز أن تفوتنا الأخرى فإنها والله غالية،لا تشترى بمال،ولاتنال بجاه وإنما هى عطاء الله لمن يشاء،يقول ابن عمر مبينا منزلة هذه الدمعة التى لا نقدرها حق قدرها : لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار،فرحم الله العبد الصالح الورع الزاهد العالم الفقيه ابن عمر،لقد أدرك قيمة الدمعة وفضلها فأخلص ونصح،ونحن اليوم مساكين فلا درهم نتصدق به ولا دينار،أفلا نتصدق بدمعة نعتق بها رقبة،ونتجاوز بها عقبة ونقطع بها المفازات فى سيرنا إلى الله تعالى والجنة ؟

وفعل محمد أعجب

وليس أعجب من قول ابن عمر سوى فعل محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى،فقد كان إذا أسعفه قلبه بدمعة،وفاضت عينه بقطرة،وجرى العطر الحلال من بين جفونه،يمسح بمائها وجهه ولحيته ويقول : بلغنى أن النار لا تأكل موضعا مسته الدموع [1]،ويا الله ما أروعه،وما أحلى منطقه لقد رقت

---

(1) الإحياء جـ3 صـ163.

قلوب القوم فجرت دموعهم،وقست قلوبنا – وإلى الله المشتكى- فقحطت أجفاننا ، فابك أخي أو تباكى،كما كان يفعل الصالحون حتى تغرق الذنوب ببحر الدموع،فتأتى العبرة على العثرة،وتمحوا التوبة الحوبة،فإنه لاخير فى عين لا يفيض ماؤها ولا تجرى دموعها وخاصة حين تكون عينى أو عينك فأنت بنفسك أعلم وبعثراتها أدرى،وانظر ما يقوله ثابت البنانى رحمه الله،تابعى جليل اشتكى عينه،فقال له الطبيب : اضمن لى خصلة تبرأ عينك،فقال ثابت : وماهى ؟ فقال الطبيب : لاتبك،فقال ثابت : وما خير فى عين لا تبكى ؟ [1] ومن أجل هذا بكى الصالحون حتى ذهب البكاء بعيونهم،بكوا ندما،وبكوا خوفا،وبكوا شوقا فهم في كل أحوالهم يبكون،ويطلبون بالدمع رضا رب قريب،ويبتغون بالندم حرق ذنوب لا يعلمها إلا الله،جاء فى تاريخ بغداد عن الحسن بن عرفة العبدى قال : رأيت يزيد بن هارون بواسط وهو من أحسن الناس عينين،ثم رأيته بعين واحدة،ثم رأيته وقد ذهبت عيناه،فقلت له : يا أبا خالد ما فعلت العينان الجميلتان ؟ قال :ذهب بهما بكاء الأسحار،[2].ذهب البكاء فى السحر بعينيه،ونحن لا نبكى،وإذا بكينا فلدنيا رحلت أو جاه سقط،أو مال قل،أوولد قبض،هذا ما يبكينا اليوم ، أما بكاء الصالحين فكان فقط على ذنب فرط،أو معصية وقعت،أو خوفا من النار،أو شوقا الى الجنة ، وكل يغنى على ليلاه .

إن البكاء على الذنب يغسل الذنب ، واسمع ما قاله مالك بن دينار رحمه الله : البكاء على الخطيئة يحط الخطيئة كما تحط الريح الورق اليابس،فإذا كانت خطيئتك قد تمددت،وطالت فروعها و أورقت،فاجعل بكاءك في الأسحار ربما تدمر الأوزار وتحط الأغلال،وتضع عنك الآّصار. واسمع إلى يزيد الرقاشي وهو يحفزك ويحثك ويستثير دمعك قائلا : بلغنى أنه من بكى على ذنب من ذنوبه نسى حافظاه ذلك الذنب [3] . فابك أخي رب دمعة يذهل بها الحفظة عن ذنبك،وينسون عيبك،ويبقى أمرك بعدها بين يدى ربك ، وربك سبحانه لطيف لما يشاء .

---

(1) حلية الأولياء. جـ2 صـ323.
(2) تاريخ بغداد : جـ14 صـ341.
(3) ذم الهوي . صـ178 ابن الجوزي.

عين جارية لكل عين جارية

إن الندم وحسرته،والخضوع وكسرته هو وقود التوبة وحطبها. وعلى مقدار الندم وشدته يكون الصدق فى التوبة والعزم فى الإنابة،فاجعل من " **والمستغفرين بالأسحار** " حاديا لك فى سيرك إلى العزيز الغفار،فإن مجانيق الليل،وسهام الأسحار لاتخطىء الإصابة،ولا تفارقها الإجابة،فإذا رزقت اليوم عينا جارية فالجزاء غدا عين جارية فى الجنة،بفضل صاحب الفضل والمنة،واسمع الى شيخ الإسلام **ابن الجوزى** وهو يثير فيك كوامن الشوق لتكون فى الليل من التوابين،و فى الأسحار من المستغفرين،وعند غفلات الناس من الأّوابين،يقول رحمه الله : (أما تشتاق أن تكون من قوم طالما أطالوا القيام بالليل،وتجرى دموعهم جرى السيل،تستبق فى صحراء الخدود كالخيل،وإنما يكال للعبد على قدر الليل،فإذا دخلوا الجنة فلكل عين جارية . ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية:12] .

فقم أخي المذنب فى جوف الليل،وناد ربك فى ظلمة السحر،وارفع صوتك واهتف مع عبد كثرت خطاياه وأثقلته ذنوبه فقام ينادى :

يا رب إن ذنوبى اليوم قد كثرت   فما أطيق لها حصرا ولا عددا .
وليس لى بعذاب النار من قبـــل   ولا أطيق لها صبرا ولا جلدا.
فانظـــر إلهــي إلى ذلى ومسكنتى   ولا تذقنى حرا للجحيم غدا.

ثم اعزم وامض

الآن أخى بعد أن تركت الذنب وراء ظهرك،وودعت أيام المعاصى ولياليها وداعا لا لقاء بعده،فقد آن لك أن تجعل منها ومن ذكراها المؤلمة وقودا يدفعك بعيدا إلى أفق الصالحين،وأن تجعل من حرارة الدمع وحسرة الندم زادا يبلغك رياض المتقين ، فإذا رزقت هذا العزم فاعلم أنك على الطريق تمضي ، وفوق الدرب تسير ، ونحو الغاية تخطو بقدم واثقة ، فالوصول بإذن الله قريب ، فهنيئا لك من قبل وهنيئا لك من بعد ، ولم يبق لك أخي الحبيب إلا أن تشحذ همتك وتستحضر إرادتك وتجمع همك وتستجمع عزمك،ثم انظر إلى غدك نظرة

أمل،سائلا مولاك أن يحفظك من شر نفسك ووسوسة شيطانك ، وأن يكون الغد نقيا كأمواج البحر لا تلوثه خطيئة ولا تعكر صفوه معصية،وهذا العزم أخي يحتاج إلى همة عالية،وعقل يقظ ونفس تواقة،ورغبة أكيدة في طي صفحة السيئات وبسط صفحة الحسنات،والسعي الجاد لطلب الدرجات،من أجل أن يرضى عنك مولاك وأن تسعد بصحبة نبيك ومصطفاك ﷺ حيث الفردوس الأعلى مسكنك،وعرش الرحمن ظلتك، وأبو بكر وعمر جيرانك،وأئمة الهدى إخوانك،والحور الحسان زوجاتك ، والولدان خدامك،فإياك أن تبيع هذا كله بثمن بخس،وتلتفت إلى الخلف،أو تنقلب على عقبيك،فإنه لا يليق بك بعد أن اتخذت لك مكانا بين الصالحين،وبدأت السير في رحاب أهل التقى .

أخي الحبيب : إن العزم عقد وعهد بينك وبين ربك،فإذا عقدت عقدا،أو عاهدت عهدا،فأوف بعهدك،واجعل مادة العقد أن تودع المعصية وأهلها،وأن تفارق أسبابها وتهجر أرضها،فإنها أرض سوء ، إلى أرض يسكنها أهل الله وخاصته،أهل طاعته ورضوانه،فإنهم قوم يعبدون الله ولا ينقطعون،ويسبحونه لا يفترون،ثم أشهد ربك على هذا العقد،وأره من نفسك الوفاء والصدق ،وقل : يا مولاي إني نادم على عمري الضائع،ولىالي الخوالي وعازم على ضدها،فإذا صدقت مع ربك صدق معك وأعانك،وحفظك وعصمك،فمدار الأمر أخي وقرة عيني،على العزم أولا،والصدق ثانيا وتأمل حال الصالحين حين يعزمون كيف يصدقون،مر مالك بن دينار بالسوق فرأى تينا فتاقت نفسه إليه ولم يكن يملك ثمنه،فطلب من البائع أن يؤخره فرفض ، فعرض على البائع أن يرهن حذاءه،فرفض ثانية،فانصرف مالك دون أن يشتري،وأقبل الناس على البائع وأخبروه أن المشتري ذاك هو مالك بن دينار الإمام الورع والتقي النقي،فاستحى البائع أن يرد إماما يعلم الناس الخير،فبعث عربة التين كلها مع غلام له وقال : إن قبلها منك فأنت حر لوجه الله،فأسرع الغلام بالعربة ممنيا نفسه بالحرية حيث لم يتصور أن أحدا يمكن أن يرد مثل هذا العطاء،فلما دخل الغلام على الإمام قص عليه الخبر ودفع إليه العربة بما عليها،فقال له مالك : قل لسيدك إن مالك لا يأكل التين بالدين،وإن مالك حرم على نفسه التين إلى يوم الدين . وهنا

أسقط فى يد الغلام وأخذ يتوسل لمالك قائلا :يا سيدى خذها فإن فيها عتقى ويرد عليه مالك : وإن فيها رقى .

أرأيت أيها الحبيب هذا العزم ؟ إنه عزم الرجال،تزول الجبال ولا يزول،وتتبدل السموات والأرض ولا يتبدل،به يذوب الشيطان ويخنس،وتجف بحار الخطيئة،ويفر الذنب مدحورا مهزوما،لقد رأى مالك أن شهوته أذلته وأن بطنه أهانته،وهذا في شيء حلال أقبلت نفسه عليه،ومالت مجرد الميل إليه،فما كان منه إلا أن نوى الفراق وعزم عزم الرجال على الطلاق،فحرم أكل التين لا يوما أو يومين ولا شهرا أو شهرين بل إلى يوم الدين فلله عزم الصالحين.

أخى الحبيب : إن الذنب لا يليق بك،فإنه يحط من شأنك ويزرى بك،به يغضب ربك ويفرح شيطانك،ويحزن إخوانك،ويتأخر النصر عن دعوتك وأمتك،وقد جعل الله لك فى الحلال متسعا،وفى الطيب المباح خصبا ومرتعا،أفتعجز بعدها أن ترعى فى الحلال وتنأى بنفسك وجوارحك عن الحرام ؟

وماذا لو سقطت ؟

نحن أخي الحبيب لسنا ملائكة،ولسنا كذلك شياطين،وإنما نحن خلق وسط بينهما من تراب وطين،فينا أشواق الصعود وصلاحيات النهوض التى تحملنا إلى آفاق الملائكة،وفينا كذلك وسوس السقوط وأسباب الهبوط إلى حمأ الطين ودرك الشياطين،ومن ثم فحقك أن تقول :

إنى أتوب مخلصا وأرجع نادما،وأعزم صادقا ورغم كل هذا لا ألبث أن أعود،نعم من حقك أخي أن تقول : إنى أستقيم على الصراط حينا وأجاهد النفس صابرا،وأقاوم الشيطان متجلدا،ثم لا ألبس تحت ضغط الهوى،وشهوة النفس وشرك الشيطان أن أنحرف . نعم أخى من حقك أن تقول : إنى أجتهد وأجاهد وأصبر وأصابر فأترك الذنب دهرا ثم لا ألبث حتى أعود إليه قهرا،فلئن قلت ذلك فمن حقى أيضا أن أقول : كلنا يا أخي، ذلك الرجل وإنها والله الحرب الدائرة بيننا وبين أعدائنا،إبليس والدنيا والنفس والهوى،إنها معركة دائرة ودائمة والأيام دول،ينتصر العدو مرة وننتصر نحن مرة،والنكتة هنا أن النصر للمؤمنين،والعاقبة للمتقين مولانا

جل فى علاه يقول : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:173] وللإمام الغزالى رحمه الله كلام تقر به النفوس القلقة،ويسكن إليه خفاق بين الضلوع لا يكاد يحدث توبة إلا ويستقبل ذنبا يقول رحمه الله : **(فإن ثبت ثم نقضت التوبة وعدت إلى الذنب ثانيا،فعد إلى التوبة مبادراً،وقل لنفسك لعلى أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة،وكذلك ثالثا ورابعا،وكما اتخذت الذنب والعودة إليه حرفة فاتخذ التوبة والعودة إليها حرفة . فلا تكن في التوبة أعجز منك في الذنب،ولا تيأس،ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك فإنه دلالة الخير)**.

ما أجمل هذا الكلام !!!!! وما أروعه،وما أصدق وأعمق رؤيته ونظرته،تأمل أخي قوله : وكما اتخذت الذنب والعودة إليه حرفة،فاتخذ التوبة والعودة إليها حرفة . اجعل هذا الكلام في مركز تفكيرك وبؤرة شعورك،واجعل التوبة حرفتك في خلوتك و جلوتك،في إقبالك وإدبارك،في سواد ليلك وبياض نهارك،واحذر أن تغفل عنها،وتعلم الاستغفار،فإنه يطهر الأجواء،ويغسل الأدران،وينظف ما لوثته الذنوب،يقول سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى في قول الله عز وجل : ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء:25]يقول : نزلت في الرجل بذنب ثم يتوب ويذنب ثم يتوب [1] . ويقول طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد،ولكن اصبحوا تائبين وامسوا تائبين [2] .

وتأمل أخي كذلك قول الإمام الغزالي : ولا تيأس،ولا يمنعك الشيطان من التوبة . وهذا غاية في اللطف،فتأمله وتدبره،وذلك إن أحدنا إذا أسرف على نفسه،نفث الشيطان في روعه إنه لا توبة لك فقد فعلت وفعلت،وعصيت فأسرفت،فإن تبت لن يقبل منك ، ومراد إبليس أن تيأس من روح الله،وتقنط من رحمته،فإياك أن تنصت لوسوسته وأن تستسلم لنفثه وهمزه،مهما كان منك،فباب ربك مفتوح لا يغلق،ورحمته سابقة وسابغة،أفتظن أيها الغر أنها تضيق بك مهما كان منك ؟ أخي الحبيب إن الله عز وجل لما لعن إبليس،سأله إبليس النظرة،فأنظره إلى يو القيامة،فقال : وعزتك لا

(1 - 2) إحياء علوم الدين جـ1 صـ22 . مصدر سابق.

خرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح،فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا حجبت عنهم التوبة ما دامت الروح فيهم،وفي رواية : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني [1] .

أحيانا للذنوب فوائد

لا تندهش أيها الحبيب ولا تتعجب فللذنوب فعلا فوائد ، فإن الذنب إذا وقع منك فقد صادف أهله ، وإن قبل مولاك توبتك فهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، فقد قدر الله عليك الذنب – وعلى بني جنسك – وجعل في الذنب،كما يقول ابن رجب – **فائدتين عظيمتين** :

الأولى : اعتراف المذنبين بذنوبهم،وبتقصيرهم في حق مولاهم،وتنكيث رؤوس عجبهم،وهذا أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات،وإن كثير الطاعات يوجب لصاحبه العجب كما قال الحسن رضي الله عنه : لو أن ابن آدم كلما قال أصاب،وكلما عمل أحسن أوشك أن يجن من العجب،وهذا معنى عميق ودقيق أخي،فذنب تفتقر به وتنكسر بسببه خير من طاعة تذل بها وتثني عطفك تيها وغرورا بسببها،وأنين المذنبين أحب إلى الله – كما في حكم ابن عطاء الله – من زجل المسبحين،فأنين المذنبين زانه الفقر والذل والانكسار وزجل المسبحين شانه العجب والافتخار.

الثانية : حصول المغفرة والعفو من الله تعالى،فإنه سبحانه يحب أن يغفر،ومن أسمائه الحسنى الغفار والعفو والتواب،فلو عصم عباده من الذنب فعلى من يتوب وعمن يعفو،ولمن يغفر ؟

قال أبو الجلد : دعا رجل من العابدين ربه فقال : اللهم أصلحني صلاحا لا فساد بعده،فأوحى الله إليه : إن عبادي المؤمنين كلهم يسألوني مثل ما سألت،فإن أصلحت عبادي كلهم فعلى من أتفضل وعلى من أجود بمغفرتي ؟ [2] وكان بعض السلف يقول : لو أعلم أحب الأعمال إلى الله لجاهدت نفسي فيها . فرأى في منامه قائلا يقول : إنك

---

(1) نفس المصدر .

(2) لطائف المعارف صـ57 ابن رجب.

تريد مالا يكون،إن الله يحب أن يغفر[1].

فاجتهد أيها الحبيب في التوبة ، واصدق مع مولاك العزم ، ولن يهلك مع سعة عفو الله وسابغ رحمته وعظيم مغفرته إلا هالك ، ونعوذ بالله من الهلاك وأسبابه.

معينات ومثبتات

أنت الآن أخي قد وفقك مولاك لتوبة،وأجرى على خديك من بحار الندم دمعة،ورزقك من العزم والإرادة ما يبلغ بك الغاية ، ويقطع بك الطريق حتى النهاية،ومع كل ذلك تبقى في حاجة ماسة إلى ما يعينك على الثبات،ويحملك على المداومة،وهو ما سأذكرك به الآن قبل أن يدركنا الوقت ونغادر هذه الروضة المباركة إلى غيرها،فإليك هذه الكنوز ، ضمها إلى صدرك وافتح لها قلبك،وعض عليها بالنواجذ،**فهي لك خير صاحب وعلى الحق خير معين :**

1 الاستغفار

فعليك به فلن يهلك مع الاستغفار إلا هالك،يقول مولاك عز وجل ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[آل عمران:135] .

يقول **ابن مسعود** رضي الله عنه : هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها،ووالله إنها لكذلك ، وإن ابن أم عبد لصادق ما كذب فيها قال وما بلغ وقيل للحسن : أما يستحي أحد من ربه،يستغفر من ذنوبه ثم يعود ثم يستغفر ثم يعود ؟ فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه،فلا تملوا من الاستغفار . فإياك أن تضع سلاحك،وترفع الراية البيضاء وتستسلم للشيطان،وإياك أن تقعد عن الاستغفار .

2 هجر الأشرار

إن صحبة اللئيم تعدي،فاحذر مخالطة الأشرار،وتذكر حامل المسك ونافخ الكير،وتخير من تجالس،فصاحبك ساحبك لا محالة،إما إلا فوزك وإما إلى حتفك ، ولك في خبر الذي قتل مائة نفس ما يدلك على تأثير أهل الشر فيمن يخالطهم،فقد دله العالم على

(1) نفس المصدر .

أرض أخرى،فيها للحق جنود،وللخير رجال،وعلى الطاعة أعوان،ليعيش بينهم بعيدا عن أرضه فإنها أرض سوء،وعن قومه فإنهم أهل فساد وفجور.

3 مجالسة الأخيار

ولا غناء لك عنهم،فهم وحدهم يذكرونك إذا نسيت و يعينوك إذا ذكرت،وينهضون بك إذا قعدت،ويحلقون بك بعيدا في أفاق الطاعة حين يضعف جناحك عن حملك،واقرأ أخي خطاب الصالحين إليك،يعتبون عليك أن هجرت أهل الخير : (**فيا من أبعدته عنهم الذنوب وأخرجته من بينهم العيوب،إن لم يكن وصل فمواصلة،وإن لم يكن جميل فمجاملة، تشبه بهم إن لم تكن منهم،فإنه لما أحيا الله عزيرا أحيا معه حماره،ولما بعث أهل الكهف بعث معهم كلبهم**) [1] وتلك أخي بركة أهل الصلاح وكرامة أهل التقوى ، فهم القوم لا يشقى لهم جليس.

4 توبة الليل تحمو ذنب النهار

وتلك أخي وصية حبيبك ﷺ فإذا أحدثت سيئة،فأحدث لها توبة،السر بالسر والعلانية بالعلانية،فأتبع الذنب بتوبة واغسل العثرة بعبرة،واتبع سبيل المضادة، وعالج المرض بضده،والسيئة بضرتها،فعالج سماع الألحان بالاستماع للقرآن،وعالج النظر إلى الحرام بالنظر في آيات ذي الفضل والإنعام،وعالج الخوض في أوحال الذنوب بالسعي في طاعة علام الغيوب، وهكذا تكون أخي،وأتبع السيئة الحسنة تمحها فإن الحسنات يذهبن السيئات .

5 وارج العفو من الغفار

وأخيرا أخي نصيحتي لك ووصيتي إليك : علق رجاءك بأستار عفوه فهو العفو و تطلع بقلبك إلى سعة رحمته، وخض بقدميك في لجة لطفه،فهو اللطيف، وتأمل معى هذا الحوار الذى يفيض رحمة ويذوب لطفا بين

---

(1) المواعظ والمجالس صـ25 ابن الجوزي . مصدر سابق .

العبد والرب حيث ذكر **ابن الجوزى** فى المواعظ والمجالس[1]أن الحسن بن شمعون قال : إذا قال العبد : إلهي عصيت . يقول الله تعالى : عبدى وأنا رأيت . فإذا قال العبد : إلهى بالفضول نطقت. يقول الله عز وجل : عبدى وأنا سمعت. فإذا قال العبد : إلهى إلى الحرام نظرت. يقول الله تعالى : عبدى وأنا شهدت . فإذا قال العبد : إلهى ندمت . يقول الله عز وجل : عبدى وأنا علمت. فإذا قال العبد : إلهى أسرفت . يقول الله عز وجل :عبدى وأنا عفوت. فإذا قال العبد :إلهى تبت .يقول الله عز وجل : عبدى وأنا قبلت .

فأقبل أخى على ربك معترفاً بذنبك ، وابك على خطيئتك،فان ربك يحب أنين المذنبن،وتضرع المخبتين،وهمس المستغفرين،فأره من نفسك خيرا،يفتح لك من أبواب الفضل مالا يعلمه إلا هو،ويرد عنك شر كل ذى شر هو آخذ بناصيته،ويدفع عنك حر عذابه يوم يبعث عباده .

وقفة مع تائب

والآن أخى هل تقبل دعوتي هذه للقاء أحد التائبين في وقفة لا بد منها ؟ إن رؤية التائبين ترقق القلوب،وتهذب النفس،ولله در عمر ما كان أصدقه وأحكمه يوم قال : جالسوا التوابين فإنهم أرق أفئدة" [2] وصاحبنا الآن أخي هو عتبة الغلام،رجل من الصالحين وعلم من أعلام الزهد،وإمام من أئمة التقى،والغلام لقبه،فقد كان يخف إلى الطاعة ويسارع في الخيرات وينشط في العبادة نشاط الغلمان في اللعب،فلقب بالغلام،وقد بدأ حياته في غفلة حتى اشتهر بين أهل الفسق،وذاع صيته في نوادي الخمر و النساء،فلما أذن له ربه أن يرى النور بعد الظلمة،وأن يلمح الفجر بعد العتمة،مر على مجلس للحسن البصري وهو يعظ الناس في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد:16] فوعظ الشيخ في تفسيرها وعظا رقيقا بليغا،وجلت له القلوب،وفاضت بسببه العيون،فقام عتبة من بينهم فقال : يا تقي المؤمنين : أيقبل الله تعالى فاجرا مثلي إذا

---

(1) صـ 97.

(2) الإحياء جـ4 صأ23. مصدر سابق .

تاب ؟ فقال الشيخ : نعم يقبل الله توبتك،ويقيل عثرتك ويرفع عنك إصرك،ويضع عنك وزرك،فلما سمع عتبة هذا الكلام،اصفر لونه،وارتعدت فرائصه،وصاح صيحة،وخر مغشيا عليه،فلما أفاق دنا منه الحسن وقال له هذه الأبيات :

أيا شابا لرب الأرض عاصـــي أتدري ما جزاء ذوي المعاصـــي ؟
سعير للعصاة لها زفيـــــــــــر وغيظ يوم يؤخذ بالنواصـــــــــي
فإن تصبر على النيران فاعصــه وإلا كن من العصيان قاصـــــي
وفيم ؟ وقد كسبت من الخطايا وهنت النفس فاجهد في الخلاص

فصاح صيحة غلبته،فخر مغشيا عليه،فلما أفاق قال للشيخ : هل يقبل الرب الرحيم توبة العبد اللئيم ؟ فقال الشيخ : وهل يقبل توبة العبد الجافي إلا الرب المعافي ؟ . فرفع عتبة يده ودعا بثلاث دعوات فقال : إلهي إن كنت قبلت توبتي وغفرت ذنوبي فأكرمني بالحفظ والفهم حتى أحفظ كل ما سمعت من القرآن والعلم ، إلهي أكرمني بحسن الصوت حتى إن كل من سمع قراءتي يزداد رقة في قلبه إن كان قاسي القلب،إلهي أكرمني بالرزق الحلال وارزقني من حيث لا أحتسب . فلما علم الله تعالى صدق عزمه وصحة توبته،استجاب جميع دعائه،فزاد فهمه وحفظه،وكان إذا قرأ القرآن تاب كل من سمع قراءته،وكان يعود إلى بيته فيجد قصعة من المرق ورغيفين لا يدري من أين أتت ، وظل على هذه الحال حتى فارق الدنيا [(1)].

قبل الوداع

ونترك عتبة في رياض التوبة يتقلب،لنسأل قبل أن نغادر : لماذا نتوب ؟،ونقلب الطرف فإذا الجواب ظاهر حولنا على ورق الأشجار وجذوع النخل فرحنا نقرأ :

– نتوب لأن الله تعالى أمر الجميع بالتوبة،الرجال والنساء ، الشباب والشيوخ،الصالح والطالح،الحر والعبد،ولم يستثن أحدا فقال : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور:31] .

---

(1) أنظر : مكاشفة القلوب صـ31 . الإمام الغزالي . مكتبة الإيمان – ببعض التصرف .

- نتوب لأن حق مولانا عظيم،ونعمه جليلة،ونحن ضعاف عن ذكرها،عاجزون عن شكرها،وبالتوبة يجبر الله تعالى الكسور ويعفو عن التقصير .
- نتوب لنغيظ العدو ويخسأ اللئيم،ويخنس الشيطان،فإن العبد يذنب الذنب فيندم عليه حتى يدخل به الجنة،فيزداد حقد اللعين وغيظه،فيقول : ليتني لم أوقعه في الذنب .
- نتوب لأن التوبة رسول الخير،تزيل الهم وتطرد الغم،وتدفع النقم،وتسهل الصعب،وتوسع الرزق وتملأ النفس سكينة والقلب حياة،وتفيض على الروح رضا وطمأنينة .
- نتوب لأن الناس قسمان : تائب وظالم ولا ثالث لهما قال تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجُرات:11] .

فتب الآن أخي الحبيب،وحلق في رياض التائبين،فلا يليق بمثلك أن يكون أبدا مع الظالمين .

- نتوب لأن الميزان سينصب والأعمال ستعرض،والعدل سيقام،﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:47] ولن يستقيم لك ميزان إلا بتوبة،تجب السيئات،وتمحو الزلات،وترفع الدرجات،ويستقيم بها الميزان .
- نتوب لأن التائب حبيب الرحمن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:222] إنه سبحانه يحب التوابين فتب تكن منهم،ويحب المتطهرين فتطهر من الذنب تكن منهم،لتضع الملائكة على صدرك وسام الحب،حين يشيرون إليك بالبنان،ويهتفون باللسان : هذا حبيب الرحمن .
- وأخيرا أخي نتوب ليفرح الرب،وتسعد الملائكة،ويغتاظ العدو،ويخسأ الشيطان،ويخنس حزبه وأعوانه،فالمولى الكريم يفرح بتوبة عبده،فتب يفرح ربك،ويسعد بك نبيك،وتبيض صحيفتك،وتعلو درجتك،وتهنأ بالعيش في روضات الجنات،بصحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

زهرة الوداع

وأخيرا وقبل الوداع،يحلو لي أخي أن أتركك تعيش مع **الفضيل بن عياض** في هذا الخبر الذي يفيض رقة ويقطر عذوبة، ويوضح فضل المولى على عباده،وكرم الخالق سبحانه على خلقه وأخص بالذكر العصاة والمذنبين يقول الفضيل رحمه الله : ما من ليلة اختلط ظلامها،وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل جل جلاله : من أعظم مني جودا ؟ والخلائق لي عاصون وأنا لهم مراقب،أكلؤهم في مضاجعهم،وكأنهم لم يعصون،وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم،أجود بالفضل على العاصي،وأتفضل على المسئ،من ذا الذي دعاني فلم ألبه ؟ أمن ذا الذي سألني فلم أعطه ؟ أمن ذا الذي أناخ ببابي فنحيته ؟ أنا الفضل ومني الفضل،أنا الجود ومني الجود،أنا الكريم ومني الكرم،ومن كرمي أني أغفر للعاصين بعد المعاصي،ومن كرمي أني أعطي العبد ما سألني،وأعطيه ما لم يسألني،ومن كرمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصني فأين عني يهرب الخلائق ؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون ؟ .

الله أكبر أسمعت أخي هذا الكلام ؟ ألم يخشع له قلبك ؟ ألم تستكن له نفسك ؟ والله إن الحجر ليذوب حياءا من الخلاق العليم والمنعم الكريم حين يسمع هذا الكلام . فيا غافلا في بطالته،لا يفيق من سكرته،أين ندمك على ذنوبك ؟ و أين بكاؤك على عيوبك ؟ إلى متى تؤذي بالذنب نفسك،وتضيع يومك كما أضعت أمسك ؟ لا مع الصادقين لك قدم،ولا مع التائبين لك ندم ؟ هلا بسطت في الدجى يدا سائلة،وأجريت في السحر دموعا سائلة ؟.

أخي نحن الآن على باب الروضة نوشك أن نغادر،فجاءنا صوت ملائكي من خلفنا يهتف :

كريم إذا يممت بالصـــدق بابـــه فإنك لا تلقى على الباب حاجبا
وإن كنت ذا ذنب فتب منه واعتذر كأنــك لم تذنب إذا جئـت تائبا

فلما سمعناه طربنا وانتشينا وتواعدنا على مواصلة الرحلة فكانت الروضة التي تليها.

الروضة الثانية

الإخلاص
فليتك تحلو والحياة مريرة

يقول ربك عز وجل :

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:162،163]

الروضة الثانية

ويقول حبيبك ﷺ :

إن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة .

الطبراني والحاكم وقال: صحيح الإسناد

وقيل ليحي بن معاذ :متي يكون العبد مخلصا ؟ فقال :

إذا صار خلقه كخلق الرضيع لا يبالى من مدحه أو ذمه .

تنبيه المغترين صـ87

تمهيد

قال لي صاحبي يحاورني : ماذا بعد ؟ فأجبته : إلي قمه تحتاج إلي همة ، ومنزلة تطلب بالقلوب لا بالأقدام ، إلي روضة الإخلاص ، فتوقف صاحبي مندهشا كأنما رآنا نطلب أحد مستحيلات العرب : الغول والعنقاء والخل الوفي ، أو كأنما نبحث عن كنز مخفي لا يدرك ولا ينال ، فقلت موجها حديثي إليه : أراك ترددت ثم توقفت فما بك ؟ قال متعجبا ومستوضحا : روضة الإخلاص ؟ وكيف السبيل إليها ؟وكيف الوصول إلي حماها ؟ لقد تقطعت دونها أعناق الإبل ، وضل في الطريق إليها من ضل ، وسقط قبل بلوغها من سقط ، وهلك في طلبها خلق كثير ، أفندركها نحن – أنا وأنت– ؟ وقد علم ربي ما نحن عليه من فقر وفاقة ، وضعف وتقصير ، وذنوب لو كانت لها رائحة ، لفر الناس منا فرارهم من المجذوم وإلي الله المشتكي ، قلت وقد أثرت في كلماته ، وهزني تأثره : استعن بالله ولا تعجز ، وامض في سبيلك ، فالطريق هين ، والمطلوب سهل ما دام المعين هو الله تعالي والمرشد الأمين هو رسول الله ﷺ ، فسكن صاحبي ، وانفرجت أساريره ، وبدت علي ملامحه علامات الرضى .... ثم مضي .

نفحة من عبير

ولم نكد نفارق موقفنا ونتقدم خطوة ، حتي هبت علينا ريح ما علمنا أن بشرا صادف مثلها ، لامست جلودنا فارتعشت ، وعانقت قلوبنا فانتعشت ، واحتضنت أرواحنا فسكرت بخمر حلال كأنها من بلاد الأفراح جاءت ، ومن رياض الخلد أقبلت ، فأخذت صاحبي نشوة عجيبة ، ورمقته يرنو ببصره ويحلق بخياله كأنما يستطلع مصدرها ، فقلت له : أنا أدلك علي الطريق وأقطع عليك الحيرة قبل أن تسأل ، هذا أيها الحبيب عبير الإخلاص ، ومسك التجرد ، وريح التوحيد ، وإن عبيره ليدرك من مسيرة كذا وكذا ، وهذه النفحة التي وجدت بردها في قلبك ، ونشوتها في صدرك إنما هي إشارة فقط علي قرب الوصول فاستعد وتهيأ ، فإن الروضة التي نطلب ، لا يفصلنا عنها سوى خطوات ، وما هي إلا

لحظات ، وستجد نفسك بالباب ، قال صاحبي : فهل لك ان تشرح لي طرفا من معني الإخلاص قبل الوصول ، لأكون من أمرى علي بينة ، ومن طريقى علي بصيرة ؟ قلت : أبشر أيها الحبيب ، لقد سألت عن عظيم لا أرى نفسي أهلا له ، ولكن أرباب القلوب من الصالحين والربانيين كفوني وإياك – بفضل الله – هذه المؤنة ، فتعال نلتقط من مدارج السالكين ثلاثة أعواد من الريحان في تعريف الإخلاص ، لعلك تعرف ما تطلب، **وتدرك طرفا مما تقصد :**

العود الأول : وعليه أيها الحبيب مكتوب بحروف من نور أن الإخلاص هو : إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة [1] اقرأها أخي بالله عليك وأعد قراءتها مرة بعد مرة ، فإنها والله جملة عبقرية ما خرجت إلا من قلب تقي وما جرت إلا علي لسان زكي ، وسبحان من يجري الحكمة علي لسان أهله وخاصته ، إفراد الحق بالقصد ، وبعد أن قرأته دعني أسألك : هل أدركت مغزاه ؟ وهل استوعبت بكل كيانك معناه ؟ وهل وصل عبيره إلي عقلك فوجدت أثره في قلبك ؟ إفراد الحق بالقصد ، الله أكبر ، أما أنا فلا أجد لهذا التعريف تفسيرا ولا توضيحا أكمل ولا أشمل من قول مولانا عز وجل : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:162،163] وسأترك سيدا رحمه الله تعالي يزيدك وضوحا ، ويفتح أمام عقلك وقلبك آفاقا أخري ، لن تجدها عند غيره ، يقول رحمه الله : (**إنه التجرد الكامل لله ، بكل خالجة في القلب ، وبكل حركة في الحياة ، بالصلاة والاعتكاف ، وبالمحيا والمات ، بالشعائر التعبدية وبالحياة الواقعية ، وبالمات وما وراءه ، إنها تسبيحة التوحيد المطلق والعبودية الكاملة ، تجمع الصلاة والاعتكاف ، والمحيا والمات ، وتخلصها لله وحده ، لله رب العالمين " القوام المهيمن المتصرف المربى الموجه الحاكم للعالمين ، في إسلام كامل لا يستبقى في النفس ولا في الحياة بقية ، لا يعبدها لله ، ولا يحتجز دونه شيئا في الضمير ولا في الواقع "وبذلك أمرت " فسمعت وأطعت " وأنا أول المسلمين "**) [2] .

---

(1) مدارج السالكين . حـ2 صـ95 . ابن القيم .

(2) في ظلال القرآن جـ3 صـ124 .

العود الثاني : وعليه مكتوب بلون المسك أن الإخلاص هو : نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلي الخالق ، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله [1] . ياالله ، إنه التجرد التام مع كل خلجة نفس ، وحركة عضو لله رب العالمين ، إنه وبمعني واحد وواضح ومحدد : أن لا تري الناس شيئا وأنت تعمل لربك ، فمن أسقط الناس من حسابه وهو يعمل لمولاه ، توحدت همته ، وخلص رجاؤه ، وصفت مشاربه ، ويوشك أن يدرك ما يطلب ، إن الناس أيها الحبيب لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، فكيف يملكون ذلك لغيرهم ؟ وماذا يملك لك عريق في الفقر حتي تعمل له وتجتهد من أجله. ثم .... تطلب منه الجزاء ؟ اسمع أخي قول مولاك . واحذر أن تتخطاه حتي تملأ نفسك منه ، فإنه والله القول الفصل ، والنصيحة الصدق ، يقول ربي وربك ورب الناس : ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزُّمَر:2]. إن القلب الذي عرف معني التجرد ، وذاق طعم الإيمان ، وتذوق حلاوة اليقين ، تجد صاحبه (**يدين الله وحده ، ولا يحني هامته لأحد سواه ، ولا يطلب شيئا من غيره ، ولا يعتمد علي أحد من خلقه ، فالله وحده هو القوي عنده ، وهو الظاهر فوق عباده ، والعباد كلهم ضعاف مهازيل ، لا يملكون له نفعا ولا ضرا ، فلا حاجة به إلي أن يحني هامته لواحد منهم ، وهم مثله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، والله وحده هو المانح المانع ، فلا حاجة به إلي أن يتوجه لأحد غيره ، وهو الغني والخلق كلهم فقراء**)[2] .

ألا تري أيها الحبيب أنك – وأنت صاحب دعوة وحامل رسالة – أفقر الخلق إلي هذه المعاني ؟ وأنه من اللائق بك والأجدر بمثلك أن تكون علي إيمان تام ويقين جازم ، بأن ربك هو المالك ، وهو المدبر ، وهو المتصرف ، إذا قال فلا راد لقوله ، وإذا قضي فلا معقب لحكمه ، فإذا كان مولاك كذلك : فلماذا تحني هامتك لذي سلطان متجبر؟ ولماذا تتضعضع أمام ذي غني مستكبر ؟ ولماذا تسكت عن حق لك ولدعوتك عن شعور بالذلة والقلة ؟ إن هذا لا يليق بك ومولاك أخي هو القاهر فوق عباده وبيده مقاليد كل شيء ، فإذا أردت أيها الحبيب أن تبلغ ما تريد ، وأن تطأ بقدمك روضة الإخلاص

---

(1) مدارج السالكين . جـ2 صـ95.

(2) الظلال . جـ5 صـ3036.

لتنعم بها ، وتعيش في معية أهلها ، فإن المطلوب منك بكل بساطة ووضوح أن تنسي الخلق وأنت تتعامل مع الخالق ، وأن تسقط الناس من حسابك وأنت تتعامل مع رب الناس ، أما أن تراقب الخلق في كل عمل ، وأن تتزين للناس عند كل نظر ، فهذا لا يليق برجل يردد في صلاته صباح مساء : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] .

العود الثالث:وعليه بهاء الذهب معان جامعة مانعة تقول إن الإخلاص هو (**استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن ، والرياء : أن يكون ظاهره خيرا من باطنه ، والصدق في الإخلاص : أن يكون باطنه أعمر من ظاهره**) (1) .

ونحن هنا أخي الحبيب أمام عود من الريحان يحمل أوراقا ثلاثة :

الأولي تتحدث عن الإخلاص ، **والثانية** تصف حقيقة الرياء ، **والثالثة** تشرح لنا معني الصدق في الإخلاص فلنقف وقفة **مع كل ورقة :**

الورقة الأولي : وعليها أخي أن الإخلاص هو : استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن ، هذا هو الإخلاص أخي ؛ أن يكون السر منا كالعلانية ، فهل أنت كذلك ؟ وهل أنا أيضا كذلك ؟ سؤال قد يسبب لي ولك كثيرا من الحرج ، وأرجو أن نجد له جوابا ، إن همنا – للأسف – محصور في أن نلبس أغلي ما نجد ، وأن نركب أفخر ما نجد ، وأن نبني أفخم ما نستطيع ، مراعين في ذلك فقط شهوة النفس ونظر الخلق وحديث الناس ، وفي ذات الوقت ننسى – وهي الطامة – نظر الرب ، وصفاء القلب والمنزلة والوجاهة عند رب السموات والأرض ، وهذا هو الهلاك ، ونسأل الله اللطف ، إن ربي لطيف لما يشاء ، وهنا في هذا الموطن تسعفني الذاكرة بشيء تحفظه في هذا المعني فتقول : ليت أحدنا يعتني بقلبه كما يعتني بنعله ، يالله ، ألهذا الحد تعاظم عندنا شأن المادة ، وهان علينا أمر القلب ؟ إن الرجل منا إذا أبصر خرقا في حذائه ، بادر إلي علاجه وسارع في إصلاحه ، وفي ذات الوقت نري الثقوب في قلوبنا والأذي في أرواحنا ، والهوي في صدورنا . فلا نحفل بذلك ولا نعبأ ، وإن أحدنا ليستحي أن يلبس جوربا مشقوقا مثقوبا حتي يبادر فيستبدله بجديد أو يخيط شقوقه ويسد ثقوبه ، ولكننا – ومع الأسف والإشفاق – نري الثقوب في قلوبنا والشقوق في أرواحنا ، فلا يهتز لنا جفن

(1) نفس المصدر . جـ2 صـ95.

ولا يقشعر لنا جلد ، ولا نلقي لذلك بالا ، وما ذلك إلا لهوان الباطن وغلبة الظاهر ، وهذا لا يليق بطلاب الآخرة وعشاق الجنان والباحثين عن الحور ، إن طلاب الآخرة تأتي قلوبهم علي قمة اهتمامهم ، لأنهم يؤمنون أن مولاهم لا ينظر إلي صورة سوف تفني ، ولا إلي جسد سيبلي ، وإنما نظره فقط نحو عمل صالح سوف يبقي .

الورقة الثانية : وفيها أيها الحبيب أن الرياء هو : أن يكون ظاهره خيرا من باطنه ، يجمل الظاهر ، ويهمل الباطن . يعمر البدن ويدمر القلب ، نظر الناس مقدم عنده على نظر رب الناس ، يالله : أن يكون ظاهره خيرا من باطنه ، وهل يليق هذا بمسلم يتاجر مع ربه فيبيع النفس والمال ويشتري الجنة ؟ يا مولاى ومولي الناس عذرا ، فكم فينا من قاعد مقصر ، وكم بيننا من فقير مذنب ، ينظر إلي الناس ولا ينظر إليك ، ويراقب الخلق ويغفل عن رب الخلق ، كهذا الذي يصلي وهمه واحد ، وهو الناس ، يستميل بصلاته قلوبهم ويخطب بصدقته ودهم ويطلب بعمله رضاهم ، وهذا كله نوع من النفاق رخيص قدمه لنا القرآن الكريم في صورة كريهة منفرة أتركك لتقرأها بنفسك ، لتقف علي ما فيها من بغض وتطلع علي ما تحوى من شناعات ، يقول مولانا جل وعلا : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:142] ويقول سيد رحمه الله : (**لا يقومون إلي الصلاة بحرارة الشوق إلي لقاء الله ، والوقوف بين يديه والاتصال به ، والاستمداد منه ، وإنما هم يقومون يراؤون الناس ، ومن ثم يقومون كسالي كالذي يؤدي عملا ثقيلا ، أو يسخر سخرة شاقة ، وكذلك هم لا يذكرون الله إلا قليلا ، إنهم لا يتذكرون الله ، إنما يتذكرون الناس ، وهم لا يتوجهون إلي الله وإنما هم يراؤون الناس**) (1).

إن ظواهرهم – كما تري – لا بأس بها ، ولكن بواطنهم نفاق يطفح ، وحقد ينضح علي الحق وأهله ، وكفر بواح يصد عن الله وعن سبيل الله .

الورقة الثالثة : وفيها أيها الحبيب أن الصدق في الإخلاص هو : أن يكون باطنه أعمر من ظاهره ، وتلك هي القمة التي تتوق إليها قلوب الصالحين ، وتتطاول إليها

---

(1) الظلال . جـ2 صـ784 .

أعناق المؤمنين ، وتهفوا إليها أرواح المخبتين ، نعم أخي هذا هو الصدق في الإخلاص ، أن يكون الظاهر حلوا ، والمشهد جميلا ، يحليه الالتزام بفرائض الله ، ويجمله الوقوف عند حدود الله ، ويكمله الحفاظ التام علي حرمات الله ، هذا هو ظاهر المخلصين ، أما باطنهم فهو أعلي وأجمل وأرفع وأكمل ، فترى أحدهم في خلوته أشد اجتهادا من جلوته ، وفي ليلة أعظم نشاطا من نهاره ، وفي انفراده أعظم همة واجتهادا منه أمام جماعته ، وما ذلك إلا لسبب واحد وواضح هو أنه يعلم أنه يتعامل مع من يرى سره ويعلم جهره ويطلع علي أحواله في خلوته وجلوته ، وينظر إلي القلب منه لا إلي الجسد ، إنه أيها الحبيب يجاهد نفسه ويزكيها ويقوم علي تأديبها لتكون أهلا للتقوي ومنزلا للإحسان ، ولا يغره ما يرى من عبادته ، ولا ما يسمع من ثناء الناس عليه ، جاء في الإحياء أن رجلا قال لمالك بن دينار – وما أدراك أخي من هو مالك بن دينار؟ – : يا مرائى ، فقال له مالك : متي عرفت اسمي ؟ ما عرف اسمي غيرك [(1)].

إن الإخلاص أخي سر بين العبد وربه – كما قيل – فلا يطلع عليه ملك ليكتبه ، ولا شيطان ليفسده ، ولا هوى فيميل به ، ومن ثم فهو نادر عزيز ، شديد علي النفس ، وقد قيل لسهل رحمه الله : أي شيء أشد عل النفس ؟ فقال : الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب [(2)].

علي باب الروضة

وبعد طول دأب وكثير سعى وعظيم جهد ، وجدت نفسي وصاحبي أمام باب عظيم ، بعيد ما بين مصرعيه ، به حلقتان عظيمتان ، مكتوب عليه بأجمل خط وأوضح حرف هذه الآية :- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:125] فأدركنا أننا أخيرا بعد طول مشقة وعظيم جهد أمام روضة الإخلاص ، فقال صاحبى : لو شرحت لى ولو في خاطرة قصيرة هذه الآية ؟ فقلت : لست لذلك بأهل ، فإن ما تطلب يحتاج إلي قلب تقى

---

(1) الإحياء .جـ3 .صـ287.

(2) مدارج السالكين . حـ2 صـ95.

ولسان نقى وروح وثابة لا ترتاح إلا في الجنة – ولست بصاحب ذلك ، ولكن سأجمل لك القول فيها : الإسلام معروف والإحسان كذلك ، ولعل الإسلام هنا – والله أعلم بمراده – يعنى إخلاص القصد والعمل لله ، والإحسان يعنى المتابعة لرسول الله ﷺ ، فتصبح الآية : وقد جمعت بين أمرين عليهما مدار الدين كله : إخلاص لله ومتابعة لرسول الله ﷺ.

وطرقنا باب الروضة برفق وحتي يؤذن لنا قلت لصاحبي : دعني أزيدك بالإخلاص معرفة ، وأحيطك ببعض من أسراره ، فهز رأسه موافقا وتحدث قائلا : ما أنا إلا أذن صاغية وواعية ، ولم أجد في موقفنا هذا أدق ولا أرق من قول ابن عطاء الله في حكمه : الأعمال صور قائمة وأروحها وجود سر الإخلاص فيها[1] ، ورحم الله ابن عطاء فقد أصاب الحقيقة وأخلص لي ولك النصح ، وذلك أخي الحبيب أن أعمالنا ليست سوى أشباح وأجساد لا روح بها ولا حياة فيها ، والإخلاص وحده هو الذي يمدها بالحياة وينفخ فيها الروح ، ويبعث فيها الحركة فكما أنه لا قيام للإجساد إلا بالأرواح ، وإلا كانت ميتة ساقطة كذلك لاقيام لأعمال الظاهر والباطن إلا بوجود الإخلاص فيها ، وإلا كانت صور قائمة وأشباحا خاوية لا قيمة لها ولا عبرة فيها.

قيمة الإخلاص

عبرنا باب الروضة وأصبحنا بالداخل وما أسرع ما استقبلنا غلامان صغيران ، مع كل واحد منهما زهرة فمد صاحبي يده فأخذ الأولي فإذا هى تشير إلى قيمة الإخلاص ومنزلته ، وإذا هو يعلى قيمة المرء، ويرفع ذكره بين الناس و إن قل ماله ورق حاله وضعف سلطانه ولم لا ؟ وكيف لا ؟ والمخلص يتاجر مع ربه افتقر الى مولاه فأغناه، وأعلن إفلاسه فأعطاه،وتمرغ فى تراب الذل على بابه فآّواه،وأسقط الخلق من نظره فتفضل عليه خالقه بالمنزلة والجاه،وتأمل اخى كلام ابن الجوزى رحمه الله لتدرك ما يفعله الإخلاص،حيث يقول : إخلاص المخلصين رفع قدر الوسخ – رب أشعث أغبر – ونفاق المنافقين صير المسجد مزبلة – لا تقم فيه أبدا – ولله دره ما أجمل قوله

(1) انظر : إيقاظ الهمم في شرح الحكم صـ 31 . ابن عجيبة . بتصرف .

و ما أعظم عقله ووعيه !،فهل أدركت أخى الحبيب ما يريد أن يقول ؟ إنها رسالة لى ولك تحمل عبق الإيمان ورحيق التقوى ليعلمنا ويزكينا،فالإخلاص جعل للأشعث الأغبر المدفوع بالأبواب قيمة ومنزلة عند رب الأرباب،حيث إنه لو اقسم على مولاه لأبره،أما النفاق – سلمنا الله وإياك – فقد حول أطهر مكان وأشرف بقعه الى مزبلة،ومسجد الضرار خير شاهد،فقد حذر الله المؤمنين أن يقوموا فيه ونفرهم من الاقتراب منه،فقال بكل وضوح : **" لا تقم فيه أبداً"** فتأمل هذا ففيه عمق وفقه ومددت يدى وأخذت الزهرة الثانية فـإذا هى لى ولك يا ابن الدعوة ويا حامل الرسالة،فهى تقدم لنا ولكل ناشط فى البلاغ مهموم بقضية النصر وآمال التمكين،المفتاح السرى الذى إذا وضع على مغاليق القلوب فتحها ، وتعطينا الدواء السرى الذى ينزل على مرض الأرواح فيعيد إليها الدفء و الشفاء و العافية ، أن مفتاحك السرى ودواءك السحرى الذى تفعل به فى القلوب ما تشاء،وتحلق به و بدعوتك إلى عنان السماء،هو الإخلاص،فأنت بالإخلاص كل شىء .وبدونه لا شىء ، وتعال معى نتأمل و نتعلم من سير الصالحين وأخبار المخلصين . فقد قيل لحمدون بن أحمد : مابال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ فقال – وقوله حق –: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ورضا الرحمن ونجاة النفوس،ونحن نتكلم لعز النفوس وطلب الدنيا ورضي الخلق،ولله دره من حكيم وأنت أخى كذلك،ولهذا أدعوك بل ألح عليك حتى تعود فتقرأ هذا الكلام مرة أخرى،وأن تقف عند السؤال الذى طرح ، لأننى على ثقة تامة أن السؤال العظيم يستدعى جوابا أعظم ، ولهذا فتقديرى للمجهول الذى سأل،لا يقل عن تقديرى للإمام الذى أجاب: ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ إنه سؤال يقرر حقيقة ويؤكد واقعا،فانت تتفق معى أن كلام الحسن البصرى وسفيان الثورى وابن المبارك و الإمام أحمد والفضيل بن عياض وشيخ الاسلام ابن تيمية وغيرهم عشرات بل مئات،أنت تتفق معى أن كلامهم دواء وحديثهم شفاء والعيش مع آثارهم نور وضياء وأنت كذلك تتفق معى فى أن أعمالهم شواهد صدق على عظمتهم وأن إخلاصهم كان سلاحهم الأقوى فى الانتصار على الشهوة والشيطان والمتربصين من داخل النفس وخارجها ، والله إنا

لنقرأ أو نسمع كلام أحدهم فينشط البدن كمن رفعت عنه الأغلال وأزيحت عنه القيود،وتنهض الروح منتعشة كعصفور أنهكه التعب فتساقط عليه حبات المطر،فانتفض ملحقا فى سماواته وفوق بساتينه،إى والله أيها الحبيب،إنا لنسمع كلام القوم أو نقرأه فتدب فينا الحياة بعد أن تقتلنا الأفات،ويعود إلينا الأمل بعد ان يحاصرنا اليأس،هذا فقط لسماع كلامهم فكيف لو راينا أعمالهم ؟ ثم يأتى الجواب يتهادى على ألسنه الربانين ليشرح : لماذا كان كلام القوم أنفع ،وعلاجهم للأرواح أعظم وأنجح .

نعم يأتي الجواب يحمل الأسباب :

أولا : لأنهم تكلموا لعز الإسلام،فإذا تكلم أحدهم فلله ولدينه ولرسوله.فا لله غايته والرسول قدوته،وعز الإسلام مقصده،وبلوغ الدعوة مداها هو مطلبه الذي يعيش به وله.

ثانيا : ولأنهم تكلموا لرضا الرحمن ، فإذا تفوه أحدهم بكلمة ، ، فإن همه واحد : ان يرضي عنه الخالق ولو سخط المخلوق – مهما كان موقعه – ليس داخلا في حسابه إن شعاره الذي يحيى به ويردده **مع كل نفس** :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب .

ثالثا : ولأنهم تكلموا لنجاة النفوس فإذا تكلم أحدهم فإن الصدق عنوانه والإخلاص لله دافعه ، والتجرد باعثه ، لأنه يطلب النجاة ويرجو السلامة ، ولهذا فهو صادق مع نفسه صادق مع ربه صادق مع من حوله ولا نجاة للنفس بغير ذلك .

لهذا أخي الحبيب تكلم السلف فكان كلامهم دواء وحديثهم شفاء ينزل على الأرواح فيزكيها ، وعلى القلوب فيحيها ، ويسقط على النفوس فيداويها ، أما نحن أخي فإننا نتكلم ، ولكن فارق بين كلام وكلام ، بين كلام هو دواء وكلام هو عين الداء ، كلام يحمل السامع في لحظات فيدور به حول العرش وكلام لا يبرح يدور به حول الشوك والقش إن علة كلامنا اليوم – كما يوضحها هذا العبد الصالح – **تتمثل في آفات ثلاث** :

الآفة الأولى : أننا نتكلم لعز النفوس ، وفارق بعيد أخي بين من يتكلم لعز الإسلام ومن يتكلم ليعز نفسه ، والقاعدة هنا أن العزة لله جميعاً ، يمنحها من يشاء

ويمنعها من يشاء هذه واحدة ، والثانية أخي أن الإسلام هو عزنا ومجدنا وفخرنا ، فمن طلب العزة ففي الإسلام ما يطلب ، ومن يرجو مجداً أو فخراً ففي الإسلام وحده ما يرجو ، ورضى الله عن عمر إذ يقول : نحن كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فتكلم إذ تكلمت لنصرة دينك والتمكين لدعوتك ، وانس نفسك قليلا تجد غب ذلك عن قريب عزاً تطلبه ومجداً ترجوه ونصر من الله أنت أحوج الخلق إليه وأجدر الناس به.

الآفة الثانية : أما الآفة الثانية في كلامنا أخي فهي أننا نتكلم لرضا الخلق ، ورضا الخلق غاية لا تدرك ، ووهم لا يتحقق ، بعكس الذين سبقونا بإحسان ، فإنهم طلبوا بكلامهم رضا الرحمن ، فباؤوا بالحسنيين : رضا الخالق وحب المخلوق ألست تقرأ أخى قول الله عز وجل : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:96] ، إنها لك كافية ولقلبك شافية ، يقول ابن عباس : ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ : حبا ، ويقول قتادة : أى في قلوب أهل الايمان. وكان هرم بن حيان – من التابعين – يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنيين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم [1] إن هذا الحب الناشئْ عن الإخلاص هو سلاحك أخى الداعية ، به تحارب شيطانك وبه تصل إلى قلوب الناس فتحولها وتغير مجراها وتضبط مسارها.

الآفة الثالثة : أما الآفة الثالثة في كلامنا أخى فهى : أننا نتكلم لطلب الدنيا ، وطلب الدنيا يصيب القلوب بالعمى والأذان بالصمم والأرواح بالصدأ ، واسال إن شئت طالب المال والمنصب والمرأة والكأس وغيرها من مفردات الدنيا وشهوات النفس ، سله بماذا يشعر؟ وبأي شيء يمكن أن يضحي في سبيل دنياه ؟ إنه والله يضحي بعمره ويخاطر بنفسه ، يكرر الأسفار ويركب الأخطار يجمع مالا ينتفع به غيره ، جاء في بعض الأخبار : الرزق مقسوم والحريص محروم ، ابن آدم : إذا أفنيت عمرك في طلب الدنيا فمتي تطلب الأخرة ؟ وكان عبد الواحد بن زيد رحمه الله يقول : الحرص حرصان : حرص نافع وحرص فاجع ، فأما النافع : فحرص المرء علي طاعة الله ، وأما

---

(1) تفسير ابن كثير عند تفسير الآية .

الفاجع فحرص المرء علي الدنيا . فكيف أخي الحبيب نرجو السلامة ونطلب الصدق وننتصب أئمة للخلق ودعاة إلي الخير وقد تمكنت منا الدنيا إلي هذا المدي ؟

لأجل كل هذا أخي تكلم القوم فانتفعوا ونفعوا ، وتكلمنا فعاد كلامنا حجة علينا لا لنا ، ونسأل مولانا أن يبيض برحمته سود الصحائف وأن يتجاوز بعفوه عن تقصيرنا، وأن يجبر في الدارين كسرنا .

فرغ قلبك

هممت أن انطلق يشدني عبير الإخلاص ويتملكني سحره ، فأخذ صاحبي بيدي وقال : قف واقرأ ، ورأيته يشير بيده نحو لوحة من نور ما رأيت مثلها في بهائها ووضوحها ، وإذا عليها بخط أنيق مقروء : فرغ قبلك أولا ثم تقدم ، فأدركت أن هذا هو أول الطريق ، وأنها البداية التي لو صحت ، لصحت معها النهاية ، ولكنها لو فسدت ، فسدت معها الخاتمة ، وأنه لا ينبغي لعبد أن يدخل هذه الروضة المباركة ، وأن يشارك أهلها محياهم ومماتهم ، إلا وقد غسل قلبه وطهر فؤاده . ونظر في داخله ، فأخرج كل ما سوى الله تعالي ، وبغير هذه الخطوة ، فإن الطريق مسدود ، والداخل إلي رحاب هذه الروضة موقوف ومردود ، وهنا أخي الحبيب تداعت إلي ذهني أقوال القوم وأحوالهم ، فأبصرت ما أبصروا ، وأدركت ما أدركوا ، وفقهت كذلك ما فقهوا ، نعم أخى ، أدركت أن الله تعالي يغار ، وأن غيرته علي قلب عبده بلا حدود ، أدركت أنه لا يقبل بحال أن يطلع علي قلب عبده فيجد فيه حبا يفوق أو يساوى حبه ، فإن وجد ذلك ترك عبده وما أحب ، أدركت أخى أن مولاى لا يريد له شريكا في قلبك أيا كان هذا الشريك ، أبا أو ابنا ، ولدا أو بنتا ، أخا أو زوجة ، مالا أو تجارة ، ولك أن تتامل معي هذا الخبر : يقول عمر بن أبي حسان : كنت مارا في البادية ، فإذا أنا براهب قد أحرقته السموم والرياح ، فقلت له : عظنى ، فقال : احذر فإنه غيور ، لا يحب أن يرى في قلب عبده أحدا سواه [1] يالله سبحانك ، تريد عبدا خالصا لك ، حتى تأذن له في الدخول

---

(1) ذم الهوى . صـ72 . ابن الجوزى .

عليك ، وعبيدك تنوشهم الشياطين وتحوطهم الشهوات ، وتفسد عليهم الدنيا قلوبهم ، ولا حول لهم ولا قوة إلا بك ، فاصبر أخى وصابر ، بل رابط لعل مولاك يتفضل بالمعونة فيسهل عليك الصعب ، ويهون عليك المشقات ، ويذلل لك الطريق .

عقبة كؤود

إن أعظم عقبة في سبيلك أخي نحو إخلاص القلب لربك وإسلام الوجه لمولاك هي : الدنيا أولا ، ثم فتنة الدنيا ثانيا ، ثم زخرف الدنيا ثالثا ورابعا وخامسا ، إنها الآفة التي إذا سكنت القلب باضت وفرخت ، وطرد بومها عصافير الإخلاص ، وعلا نقيق غربانها علي تغريد بلابل الإيمان والإحسان ، نعم أخى الحبيب ، إن ضرة الآخرة إذا سكنت القلب حجب ظلامها أنوار التجرد ، وأحرقت سمومها أشجار اليقين وزهور الإخلاص ، وآية واحدة أخى من عشرات بل مئات الآيات – إذا أردت – نشرح لك حقيقة الدنيا ، وتفضح أمامك زورها وبهتانها ، وتكشف علي الملأ دجلها وزيفها ، فاقرأ معي قول ربك : ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد:20] . فانظر أخى جمال الآية وعمق مدلولها وروعة تصويرها ، وتأمل معي هذه المفردات التي استخدمها القرآن الكريم ليرسم لنا صورة الدنيا ، ويقرب إلينا حقيقتها : لعب ، لهو ، زينة ، تفاخر ، تكاثر ، ثم في النهاية حطام يؤكد أنها : متاع الغرور، وهذا المتاع ليس حقيقة في ذاته ، إنما يستمد وجوده من الغرور والخداع ، والمؤمن يستعلي بحسه علي هذا الغرور الزائل والمتاع الفاني، حتي يسلم قلبه لربه ويخلص وجدانه لمولاه ، وهذا هو الطريق الذى لا طريق سواه ، لمن أراد النجاة ، واسمع إلي أحمد بن أبى الحوارى يقول : سأل محمود أبا سليمان وأنا حاضر : ما أقرب ما يتقرب به العبد إلي ربه عز وجل ؟ فبكى أبو سليمان ثم قال : مثلي يسأل عن هذا ؟ أقرب ما تتقرب به إليه أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو [1]. إن للقوم نوادرا ، فسبحان الذي فطرهم ، وعن

(1) ذم الهوى . صـ70.

الدنيا فطمهم ، فخرجت الحكمة من أفواهم ، وتفجرت علي ألسنتهم ، إن هذا العبد الصالح سئل من أقصر الطرق إلي الله فبكى متهما لنفسه ثم قال : مثلي يسأل عن هذا ؟ وبكاؤه وسؤاله هذا هو عندى أقوى ما في الخبر ، وأروع ما فيه ، ثم جاء جوابه الذى يسقط علي القلوب كما تسقط قطرة الندى على ريشة عصفور فينتفض : أن يطلع علي قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو ، سبحان الله ، أن تطلبه هو وحده ، رضاه هو وحده ، حبه هو وحده ، وجهه هو وحده وكفى ، لأن ما عداه سيكون شركا يقدح في توحيدك ، ورياء يشوس صفاء قلبك ، ويلون نقاء عقيدتك ، ووالله لقد تعب القوم فأتعبوا من خلفهم ، فمن لتقصيرنا سوى الله ؟ ومن يجبر كسرنا إلا الجبار الذى يجبر الكسور ولكنه يعاقب علي التقصير ؟ .

قمة القمم

إن أهل هذه الروضة الذين هم من مواليدها ، باعوا الله أنفسهم ، وفرغوا له قلوبهم ، ووقفوا عليه حياتهم ، فإذا تكلموا فلله ، وإن عملوا فلله ، وإن قاموا أو قعدوا فلله ، وإن باعوا أو اشتروا فلله ، وإن أكلوا أو شربوا فلله ، استعملهم مولاهم في طاعته ، فأسلموا له الوجه وأخلصوا له القصد ، فهم الناس ولا ناس سواهم ، صلاتهم لله ، ونسكهم لله ، ومحياهم ومماتهم لله ، وقفوا عند همهم وحاسبوا أنفسهم كما يحاسب الشريك شريكه أو أشد حتى لانت واستقامت ، وإجمالا أخي ، إنها همم تدور بأصحابها حول العرش فرعي الله دينا رباهم ، ونبيا زكاهم ، ومنهجا أخذ بهم نحو تلك الآفاق العالية ، حكى ابن الجوزى رحمه الله تعالي في ذم الهوى عن إبراهيم الخواص قال: قال لى محمد بن الفضل : ما خطوت من أربعين سنة خطوة لغير الله ، وأربعين سنة ما نظرت فى شيء استحسنته حياء من ربى (1) **ولى هنا أيها الحبيب وقفتان :**

أما الأولى فمع قوله : ما خطوت من أربعين سنة خطوة لغير الله ، إنه الجهاد مع النفس حتي تستقيم في القصد ، فهو لا ينقل قدما إلا بنية ، ولا يمضى خطوة إلا بنية ،

---

(1) صـــ71.

يقف مع كل خطوة ليسأل نفسه : هل هى لله ؟ أم لغير الله ؟ فإن كانت لله أمضاها ، وإن كانت لغيرة خلاها ، إنها قمة في جهاد النفس لا تتيسر لمن أسلم زمامه لهواه . ووضع مقوده في يد شهواته ، ويزيد الأمر وضوحا وروعة قول الحسن ﷺ: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه [1] .

وأما الثانية أخى فمع قوله: وأربعين سنة ما نظرت فى شيء أستحسنه حياء من الله عز وجل ، أتدرى أيها الحبيب ماذا يقصد ؟ إنه الورع ، وترك المباح الحلال حذرا من الوقوع في الحرام ، فأبناء هذه الروضة يجعلون بينهم وبين الحرام هامشا من الحلال درءا للشبهة وخوفا من الوقوع في الحمى ، فإذا رزقت مثقال ذرة من ورع فقد أوتيت خيرا كثيرا ، حكى ابن الجوزى في المنتظم أن رجلا جاء إلي العمرى فقال له : عظنى ؛ فأخذ حصاة من الأرض فقال : زنة هذه من الورع يدخل قلبك خير لك من صلاة أهل الأرض [2]. فخذ أيها الحبيب لله واترك لله ، تفتح لك الروضة أبوابها ، وتجد عند ربك العوض ، في مقام أسمى ومنزل أعلي وحياة باقية. **وأخرى هى أشد وأقوى :**

وأخرى هي أشد وأقوى

ثم اعلم أيها الحبيب أن إخلاص القلب وإسلام الوجه ورسوخ القدم علي هذه الطريق لن يحصل لك ، ويتحقق فيك إلا أن يكون قلبك صفرا مما سوى الله عز وجل ، بمعنى أن يطلع مولاك علي قلبك فلا يجد سواه ، وأن ينظر فى أنحائه فلا يبصر غيره ، وبمعنى آخر وأخير أيها الحبيب أن يكون قلبك عامرا بالله ، خرابا مما سواه ، فتكون أنت بالله ولله ومع الله ، فإن حدث هذا ، فأبشر ثم أبشر لقد أدركت ما ترجو ، وأصبت هدفك ، ويحق لك عندها أن تبدل شهادة ميلادك ، ومحل إقامتك ، لتصبح من مواليد روضة الإخلاص وواحدا من أهلها ، فهل تستطيع ؟ إن الطريق إلى ذلك واحد وواضح ، إنه يمر عبر اختبار دقيق ومحك صعب ، ولكنه والله سهل على من يسره الله تعالي له ،

---

(1) الإحياء جـ4 صـ620.

(2) جـ2 صـ124.

وسهله عليه ، فاعرض نفسك على هذا الامتحان الربانى والمحك القرآنى ، الذى وضعه الله عز وجل لمن أراد الوصول وطرق بكلتا يديه باب القبول ، يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:24] هذا هو الابتلاء ، هذا هو المحك ، من أجل التمحيص والتمييز ، فهل تجرب؟ حاول والله معك ، أقبل ولا تخف ، إنها والله طريق الأنبياء والأصفياء والصديقين والشهداء ، وتذكر أخى ، تذكر مصعب وسلمان ، وتذكر ابن تيمية والعز بن عبد السلام ، وتذكر نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، تذكر الإمام البنا والشيخ أحمد ياسين ، نعم تذكر هؤلاء وغيرهم كثير من أهل التجرد وأصحاب القلوب العامرة بالله وحده ، نذكر هؤلاء واعلم أن مولاك عز وجل قد وضع كل الروابط والصلات فى كفه ، ووضع الله ورسوله ودينه ودعوته في الأخرى ، فأى الكفتين عندك أرجح؟ يقول سيد رحمه الله : (**الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة – وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج – والأموال والتجارة – مطمع الفطرة ورغبتها – والمساكن المريحة – متاع الحياة ولذتها – وفي الكفة الأخرى : حب الله ورسوله ، وحب الجهاد في سبيله .... الجهاد مجردا من الصيت والذكر والظهور ، مجردا من المباهاة والفخر والخيلاء ، مجردا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه وإلا فلا أجر ولا ثواب**) [1] .

إن الوصول بالقلب إلي هذا الأفق أخى الحبيب ، والبلوغ به هذا المنزل يتطلب جهادا وبذلا ورباطا ومصابرة ، ثم بعد ذلك ستجد الأمر متاحا ، وليس بمستحيل ، فربى سبحانه أكرم من أن يكلف النفوس شيئا لا تطيقه ، أو أن يطلب منها ما لا تملكه ، وما أشار الخالق سبحانه إلى هذا الأفق العالى من التجرد والإخلاص إلا وهو يعلم أن النفوس تطيقه وبشيء من الصبر والمصابرة يمكن لها أن تبلغه ، ثم تابع أخي الحبيب مع

---

(1) الظلال حـ3 صـ1615.

سيد رحمه الله وهو يقول : (**وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، وإنما تطالب به الجماعة المسلمة والدولة المسلمة ، فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع علي مقتضيات العقيدة في الله ، ومقتضيات الجهاد في سبيل الله ، وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه – فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها – وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فى فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال ، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها ، لذه الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء فى رضوان الله ، ولذة الاستعلاء علي الضعف والهبوط والخلاص من ثقلة اللحم والدم والارتفاع إلي الأفق المشرق الوضيء ، فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففى التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك**) [(1)].

احذر مصير الفاسقين

إن أهل هذه الروضة أيها الحبيب ، ابتلوا بالمال والتجارة فختاروا الدعوة ، وابتلوا بالزوجة والولد . فاختاروا الدعوة ، وابتلوا بالآباء والأبناء والعشيرة ، فاختاروا الدعوة ، واجتازوا الاختبار ومروا سالمين علي المحك ، فحق لهم أن يحلقوا بإخلاصهم وتجردهم في سموات علا ، وآفاق لاتطال ولا ترجى إلا لأصحاب الهمم العالية والنفوس الحرة المتوثبة ، فحاول أن تلحق بالركب ، واحذر أن تتخلف ، فيلحق بك التهديد الذى تكرر مرتين فى ختام الآية ، لينتبه من له قلب ، **ويعي من ألقى السمع وهو شهيد** :

الأول : في قوله تعالي : ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ ﴾ [التوبة:24]

الثاني : فى قوله : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾[التوبة:24]

فنحن إذن أمام خيارين لا ثالث لهما : إما تجرد لله وصبر علي مشاقه ، وإما تربص لأمر الله الذى لا يتخلف ، وانتظار مصير الفاسقين ، وهذا جزاء القاعدين المعرضين ، فأقبل أخى ولا تتردد والله معك لا يضيع عمل عامل ، ولا يبطل سعي ساع ، وهو المستعان وعليه نتوكل وبه نعتصم ، وإليه وحده نلجئ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(1) نفس المصدر .

مثال يترجم المقال

لعلك الأن أخى بعد هذه السياحة النظرية ، تشتاق إلي مثال يترجم حلو المقال وجميل الكلام ، ويحوله إلي واقع مشرق متألق ، وهذا حقك ، ولن أتأخر عنك ، فنحن فى هذا الموضع نحتاج إلي مثال يؤكد لنا أن التجرد بهذا المستوى – علي مشقته – ليس مستحيلا ، وأن هناك رجالا صدقوا مع الله ، فدخلوا روضة الإخلاص ، تنسموا عبيرها ، واستنشقوا رحيقها ، ثم عادوا إلينا بمشاهد جديدة ، ولوحات فريدة لا تكاد تحدث ، وإن حدثت فصعب أن تكرر ، فتأمل هذه اللوحة ، وتوقف أمامها ، واحذر علي عقلك من روعتها ، وعلي قلبك من شدة وقعها . وعلى عينيك من وهج بريقها ، فوالله إنها لأحدى آيات القوم وعجائبهم ، يقول عبد الواحد بن محمد الفارسى : لقيت إبراهيم الجبلي بمكة بعد رجوعه إلى وطنه وتزوجه بابنة عمه ، وكان قد قطع البادية حافيا ، فحدثنى أنه لما رجع إلي بلده وتزوج شغف بابنة عمه شغفا شديدا ، حتي ما كان يفارقها لحظة ، قال : فتفكرت ليلة في كثرة ميلى إليها وشغفى بها ، فقلت : ما يحسن بي أن أرد القيامة وفى قلبي هذه ، فتطهرت وصليت ركعتين وقلت : سيدى رد قلبي إلي ما هو أولى ، فلما كان من الغد أخذتها الحمى فتوفيت يوم الثالث ، ونويت الخروج حافيا من وقتي إلي مكة [1] .

ما رأيك أخي الحبيب ؟ لا لا تتكلم . ولكن بالله عليك أعد القراءة مرة أخرى ، وأظن أن أفضل ما نقوم به أن نضع تحت هذه اللوحة عبارة : بدون تعليق ، فإنها ليست بحاجة إلي تعليق يفسد مدلولها ويشوش نقاءها ، فهل تشاركني هذا الرأى ؟ ولكن لي قلم يأبي إلا أن يتكلم ويعلق ، لينال شرف القرب ، ويحظى بشيء من الثواب والأجر ، هو إليه فقير ، وإن كان به غير جدير ، فتأمل أخى : رجل تعلق قلبه بزوجته ، أحبها وهام شوقا بها ، ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ، فعاني في حبه لها وشغفه بها ما أتعب فؤائده وهد قلبه ، وملآ اقطار نفسه ، وحب الزوجة هو الحب الحلال الذى لا يرقي إليه حب ، ولكن ما هو الحال إذا تنازع في القلب حب الخالق وحب المخلوق ؟ لقد

---

(1) ذم الهوى .صـ71.

استشعر هذا العبد الصالح الحرج وأدرك بقوة يقينه وروعة إيمانه أنه ليس من الأدب مع الله في شيء ، وليس من الإخلاص له في شيء ، وليس من التجرد له في شيء أن يزاحم مخلوق – أيا كان – ربه في تلك المضغة التي بها صلاح الإنسان وفساده ، لقد أورثه التوحيد حساسيه مفرطة ضد الشرك ، وأورثه الإخلاص صفاء لا تشوبه شائبه ، فلله دره ، ثم تأمل أخى حال هذا العبد الصالح حين تطهر ودعى ربه ومولاه قائلا : سيدى رد قلبى إلي ما هو أولى . يالله !!! رد قلبي إلي ما هو أولى ، إن ربك أولي بك أخي ، ومعبودك أجدر بقلبك ، وسيدك هو الأليق بخدمتك ، ولن تجد طعم الإيمان وحقيقة الإخلاص إلا بمثل هذا التجرد لله وتخلية القلب عما سواه .

خالف نفسك واتهمها

لم يتجاوز صاحب البردة رحمه الله الحقيقة عندما أنشد ناصحا لي ولك ، وواصفا طريق الإخلاص فقال :

وخالف النفس والشيطان واعصهما

وإن هما محضاك النصح فاتهم

إنه رحمه الله يحذر من تحالف غير مقدس ، لهدف غير شريف ، نعم ، تحالف النفس التي بين جانبيك والعدو الذي يجرى منك مجرى الدم في العروق ، فانتبه واعلم أن أول خطوة في الطريق إلي المعالي أن تترك نفسك خلفك ثم تقبل ، فإن الملائكة تنادي عليك : خل نفسك وتعال ، نعم أخى ، خل نفسك أي دع حظوظها ، ودع شهواتها ، وفارق هواها ، ثم أقبل علي ربك فإن الطريق ممهدة والأبواب مشرعة ، وبغير هذا ، بغير مخالفة النفس ومفارقة هواها فلا أمل في الوصول ولا رجاء في القبول ، وماذا ترجو أيها الحبيب من أمارة بالسوء ، رضيت أن تكون عضوا في تحالف هي أحد أضلاعه الأربعة ؟ تحالف يمثله : إبليس والدنيا والهوي ورابعهم هذه الأمارة التي في صدرك ، كيف ترضى عنها وهي خنجر في ظهرك ؟ تدافع الشيطان وتجاهد الهوي وتدفع الدنيا ، وهي تمكر بك وتكيد لك ، وتعين عليك ، لقد أوتيت من مأمن ، ويوشك أن تهلك من حيث أملت النجاة ، ودواؤك أخي فيما وصفه لك الصالحون قبلك ، بالقول تارة وبالعمل تارات ، فاتهم نفسك وظن بها الشر ، وإياك أن ترضي عنها ، فإن الرضي عنها أول خطوة في طريق

الهلاك وتزكيتها انتحار ، فحذار ثم حذار ، وتأمل حال الفضيل بن عياض رحمة الله وحاول أن تمضي في أثره ، وأن تنسج علي منواله ، فمنوال الصالحين سراج المتقين ، وانظر إليه كيف يتهم نفسه ويوبخها ويتهمها ويبغضها في الله عز وجل ، يقول رحمه الله في خلوته يخاطب نفسه : (**هيه ... وتريد أن تسكن الجنة ، وتريد أن تجاور الله تعالي في داره مع النبين والصديقين والصالحين ، وتريد أن تقف المواقف مع الأنبياء ، مع نوح وإبراهيم ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين ، ... يا أحمق بأي عمل ؟ وبأي شهوة تركتها لله ؟ وبأي غيظ كظمته لله ؟ وبأي رحم قاطع وصلتها وبأي قريب باعدته في الله؟ وبأي بعيد قربته في الله ؟ بأي حبيب رأيته يعمل بما يكرهه الله فأبغطته في الله ؟ ولكن بعفوه ورحمته نرجوه، نرجوه مع إساءتنا ، ولا نقول أحسنا ، ولكن نقول أسانا وبئس ما صنعنا**)[1] .

أرايت أخي الحبيب ؟ هكذا كان الفضيل رحمه الله ، يراجع نفسه حينا بعد حين ، يحاسبها ويسألها ، يوبخها ويؤنبها ، لتستقيم علي الطريق ، وتستوي علي الصراط وتقف علي عظيم ذنبها وتقصيرها في حق مولاها ومربيها عز وجل ، وبمثل هذه المحاسبة أدرك القوم ما يريدون ووجدو ما يطلبون ، فلله درهم ولا عزاء للقاعدين والمقصرين .

ميدان الفضيل

قال صاحبي يحاورني : ما رأيك لو جعلنا في هذه الروضة ميدانا للفضيل ، تذكيرا به وتكريما له ؟ ميدان يفيء إليه الناس ويستظلون بظله ويأكلون من ثمره ، فإن ظله وارف وثمرة يانع ، فوقعت فكرته من نفسى موقعا حسنا ، وقلت مجاوبا: نعم ما رأيت ، فالرجل بهذا جدير ، بل إنه لجدير بما هو أعظم من ذلك ، فالفضيل إذا ذكر المخلصون فهو في صفهم الأول ، وإذا ذكر المتقون فهو كذلك في صفهم الأول ، وإذا ذكر أهل الورع فإن القدم بالقدم والكتف بالكتف ، وسبحان الذي خلق هذه النفوس وألهمها هذه التقوي ، وسبحان الذي خلق الفضيل ورزقه كل هذا الأدب ، فعجائب الفضيل لا تنتهي ، ومدرسته الربانية لا تغلق أبوابها ، فتعال الآن وانظر إليه يمرن نفسه ويدربها ، لتستوي علي

---

(1) مختصر تاريخ ابن عساكر . حـ20. صـ305.

سوقها وتستقيم علي الطريق ، لقد ازدحم عنده طلاب الحديث فلما انصرفوا ، راح يخاطب نفسه قائلا : ها هم أولاء يجتمعون حولك ، يكتبون الحديث عنك ، .... بخ بخ : (**لقد تفرغت للحديث ، ويتنفس طويلا ثم يقول : ويحك .... أنت تحسن الحديث ؟ هل أنت أهل لأن يحمل عنك ؟ استح يا أحمق بين الحمقان ، لولا قلة حيائك وسفاهة وجهك ما جلست تحدث ، وأنت وأنت ... أما تعرف نفسك ؟ أما تذكر ما كنت ؟ أما تذكر كيف كنت ؟ أما لو عرفوك ما جلسوا إليك ، ولا كتبوا عنك ولا سمعوا منك ابدا**) (1) .

لا تنس أخي أنك لا زلت في روضة المخلصين ، ولا تتعجب وأنت في ميدان الفضيل ، فإن ميدانه مليء بالعجائب يسع كل من شم رائحة الإخلاص ، فراح يحاسب نفسه طلبا للنجاة ، ويراقبها أملا في الوصول إلي بر السلامة ، إنه يواصل حديثه إلي نفسه ، ويخاطبها محاسبا لها ومعلما لنا : (**ويحك : أما تذكر الموت ، أما للموت في قلبك موضع ؟ أتدري متي تؤخذ فيرمي بك في الآخرة ؟ فتصير في القبر وضيقه ووحشته ؟ أما رأيت قبرا قط ؟ أما رأيت حين دفنوه ؟ أما رأيت كيف سلوه – أنزلوه – في حفرته وهالوا عليه التراب والحجارة ؟**) (2).

إنها طريق الفضيل أخي وطريقته ، وهي طريق يري سالكوها أن النفس عقبة كؤدا ، وأن من أراد وجه ربه فعليه أن يقتحم هذه العقبة ، وتذكر أخي دائما هذا النداء العلوي: خل نفسك وتعال ، أي فارق نفسك بخطوة ، وبعدها تجد ربك أقرب إليك من نفسك ، وأبر بك من والدك ، وأحنى عليك من أمك ، وسبحان ربي وسعت رحمته كل شيء،وهى تسع المجاهدين الأولين ، وتسع إن شاء الله كذلك القاعدين من أمثالنا والمقصرين .

هل تعلم ما اقترفت ؟

إن ميدان الفضيل الذى مررت به أخى ، فرأيت ما رأيت ، وسمعت ما سمعت ، ليس للرجال فقط ، بل إن للنساء فيه مكانا وأى مكان ، لقد أدركنا فيه نساء بهمم الرجال ، همم نفتقدها اليوم فى الرجال والنساء علي السواء ، وهو ما جعلنى أردد علي الدوام أسفا وحسرة : إن لم نكن أيها

---

(1) حلية الأولياء .8/ 86.

(2) نفسه .

الأجباب ، كرجال السلف فلنكن كنسائهم ، وتأمل معى هذا الخبر ، وانظر حال هذه المرأة،وكيف قامت علي نفسها ، بالتهذيب والتأديب ، ودوام الحساب والمقت فى جنب الله تعالي ، يقول وهب بن الورد : بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهى تقول : يارب ذهبت اللذات ، وبقيت التبعات ، يارب سبحانك ، إنك لأرحم الراحمين ، أما لك عقوبة إلا النار ؟ فقالت صاحبة لها : ياأخية ، دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقالت : والله ما أرى هاتين القدمين – وأشارت إلي قدميها – أهلا للطواف حول بيت ربي عز وجل ، فكيف أراهما أهلا أطيء بهما بيت ربي عز وجل ، وقد علمت حيث مشتا وأين مشتا ؟ [(1)] ، إن هذه الأمة الصالحة تعرف والله من أين تبدأ الطريق . وتدرك تماما أن الخطوة الأولى نحو انطلاقة لا توقف بعدها ، وصعود لا هبوط بعده هى : اتهام النفس ، وعدم العجب بلعاعة من العمل قد تقبل وقد ترد ، ولن يرضى عن نفسه إنسان إلا وتلقفه الشيطان ، ثم بعد ذلك يكون الطوفان المغرق والسقوط المهلك .

أقوال متفرقة

إن أقدام القوم قد رسخت في الروضة وتمكنت ، وإنما رسخها ومكن لها إحساس دائم بظلم النفس ، وشعور عميق بمدى التقصير في جنب الله عز وجل ، ومعرفة بالنفس تضعها في مكانها اللائق بها وبمثلها ، عرف كل منهم حقيقة نفسه ، فاتخذها عدوا ، وأعد لها العدة ، وواجهها بكل ما أوتى من قوة ومن رباط الخيل ، وقلب إن شئت طرفك لترى فى رحاب الروضة رجالا ونساء ، شبابا وشيوخا ، دخلوها فاستوطنوها ، وذاع فيها صيتهم ، واشتهر أمرهم ، فهذه آثارهم تدل عليهم ، فالله تعالي شهدها ، والملائكة حفظتها ، والأجيال من بعدهم وعتها فاهتدت بهديها واتعظت ، ونحن اليوم أحوج ما نكون إليها لنربي نفوسا ناشزة ، وأرواحا نافرة ، أوشكت أن تصدأ وتسقط في الطريق كأوراق الخريف الذابلة ، فانظر أخي إلي يمينك تجد مالكا بن دينار قائما يقول : إذا ذكر الصالحون فأف لي وتف ، وعلي يسارك لو نظرت تجد الفضيل يهتف بك : من أراد أن ينظر إلي مراء فلينظر إلي ، سبحانك ربى لا إله إلا أنت ، تزكى من تشاء وتدسي من

---

(1) ذم الهوي . صـ42 . ابن الجوزى .

تشاء ، وترفع بالإخلاص أقواما ، وتضع بالعجب والرياء آخرين ، فإذا قال مالك بن دينار : إذا ذكر الصالحون فأف لى وتف ، فماذا أقول أنا ؟ وماذا تقول أنت ؟ وإذا قال الفضيل بن عياض : من أراد أن ينظر إلي مراء فلينظر إلي ، فماذا أكون أنا ؟ وماذا تكون أنت ؟ نعم ماذا نقول أخى وليس لنا في الطريق مع القوم قدم تسعى ولا رجل تمشي ؟ وإلي الله نشكوا قعود الهمم وخور النفوس ، وانظر خلفك تجد العلاء بن زياد في حوار مع رجل آخر يجدر بك أن تسمعه ، فلك فيه عبرة وأنت له أهل ، يقول له الرجل : رأيت كأنك في الجنة ، فقال له العلاء : ويحك أما وجد الشيطان أحدا يسخر به غيرى وغيرك ؟ يالله سبحانك ما هؤلاء القوم ؟ من علمهم ورباهم ؟ من الذى أدبهم واصطفاهم ؟ إن العلاء لم ينخدع بقول الرجل ، واعتبرها من الشيطان سخرية واستهزاء به أولا ، وبالرجل ثانيا ، فقال ما قد علمت ، وبعضنا أخى لو قيل له مثلها ، لقعد عن العمل وودع الطاعة وهجر المسجد والقرآن والصحبة ، وكأن هذه الرؤية صك غفران يضمن به مقعده في جنات ونهر عند مليك مقتدر ، وانظر أمامك الآن أخى تجد سفيان يأتيك بالعجائب ، كان رحمه الله إذا قيل له : رئيت في المنام يقول : انا أعرف بنفسى من أصحاب المنامات [1] .

فدعك أخي من المنامات ، ولا تنخدع ، فأنت أعلم بنفسك ، وهذه سير القوم فاقتف آثارهم والزم غرزهم ، تجد لك في الروضة بين القوم مكانا مع رجال ونساء ، صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، إن لم تعمل عملهم لن تلحق بهم ، وعندها ستشعر بالندم وليته ينفع .

علامات علي أصحاب الدرجات

قال صاحبي : وهل للقوم علامة يعرفون بها ؟ أو إشارات تدل عليهم وترشد إليهم ؟ قلت له أحاوره : لا تتعجل ، فإنك سألت عن شيء أنت منه قاب قوسين أو أدني ، وعما قليل ستمر بك عدة علامات علي الطريق ، تدلك في الروضة وتهديك ، وترشدك إلي سمات القوم لتعرفهم

(1) هذه الأخبار منقولة عن : أصول الوصول . صـ97. الشيخ / محمد حسين يعقوب.

وتتعرف بهم ، وما هي سوى لحظات حتي مرت أمام أعيننا أول علامة فقلت : الآن أيها الرفيق الطيب والصاحب الناصح ، جاء ما تطلب فانظر ، **فنظرفقرأ :**

العلامة الأولي سوء الظن بالنفس

تلك أيها الحبيب أبرز علامات أهل الروضة ، وأخص صفاتهم ، وأوضح دليل إلي منازلهم ، ولعك قد مر بك طرف من الحديث عنها قبل قليل ، ولا مانع أن أزيدك ، ففي الزيادة – كما قيل – إفادة ، والتكرار يعلم الأبرار ، فاعلم أن أول صفات القوم ، سوء الظن بالنفس ، وهل يليق بالكبار الكرام حسن الظن بالنفس ؟ لقد كان الصالحون أبدا أخي الحبيب يتهمون أنفسهم ، بل إن أحدهم لينظر إلي نفسه ، فيراها شر ما خلق الله تعالي وما برأ ، فيبغضها ويمقتها في جنب الله عز وجل ، لما يعلم عنها ويرى منها ، ولعل هذه الخصلة هي التي بلغت بهم ، فلن يبلغ أحدهم منازل القوم ، ويبصر خيامهم ، ويحل بساحتهم ، حتى يمقت نفسه في ذات الله تعالي ويدرك يقينا أنها أعدى عدوه ، وأظهر جند الشيطان عليه ، وقف معى أيها الحبيب أمام هذه اللوحة : كان المسور بن مخرمة لا يقوى علي سماع شيء من القرآن لشدة خوفه ، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية ، فيصيح الصيحة فما يعقل أياما ، حتى أتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:85،86] . فقال : أنا من المجرمين . ولست من المتقين ، أعد علي أيها القاريء ، فأعادها فشهق شهقة فلحق بالآخرة(1).ما تقول أخى في هذا المشهد ؟ وما رأيك في قوله : أنا من المجرمين ، ولست من المتقين ؟ هكذا يرى الصالحون أنفسهم . وهكذا ينظرون إليها ، فكيف نراها نحن ؟ كيف أراها أنا ؟ وكيف تراها أنت ؟ إن أحدنا في زمن الزيف والرياء والكذب والنفاق ، يقرأ هذه الآية وأمثالها ويقسم بلسان الحال والمقال أنه من المتقين والله أعلم بحاله ، إن حسن الظن بالنفس يسوقك إلي أمن يأتيك الهلاك من قبله ، وسوء الظن بها يسوقك إلي خوف

---

(1) الإحياء :4/ 284 .

يأتيك بالأمن يوم يفزع الناس ، فاتهم نفسك أخي لتسعى جاهدا – كما سعي القوم – في فكاكها – ولا تغتر بعمل لا تدري عند الله تعالي موقعه ، فتعجب صاحبي مما راى ومما سمع ، فقلت له : أزيدك : كان عطاء السلمى من الخائفين ، ولم يكن يسأل الله الجنة ابدا ، إنما كان يسال الله العفو ، وقيل له في مرضه : ألا تشتهى شيئا ؟ فقال : إن خوف جهنم لم يدع فى قلبى موضعا للشهوة . إن هذا الرجل الصالح ما رفع رأسه إلي السماء ولا ضحك اربعين سنة ، وإنه رفع رأسه يوما ففزع ، فسقط فانفتق في بطنه فتق ، وكان يمس جسده في بعض الليل مخافة أن يكون قد مسخ ، وكان إذا أصابته ريح أو برق أو غلاء طعام . قال : هذا من أجلي يصيبهم ، لو مات عطاء لاستراح الناس .

يالله سبحانك !!! أى أفق هذا ؟ أظن أن في هذا أيها الحبيب ما يكفي ، فإن أحوال القوم تفضح عجزنا ، وتنشر علي الملأ تقصيرنا وسوء فعالنا ، فلنمض إلي علامة أخرى من علامات أهل الإخلاص ، فمضينا وما هي إلا لحظات حتي بدت علي الطرق علامة ، فأشرت إليه أن انظر ، فنظر فقرأ .

العلامة الثانية استواء المدح والذم

ليس في قاموس الصالحين أخي الحبيب أن يفرحوا لمدح أو يحزنوا لذم ، فالمخلصون من أهل هذه الروضة يستوى عندهم المدح والقدح ، والحمد والذم بل إن خوفهم من المدح يطغى علي كراهيتهم للذم ، ولعل هذا فى زمن الرياء والنفاق من العجائب ، ولكن الصالحين لا يحفلون بمن ذمهم ، لأنهم ابتداء يتهمون أنفسهم ، ويعلمون منها مالا يعلمه أحد ، فكيف يكذبون يقينهم بحقيقة أنفسهم لقول قائل لا يعرف عنها شيئا ؟ إن من الحمق أن تصدق في نفسك مدح مادح لا يعلم عنك ما تعلمه أنت ، أما الهم الأكبر عند الصالحين فهو المدح ، لأن المدح عندهم لا يتعدي ما قاله عمر ﷺ : المدح هو الذبح ، فالممدوح والمذبوح سواء ، وهى والله الحقيقة ، **فالمدح خطر من وجهين :**

الأول : أنه يملأ المرء كبرا وعجبا وكلاهما مهلك .

الثاني : أن عزور المرء بثناء الناس عليه يقعده عن العمل ، لأنه إنما يشمر للعمل من يري نفسه فى نقص أو تقصير ، فإذا صدق ثناء الناس عليه ، وأحسن الظن بنفسه قعد عن العمل وهذه مصيبة .

وعليه أخي فإن أهل الروضة لا يسكرهم ثناء ولا يغرهم مدح ، ولا يحزنون لقدح ، بل إن المدح يجعل أحدهم يتطامن ويخضع ، ويعود إلي صوابه ، ويسترد ما تبقى عنده من عقل وتقى ، ليرى نفسه علي حقيقتها ، ويرى كيف فرطت في جنب الله ، وركبت كل حاجة وداجة ، فالمدح يردهم إلي الصواب ، ويبصرهم بالعيوب ، ويذكرهم بما فرطوا في أمر الله عز وجل ، إذن كيف يفرح بمدح أو يهتم بقدح من علم أن الله تعالي عليه رقيب ، يعلم سره وجهره ، ويرى مخبره ومظهره ؟ وتأمل أخى حال محمد بن المنكدر ، فقد روى عكرمة أنه جزع عند الموت فقيل له : لما تجزع ؟ قال : أخشى آية من كتاب الله عز وجل :- ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر:47] فإني أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسب [1] إن من يراقب ربه ، ويعلم حقيقه نفسه ، لا يجب أن يخدعه قول مادح لم ير منه غير صورة حسنة ومظهر نظيف ، فعد الناس موتي ، ولا تطلبن بعملك سوى وجه الحي الذى لا يموت ، فإنه بك أليق ، يابن الدعوة ، وربيب المخلصين فانشغل بذنبك ، ودع عنك مدح المادح وقدح القادح ، فإنك والله لا تدري لعل الله اطلع علي بعض ذنوبك فمقتك وطردك ، وقال وهو فعال لما يريد : اذهب فلن أغفر لك أبد ، فيالله لطفا ، وتأمل أخي هذا المشهد ، فلعلك لا تصادف مثله : قالت أم محمد ابن كعب القرظي لمحمد : يا بني لولا أني أعرفك صغيرا وكبيرا لظننت أنك أحدثت ذنبا موبقا لما أراك تصنع بنفسك في الليل والنهار ، قال : يا أماه وما يؤمنني أن يكون الله قد اطلع علي وأنا في بعض ذنوبي فمقتني وقال: اذهب ، لا أغفر لك[2] .

هذه أخي صفة الصفوة ، وسمة أهل هذه الروضة ، بها سبقوا غيرهم ، وبها تفردوا وغردوا خارج السرب ، وأختم هذه العلامة بزهرة بديعة يقدمها يحيي بن معاذ حيث قيل له : متي يكون العبد مخلصا ؟ فرد قائلا : إذا صار خلقه كخلق الرضيع ، لا يبالى

---

(1) صفة الصفوة . 2/ 375.

(2) نفسه .

من مدحه أو قدحه [1]. ثم مضينا في الطريق ، تشدنا نفحاته ، وتحدونا بلابله ، فإذا علامة ثالثة علي الطريق تبدو ، فأشرت إليه لينظر ، **فنظر فقرأ :**

العلامة الثالثة إخفاء الطاعات

إن أهل هذه الروضة أخى ، يحرسون أعمالهم ، ويحمونها من الظهور ، ويخافون عليها من الانتشار ، وإنهم لأحرص علي إخفاء الطاعات من حرصهم علي إخفاء الذنوب والعورات ، أو أشد ، ولن تلحق بهم أخى إلا إذا عودت نفسك عمل السر وأغلقت دون أعمال البر أبوابا وأرخيت حجبا ، كما يغلق أهل المعاصي دون معاصيهم أبوابا ويسدلون أستارا ، فكن كذلك ، لينطبع في ذهنك وقلبك أن الله تعالي يراك ويطلع عليك ، وهو وحده الطلب والمراد ، فلا تنازعك نفسك إلي طلب غيره أو قصد سواه ، وهذه والله كبيرة ، بل كبيرة جدا إلا علي المخلصين ، وسأقطف لك في هذه الوقفة زهرات من بساتين القوم تحير عقلك وتمسك لبك ، وتأخذ بمجامع قلبك ، لما بلغه القوم في مجال الإخلاص والتجرد ، يقول أبو موسى الأشعرى : خرجنا مع الرسول ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر ، بيننا بعير نتعقبه ، قال : فنقبت أقدامنا ، فنقبت قدماى وسقطت أظافرى ، فكنا نلف علي أرجلنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ، لما كنا نعصب علي أرجلنا من الخرق ، قال أبو بريدة : تحدث أبو موسى بهذا الحديث ، ثم كره ذلك ، كأنه كره أن يكون شيئا من عمله أفشاه[2] .

قد تدعو الحاجة وتسوق الضرورة إلي إظهار عمل ما، بيد أن الأصل أخى الحبيب عند القوم هو إخفاء العمل وستره والحرص كل الحرص ألا يطلع عليه أحد ، ليظل خالصا بعيدا عن الشيطان ومسه ووسوسته ، وقد تحدث أبو موسى بقصد أن يطلعنا علي حاله وحال إخوانه من السابقين الأولين وجهادهم ، فلما تحدث رجع

---

(1) تنبيه المغترين . صـ87 .

(2) الحديث في صحيح مسلم.

علي نفسه باللوم كراهية إفشاء عمل كان القوم قد جعلوه خبيئة بينهم وبين ربهم ، ولله درهم ، يعلم أحدهم متى يتحدث ، ومتى يصمت ، وهذا من معالم الرجولة الحقة.

إن حب إظهار العمل والسرور باطلاع الخلق عليه شاهد صدق علي عدم الصدق ، ويحكى لك ابن جوزى في صفة الصفوة من أخبار المخلصين ما تلين به القلوب . وتقشعر له الأبدان ، وإليك هذه الباقة من ورود القوم فتدبر وتأمل : عن سفيان قال : أخبرتني أم الربيع بن خيثم قالت : كان عمل الربيع كله سرا ، إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف ، فيغطيه بثوبه ، وعن زائدة بن قدامة قال : صام منصور بن المعتمر أربعبن سنة ، قام ليليها وصام نهارها ، وكان في الليل يبكى ، فتقول له أمه : يابني أقتلت قتيلا ؟ فيقول : أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، قال : فإذا أصبح كحل عينيه ودهن رأسه وبرق شفتيه وخرج إلي الناس .

ورحم الله محمد بن واسع يقول : أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته علي وسادة واحدة ، قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ، ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم فى الصف فتسيل دموعه على خده لا يشعر به الذى إلي جانبه [1] .

إن القوم لا يعملون إلا لله ، ومن ثم لايحبون أن يطلع علي عملهم سواه ، وقد وضع ابن عطاء بين يديك ميزانا قسطا تزن به الأمور فقال في حكمه وما أجمل ما قال : استشرافك أن يعلم الناس بخصوصيتك دليل علي عدم صدقك في العبودية . وقد والله صدق . وأخلص لي ولك النصح ، فإذا أردت بعملك الناس فهو الشرك الصريح والرياء الواضح ، والكذب الفاضح ، فكيف تكون عبد الواحد . وقد تقسم عملك بين أرباب متفرقين ؟ ما هذا والله بسبيل المخلصين ، ولا بحال العبيد القائمين علي طريق رب العالمين .

قال صاحبى : هل بقى أمامنا من علامات ؟ قلت : انظر ، **فنظر فقرأ :**

---

(1) راجع صفة الصفوة . عند ترجمة هؤلاء.

العلامة الرابعة كراهية الشهرة

تلك آخر العلامات التي ستمر بها ، **وتتوقف أمامها :** كراهية الشهرة ، ونبدأ بخبر أخي ما قرأته إلا خفق قلبى واقشعر بدنى ، واضطربت روحى ، وطار بى طائر الذكرى نحو الجيل الفريد الذى رباه النبي ﷺ، فصنع منهم بشرا يغردون كالبلابل خارج السرب ، لا مثيل لهم إن رحت تطلب لهم مثيلا ، ولا شبيه لهم إن طلبت لهم شبيها ، فانظر أخى . دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسجد ، فرأى معاذ بن جبل يبكى ، عند قبر رسول الله ﷺ فقال : ما يبكيك ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة [1] .

اللهم ارض عن عمر ومعاذ وبارك لنا فيما خلفاه لنا ، وما نقلاه إلينا ، إنها الربانية فى أوج عظمتها ، والهداية في أبهى حلتها ، والإخلاص فى أعظم صوره ، والله إن للكلمات لوقعا فى النفس ليس له مثيل ، ولم لا ؟ وهم بلسان الوحى يتحدثون ، ومن مشكاة النبوة يقبسون ، فاقرأ هذا الخبر وأعد القراءة ، وتأمل قوله : وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء ، إن لبريق الشهرة في النفوس لحلاوة ، ولضجيج الإعلام حول المرء لطلاوة،والشيطان يزين للإنسان حب الظهور،ويؤجج فى النفس عشق الشهرة و حب الذيوع و الانتشار،و الإخلاص أن يعافيك الله تعالى من كل ذلك،فالصدق مع الله تعالى و حب الشهرة لا يجتمعان فى قلب عبد أبدا ، و هذه إشارة يبعث بها إليك إبراهيم بن أدهم حيث يقول رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة،يا الله ! بهذا الصدق و هذه الصراحة،وعظنا الرجل و صدق،فبلغت رسالته القلوب عندما علم و عمل،و نصح و انتصح ، وانظر إلى حاله رحمه الله ، يقول ابن الجوزى : اشتهر إبراهيم بن أدهم ببلد ، فقيل : هو فى البستان

---

(1) رواه الطبراني والحاكم وقال : صحيح الإسناد.

الفلانى ، فدخل الناس يطوفون و يقولون : أين إبراهيم بن أدهم ؟ فجعل يطوف معهم و يقول مثلهم : أين إبراهيم بن أدهم ؟ (1) .

اقرأ أخى و تبسم و أنت تتعلم : فجعل يطوف معهم و يقول مثلهم : أين إبراهيم بن أدهم ؟ فرارا من أن يعرف ، و خوفا على نفسه من شهرة تحبط العمل و تبطل السعى إذا استسلم المرء لبريقها و ضجيجها ، أما إبراهيم النخعى فقيه الكوفة فكان لا يجلس إلى السارية فى المسجد حذر من الشهرة وتركا لأسبابها ، و كان رحمه الله يقول : تكلمت و لو وجدت بدا ما تكلمت ، فإن زمانا أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء (2)، لله درهم .

إن لحديثهم لحلاوة ، و إن تعليقنا عليه يذهب بحلاوته ، و كلامنا و الله إذا وضع بجانب كلامهم غضت حروفه الطرف و توارت خجلا ، فسبحان من خلق هؤلاء ، و رزقهم كل هذا التجرد ، و نسأله سبحانه أن يمن علينا ولو بقطرة من إخلاصهم علنا نلحق بهم ، أو نمر على دورهم ، فنقبل الجدار و الجدار و نستنشق العبير . و أخيرا أخى الحبيب هذه همسة فى أذنك : إن المذموم من الشهرة : أن تطلبها و تسعى فى أسبابها ، وتجد فى البحث عنها و عن بريقها ، وتقدم التنازل بعد أخيه فى سبيلها ، أما إذا جاءتك من عند الله فلا حرج و كن منها على حذر ، واعلم أن الأنبياء و العلماء والخلفاء كانوا أعظم الناس شهرة ، ولكن الله يعصم من يشاء ، فاسأله سبحانه العصمة يعصمك :

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:101]

مجالات الإخلاص

وفى الروضة أخى الحبيب ، أبصرنا وسمعنا من الآيات و الحكايات ، ما لا عين رأت ، ومن أعاجيب القوم و دلائل صدقهم ما لا أذن سمعت ، رأينا لوحات متعددة ،و صورا مشرقة ، وفى كل المجالات رسخت فى قلوبنا معنى الإخلاص ، وفى أرواحنا حقيقة الصدق ، وزادتنا إيمانا بعظمة القوم الذين استطاعوا بجهدهم و جهادهم أن يفكوا أنفسهم من قيود الهوى و أغلال الشهوة و حبائل الشيطان و ثقلة الأرض

(1) نقلا عن : أصول الوصول ص97.سابق .

(2) نفسه.

والطين ، فحلقوا عاليا فى آفاق هذة الروضة ، ووقفنا أخى نستعرض صورة بعد صورة و لوحة بعد لوحة ، و ألسنتنا تلهج بالدعاء لأخوان لنا سبقونا و علمونا ،و قلوبنا تنبض بالولاء و الحب لرب هداهم ، ونبى زكاهم ، و كتاب ألهمهم الرشد ،و نقلهم من البداوة إلى الحضارة ومن الضلالة إلى الهدى ، و من الظلمات إلى النور ، والآن أخى هات يدك و انطلق معى نحلق فى بعض مجالات الإخلاص ، لنرى عظمة القوم ونقف على أسبابها .

أما المشهد الأول و نحن نستعرض مجالات الإخلاص ، فهو فى الصلاة وحال القوم فيها ومعها ، و هنا نذكر قول النبى ﷺ: **" ما من أحد يتوضأ ، فيحسن الوضوء ثم يقوم فيركع ركعتين يقبل عليهما بقلبه و وجهه إلا وجبت له الجنة "** (1) ، و لن يقبل المرء أخى بوجهه و قلبه على صلاته إلا إذا كان الله تعالى هو الغاية ، و بابه هو المقصود ، ووجهه هو المطلوب ، و عفوه هو الرجاء ، ووقفنا أخى طويلا أمام هذا المشهد ، لأن اخبار القوم فيه مبهرة ، يقول محمد بن مسعر بن كدام عن أبيه : كان أبى لا ينام حتى يقرأ نصف القرآن ،فإذا فرغ من ورده لف رداءه ثم هجع عليه هجعة خفيفة ، ثم يثب كما يثب الرجل الذى فقد منه شيء فهو يطلبه ، و إنما هو السواك و الطهور ،ثم يستقبل المحراب ، فكذلك إلى الفجر ، وكان يجتهد فى إخفاء ذلك جدا (2).

في الصلاة

فانظر إليه أخي وتأمله وهو يقفز من نومه ليبحث عن شيء فقده ، ولم يكن ذلك الشيء سوي السواك يطهر به فمه ، والطهور يغسل به بدنه ، ليصبح بهما أهلا لأن يطرق الباب ، ويدخل الحضرة والرحاب ، ويتوجه إلي الملك الوهاب .

ثم تأمل قول ولده عنه ؛ وكان يجتهد في إخفاء ذلك ، لماذا ؟ لإنه قام لله فهو أعقل من أن يحبط عمله برياء أو سمعه . ومن سمع سمع الله به.

هذا ولد يحكى عن والده ، فما رأيك الآن أخي أن ننتقل لنقف أمام امرأه تحكى عن زوجها ؟ فما أجمل القوم وسيرة القوم وحديث القوم ، إن حديثهم ليأخذ بالنفوس من

---

(1) صححه الألبانى فى صحيح الجامع.

(2) حلية الأولياء7/ 216.

أقطارها ، ويحيط بالقلب من أنحائه ، فلا مفر ولا ملجأ من الإقرار بعظمتهم ، والاعتراف بفضلهم ، والشهادة بسبقهم وتفردهم ، تقول زوجة حسان بن أبى سنان ، كان يجيء فيدخل في فراشه ، ثم يخادعنى كما تخادع المرأة صبيها ، فإذا علم أنى نمت ، سل نفسه فخرج ، ثم يقوم فيصلى ، فقلت له : يا أبا عبد الله كم تعذب نفسك ؟ ارفق بنفسك ، فيقول : اسكتى ويحك ، فيوشك أن أرقد رقدة لاأقوم منها زمانا [(1)] – يقصد الموت – تأمل أخى هذه اللوحة ، قف طويلا أمام مشهد زوج يتحين نوم امرأته ، فإذا نامت ، تسلل برفق إلى مصلاه ، وما أجمل تعبير المرأة الصالحة : ثم يخادعنى كما تخادع المرأة صبيها ، الله أكبر . يوهمها أنه نام ، فإذا نامت هى، قام هو إلي عمله مع ربه ، وشغله مع مولاه ، فهو يخاف علي عمله أن يحبط ، حتي من حبيسة بيته ورفيقة فراشه ، وقرينة دربه .

في طلب العلم

وخير ما ينشغل المرء به أيها الحبيب : طلب العلم ، وما ذكر الله عز وجل أحد أفضل من عالم ومتعلم ، ولا خير فيما وراء ذلك ، وزينة العلم وجماله أن يكون لله وحده ، وابتغاء مرضاته ، ولكن النفس والشيطان يصران كل الإصرار ، ويحرصان كل الحرص ، علي أن يفسدا العمل ، ويبطلا السعى ، فيأتي الرياء ويدخل العجب وتتراقص الشهرة ، ويكون طلب الدنيا واصطياد الجاه عن طريق العلم ، وهذه آفات لا تليق برجل يبحث له فى روضتنا عن موضع قدم ، ليعيش في ظلها ، ويعايش أهلها ، إن هذه الروضة المباركة لا تفتح أبوابها إلا لمن طلب العلم لله ، وعلمه لله ، ثم لا يبالى بعد ذلك ، عرفه الناس أم جهلوه ، وقدوته في ذلك إمام الدنيا . الشافعى رحمه الله الذى ضرب لنا المثل الأعلي فقال : وددت لو أن الناس تعلموا هذا العلم على ألا ينسب لى حرف منه ، هذا هو أيها الحبيب سلوك الكبار ، فهل تطيقه ؟ أن يأخذ الناس علمك ، وينقلون عنك دون أن ينسب إليك ؟ هل فينا أو بيننا من يطبق ذلك ؟ والله

(1) نفسه. 3/ 117 .

إنها لكبيرة إلا علي الخاشعين ، وتأمل أخى هذا الخبر : مر الحسن البصرى علي طاووس وهو يملى الحديث في الحرم فى حلقة كبيرة ، فاقترب منه وقال له فى أذنه : إذا كانت نفسك تعجبك فقم من المجلس فقام طاووس فورا ، وقف أخي كذلك أمام هذه اللوحة التي يقدمها لك في روضة الإخلاص سفيان الثورى رحمه الله تعالي ، فقد كان لا يترك أحدا يجلس إليه إلا نحو ثلاثة أنفس ، فغفل يوما فكبرت الحلقة ، فقام فزعا وقال : أخذنا والله ولم نشعر ، والله لو أدرك أمير المؤمنين عمر مثلى وهو جالس هذا المجلس لأقامه وقال له : مثلك لا يصلح لهذا ، وكان إذا جلس لإملاء الحديث يجلس مرعوبا خائفا ، وكانت السحابة تمر عليه فيسكت حتى تمر ويقول : أخاف أن يكون فيها حجارة ترجمنا بها [1]..

اقرأ هذا الكلام أخى مرة بعد مرة ، وقف أمامه ، فأنت فى روضة الكبار من الأتقياء الأخيار ، والأنقياء الأبرار الذين امتلأت الأرض بهم نقاء وطهرا ، بعد أن ملأها الشيطان وحزبه ظلما وفسوقا وكفرا .

في قراءة القرآن

يبدو أخى الحبيب أن النفوس تميل إلي ما فقدته ، وتسعى في طلب ما نقص خطها منه ، ولما كانت حياتنا اليوم في حاجة ماسة إلي أن يجملها الإخلاص ويزينها التجرد ، تسمرت أقدامنا هنا فلا تريد أن تغادر ، وحق لها ذلك ، والآن إلي القرآن وحال القوم معه ، فقد كانوا يقرأون القرآن ، وكانت قراءتهم لله لا يبغون من غيره جزاء ولا يرجون من سواه شكورا ، تقول سرية الربيع بن خثيم : كان عمل الربيع كله سرا ، وإن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه [2]، كان عمل الربيع كله سرا ، ألم أقل لك أيها الحبيب ؟ إن القوم قد انصرفت همتهم نحو غاية واحدة ، أن يرضى ربهم عنهم ، أما رضا الناس فهو غاية لا تدرك ، وأمنية لا تطال ، ووهم لا ينال ، حتى وإن أدركوا ذلك فهم لا يلتفتون إليه ، حكى ابن الجوزى قال : كان إبراهيم النخعي إذا قرا

---

(1) نقلا عن : أصول الوصول. صـ98.

(2) حلية الأولياء . 2/ 107 .

في المصحف ودخل عليه أحد غطاه [1] إنهم والله إخوة بعضهم من بعض ، فإذا روى الخبر ونسب إلي عدد منهم ، فلأنهم يقبسون من مشكاة واحدة ، وينسجون على منوال واحد ، أما أبو عبد الله الإمام الممتحن . حبيب المؤمنين وريحانة هذه الروضة ، فكان يحيط كل عمله بالسرية التامة ، يقول تلميذه أبو بكر المروزي : كنت مع أبى عبد الله نحوا من أربعة أشهر بالمعسكر ، وكان لا يدع قيام الليل وقراءة النهار ، فما علمت بختمة ختمها ، وكان يسر بذلك [2].

في الصدقة

وصدقة السر أخى تطفيء غضب الرب ، فإذا أغضبت ربك – وما أظنك تفعل – وأنت في كل الأحوال بشر من طين ، لا ملكا من المقربين ، فإذا غلبتك نفسك وفعلت ، فتصدق ولا تنس قول حبيبك ﷺ : حتي لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، واجعل لنفسك خبيئة من صدقة ، لاتطلع عليها إلا من يعلم السر وأخفى ، ثم الملك الذى سجلها لك عنده في كتاب تسعد به يوم ينادى عليك : اقرأ كتابك .

وهذه عدة لقطات لأهل هذه الروضة ، فقلب فيها الطرف ، ومتع بها القلب ، وحلق في رحابها إلي آفاق من الرضوان والتقى يقول أبو حمزة : كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز علي ظهره بالليل فيتصدق به ويقول : إن صدقة السر تطفيء غضب الرب ، ويقول محمد بن إسحاق : كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به في الليل ، لقد كان رحمه الله يعول عددا من أهل المدينة ، طعاما وكساء ، لايعلم بذلك أحد ، ولم ينتشر الأمر إلا في اليوم الذى مات فيه ، حيث فقد الناس ما كان يأتيهم به بالليل ، فأدركوا أن الرجل هو من كان يقوم بأمرهم ، بل انظر أخى إلي نفس الرجل واملأ قلبك بعظمة القوم وشنف سمعك بذكرهم . لقد كان قادرا علي أن يكلف خادما يحمل عنه هذا الأمر ، ويكفيه التعب ، ويقوم مكانه بهذه المهمة ، ولكنه لم يفعل وحمل الطعام علي

(1) المدهش.صـ415.
(2) صفة الصفوة : 2 .205.

ظهره ، وطاف بالأجولة من بيت لبيت ، يرجو الله والدار الآخرة ، حتى أثرت الحبال فى ظهره ، جاء فى صفة الصفوة عن عمرو بن ثابت : لما مات علي بن الحسين فغسلوه ، جعلوا ينظرون إلى أثر الحبال في ظهره فقالوا : ما هذا ؟ فقيل : كان يحمل جرب الدقيق ليلا علي ظهره يقسمه علي فقراء أهل المدينة [1] ، إننا أخى الحبيب يحق لنا والله أن نباهى أهل الأرض جميعا بهؤلاء الرجال ، فبمثل هؤلاء فقط يكون الفخر وبأخلاقهم يكون النصر،وبجودهم وبرهم تقوى الأمة وتتماسك ، في خطوة نحو القيادة والريادة والشهادة علي الخلق .

في الصوم

إن الصوم سر بين العبد وربه ، ولذا كان الصيام دائما باب الإخلاص الأعظم ، والصوم المقبول لا يطلع عليه ولا يعلم به إلا عالم السر وأخفى ، ولهذا كان الصوم كذلك طريق الصالحين نحو إخلاص القلب وإسلام الوجه لله تعالي ، وكان للصائمين فى روضة الإخلاص حضور دائم وواضح ، وسترى الآن من أخبارهم عجبا ، فروضة الإخلاص هي روضة العجائب ، فهذا داود بن أبى هند ، صام أربعين سنة لا يعلم به أحد من أهله ولا أحد من أهل السوق ، وكان خزازا يحمل معه غذاءه من عندهم فيتصدق به في الطريق ، ويرجع عشية فيفطر معهم ، فيظن أهل السوق أنه أكل في البيت ويظن أهله أنه أكل فى السوق[2]، لعلك أخى لم تر مثل هذا من قبل ، ولن تراه من بعد ، إنه مشهد تحار منه العقول ، وتطيش له الألباب ، يصوم أربعين سنه،لايعلم به إلا الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وقد اطمأنت لذلك نفسه واستكانت ، فلم تحدثه يوما نفسه أن يذيع سره أو يفشى أمره ، فيا بارئ هذه النفوس سبحانك .

ويبدو أن الأمر لم يكن يقتصر أخى الحبيب علي رجل من بينهم أو رجلين ، وإنما كان الإخلاص أدبا حاضرا وظاهرة بادية في سلوك القوم عند كل هم وفعل ، وحركة وسكون ، فهذا عمر بن قيس الملائي – كما في صفة الصفوة – قام عشرين سنة صائما ما

---

(1) صفة الصفوة : حـ2 صـ96. ابن الجوزى .

(2) نفس المصدر . جـ2 صـ157 .

يعلم به أهله ، يأخذ غذاءه ويغدو إلى الحانوت ، فيتصدق بغذائه ويصوم ، وأهله لا يدرون ، وكان إذا حضرته الرقة يحول وجهه إلى الحائط ويقول لجلساته:ما أشد الزكام [1] ، ما أشد الزكام ؟ سبحان الله ، إنه ليس زكاما بل هى عبرة الحب ودمعة الشوق ، وماء الخوف جرى من قلب أخلص القصد لله ، فروى وجها طالما سجد لله . وضرب لنا المثل في الصدق والتجرد ، فاللهم إنا نسألك يارب هذه العيون الجارية والقلوب الرقيقة الباكية ، أن تكتب لأصحابها براءة من النار ، وأن تلحقنا بهم على قلة في العمل وضعف في الهمة ، واختلاط في النية ، لا يحدونا إلي ذلك سوى كرم وجهك وعظيم حلمك وسعة رحمتك .

في البكاء

إذا رق القلب أخى الحبيب فاضت العين بسحائب من الدمع مصدرها : خوف مزعج أو شوق مقلق ، فمن أحب بكى ، ومن خاف بكى ، فلا تجد المؤمن إلا رقيق القلب مهذب النفس ، قريب دمع العين ، إذا أحب ربه بكى شوقا إليه ، وإذا خاف ربه طار قلبه فرقا ، وجرى دمعه خوفا ، وفاضت عينه خشية ، ولكن الذى يفسد الدمعة أخى ويعكرها هو الرياء ، ولهذا جاءت تحذيرات السلف قوية منذرة ومحذرة من السقوط في جب الرياء الذى يفسد العمل ويبطل الأجر ، وجاءت نصائح القوم مشفقة ودودة ، حرصا علي سلامة القصد ، وإخلاص الوجه ، يقول سفيان الثورى رحمه الله : البكاء عشرة أجزاء تسعة منها لغير الله ، وواحد لله ، فإذا جاء الذى لله مرة فى السنة فهو كثير ، يالله هذا حال القوم أخى الحبيب . يتمنون أن يصفو لهم البكاء ولو مرة فى العام ، أما أنا أخى ، فليته يصفو لى مرة فى العمر ، فإن حدث فلعل الله تعالى يغفر بهذه الدمعة الخالصة ذنوب عمر ولى ، وزمن مضى ، وما ذلك على ربى بعزيز .

لقد كان أحدهم إذا بكى من خشية الله كتم بكاءه خوف الرياء ، وأخفى دمعته التى سقطت كقطرة الندى فوق وجنته ، حتى لا يكدرها غبش الشرك .وحماً التوجه لغير الله تعالى ، جاء في حلية الأولياء عن عمر بن واسع قال : لقد أدركت رجالا كان الرجل

(1) نفسه حـ3 صـ60 .

يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة ، وقد بل ما تحت خده من دموعه ولا تشعر به امرأته ، ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده لا يشعر به الذى إلى جنبه ، وكان يقول:إن كان الرجل ليبكى عشرين سنة وامرأته معه لا تشعر به [1] .

إنها لوحة مشرقة تظلها أنوار التوحيد ، ويعطرها عبق الإخلاص ، وإرادة الله تعالي بالتوجه والقصد ، والعجيب أخى أن القوم كانوا بين الناس منهم ، يتحدثون إذا تحدثوا ، بل ويضحكون إذا ضحكوا فإذا خلوا بأنفسهم فهى الخشية والمراقبة ، والرقة والبكاء ، فهذا محمد بن سيرين رحمه الله تعالى ، يتحدث بالنهار ويضحك . فإذا جاء الليل فكأنما قتل أهل القرية ، نعم أخى ، إذا خلا بنفسه انقبض وبكى ، خوفا وطمعا ، رغبا ورهبا فرضى الله عنهم ورضوا عنه .

واستعن بهذه العشر

قال صاحبى يحاورنى : أوشكنا أن نقطع الروضة فهل لك أن تخبرنى بما يعين على الإخلاص ، و يهدى إليه فى إيجاز تام خشية أن يدركنا الوقت ؟ فقلت : أبشر أيها الصاحب الناصح و الخل الوفى ، هذه رؤوس أقلام توضح لك ما تريد ، و تشرح ما تطلب ، **و تقرب إليك ما تبغى :**

أولا: الحياء من الله تعالى و تعظيم نظره إليك .

ثانيا: مراقبة الله تعالى فى السر و العلن .

ثالثا: اليأس من الخلق و إسقاط نظرهم إليك .

رابعا: الخوف من عدم قبول العمل .

خامسا: خوف الفضيحة يوم العرض على ملك السموات و الأرض .

سادسا : أن تستعيذ بالله تعالى من الرياء كما كان يفعل حبيبك ﷺ ، حيث قال : اللهم إنى أعوذ بك من أن أشرك بك شيئا أعلمه و أستغفرك لما لا أعلمه [2].

سابعا: بغض الرياء و ترك أسبابه و اعتزال أهله قال بشر بن الحارث : ما اتقى الله

---

(1) حلية الأولياء جـ2 صـ347.

(2) رواه الإمام أحمد فى المسند و انظر : صحح الترغيب و الترهيب.

من أحب الشهرة [1].

ثامنا : إخفاء الطاعة قدر الإمكان ، فقد كان السلف يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا يعلم بها أحد حتى زوجته .[2]

تاسعا : مصاحبة أهل الإحسان و التقى ، و مخالطة إخوان الصدق ،و العيش فى رحابهم و التشبه بهم .

عاشرا: مطالعة سير الأنبياء و الصالحين و الصحابة و التابعين .

تلك هى أيها الحبيب الوصايا العشر ، لمن طلب الثواب ، وسعى فى تحصيل الأجر ، فعليك بها أو ببعضها ، واستعن بمولاك عز وجل ، فإنه ينظر إلى قلبك قبل صورتك ، فإن اطلع فى قلبك على حسن قصد و إسلام وجه ،و صدق نية ، وعظيم همة ، فإنه يعين لما يحب و يوفق لما يرضى .

تحذير وإنذار

انقضى الوقت المحدد ، و تأهبنا لنودع الروضة و أهلها ، فتوقف صاحبى فجأة ثم قال يخاطبنى : انظر ، ضوء أصفر يضيء و يخفت ، فقلت : لا تقلق ، إنه تحذير للكل وإنذار للجميع ،و إن رجلا من أهل الروضة يأبى أن نغادر قبل أن يوقظنا من غفلة ،و ينبهنا من سنة ، أتدرى من هو ؟ أنه مورق العجلى رحمه الله يطل علينا باسم الوجه ، هادىء النفس ثم خاطبنا قائلا : خير من العجب بالطاعة ترك الطاعة [3]، إنها إشارة تحذير من ناصح أمين ،يرى أن ترك الطاعة خير من العجب بها ، فإن العجب يستبدل الأجر بالوزر ، ولهذا كان الصالحون يحذرون منه ومن أسبابه وبواعثه ، فهذا بشر بن الحارث صلى يوما فأطال الصلاة وأحسن ، ورجل يصلى خلفه ، فنظر إليه بشر و قال : لا يعجبنك ما رأيت منى ، فإبليس عبد الله مع الملائكة دهرا ثم صار إلى ما صار إليه ، وإنما يدفع الرياء و العجب اخى أمران :

---

(1) سير أعلام انبلاء ج10 ص746.

(2) نفسه ج9ص349 .

(3) البيان والتبيين ج3ص181.الجاحظ .دار الكتب العلمية.

الأول : أن توقن أنك ما أطعت الله تعالى بقدرتك ،و إنما بتوفيق الله ابتداء و معونته انتهاء ، فلم العجب و ليس لك فى الطاعة حول و لا قوة ؟.

الثاني: ما يدريك بعد الطاعة أنك تثبت عليها ؟ وأن مولاك يمن عليك بحسن الخاتمة ؟ إن إبليس عبد الله من قبل سنين عددا،ثم انتهى إلي ما تعلم فلا تعجب .

زهرة الوداع

وعند الباب استقبلنا غلام بهي الطلعة وضاء المحيا،جميل الثياب حسن الصورة كأنه من ولدان الجنة،تقدم نحونا ، و فى أدب جم دون أن يتكلم مد يده و قدم إلينا زهرة نادرة الشكل و الرائحة، فأخذناها و إذا على بعض أوراقها : يقول ابن الجوزى : قال بعض أصحاب أبى حامد الغزالى عند موته : أوصنى ؟ فقال : عليك بالإخلاص ، فلم يزل يكررها حتى مات [(1)].

خرجنا من الروضة ، و أغلق الباب ، فلما صرنا على بعد ، سمعنا قارئا يردد قول ربنا عز و جل : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيِّنة:5] وكان الصوت ربانيا كأنه من مزامير داود ، فيه من صوت الشيخ عبد الباسط رقته وروعته ، و من صوت الشيخ المنشاوى جماله وعذوبته، ومن صوت الشيخ الحصرى إخباته وإنابته ، فتجاوزت الآية الآذان ، ووصلت إلى سويداء القلب فاستقرت ، ثم مضينا فى الطريق إلى روضة أخرى .



(1) المنتظم .ج17ص127.ابن الجوزى .

الروضة الثالثة

الزهد
والآخرة خير وأبقى

يقول ربك عز وجل :

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [الكهف:45]

الروضة الثالثة

ويقول حبيبك ﷺ :

" صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والأمل " .

مسند الإمام أحمد ومعجم الطبراني الأوسط

وسأل رجل أمير المؤمنين علياً فقال :

صف لي الدنيا ، فقال : وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها العقاب ، وفي متشابهها العتاب .

مكاشفة القلوب صـ 129 الإمام الغزالي

قبل الوصول

حزمت وصاحبي أمتعتنا وركبنا مطايانا ، يحدونا الأمل أن ندرك روضة الزهد قبل أن تغيب الشمس ، ومضينا كل منا يحمل نفسا تواقة ، وروحاً مشتاقة ، وضربنا أكباد الإبل ، والروضة منا على بعد مسافات ، يأتينا عبيرها ، ويداعب وجوهنا نسيمها ، ويتسلل إلى الأرواح عبقها ورحيقها ، فهاج الشوق واشتد العزم وعلت الهمة ، وحتى لا يرهقنا تعب السفر ويقعد بنا نصبه ، قال صاحبي : عظنى ، فقلت : أنا وربك إلى الموعظة أفقر منك ، وإلى النصح أحوج من كل ما ذرأ الله تعالى وبرأ ،والوعظ أيها الصاحب الناصح لمن ملك نصابه ، فمن وعظ نفسه فاتعظت فقد ملك النصاب ، وعليه حينها أن يخرج الزكاة ، وإلا فالصمت به أولى ، والسكوت لحاله أليق ، وتأمل معي هذا الخبر ، إنه يضع النقاط فوق الحروف بالنسبة لكثير منا ، أوحى الله تعالى إلي نبيه وعبده عيسى عليه السلام ، يا عيسى عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحى منى ، وأنا أخي الحبيب كما ترى ، لا أملك نصاب الوعظ لأعظ ، فقد والله وعظت نفسى فما اتعظت ، ولم استح من الله تعالى حين رحت أعظ الناس وأنا إلى الوعظ فقير ، وإلى النصح محتاج ، ولم أملك يوما نصابه ، فلله الأمر من قبل ومن بعد ، قال صاحبي يحاورني : أفلا تحدثنى عن الدنيا ونحن مقبلون على روضة أهان أهلها الدنيا حين فرغوا منها هممهم ، وطهروا منها قلوبهم ، وألقوها كالمتاع البالي وراء ظهورهم ؟ قلت : فما سر الحديث الآن ؟ قال صاحبي : إن حديثك يهيئ النفس لما هي مقبلة عليه من منازل عامرة ، ورياض ناضرة ، وقلوب طاهرة ، فحدثنى عن الروضة وأهلها لأتعرف على بعض أحوالهم ، وأطلع على شيء من عظيم شئونهم ، فقلت وقد حرك همي للحديث ما زينه من الأدب وشدة حرصه على الطلب : أيها الصاحب الناصح والخل الوفي ، إن الدنيا خداعة ، ضل بزخرفها وزينتها من ضل ، وزل بكيدها ومكرها من زل ، وسقط في وحلها وطينها من سقط ، إنها أيها العزيز رأس الخطيئات ، والإعراض عن متاعها الزائل أم الطاعات ، وأصل القربات ، وأساس المنجيات ، وقد تقلبت نفوسنا على فراش الأماني ، وتمرغت على بساط الشهوات ، ورضعت حتى

الشمالة من رحيق الوهم الزائل والأمل الكاذب ، ولم نعد ندرك أن الأيام إلى ارتحال ، والدهر كله إلى زوال ، والقلب لا يشبع والنفس لا تقنع ، والشيطان لا يفتأ يزين ويوسوس ، والدواء من كل ذلك واحد لا بديل له ولا غنى عنه ، قال صاحبي وقد ازداد حرصه ولج في طلبه : أدركني به ، بل أغثني فقد أوشكت السفينة على الغرق ، قلت : إنه الزهد ، ولا شيء غيره ، شعار الصالحين ، وزينة المؤمنين ، تاج المقربين ، يعبر بهم اللجة ، ويقطع به المفازة ، ويصل بهم إلى مرفأ الأمن والسلامة ، فترتاح القلوب من تعب ، وتسكن الأرواح من قلق ، وتهدأ النفوس من حيرة ، وهنا أشار إلى صاحبي بيده إشارة من وجد شيئا فقده ، أو حقق هدفا طلبه ثم قال : ها قد وصلنا.

علي الباب

نظرت فإذا على الباب بخط واضح ، يقرؤه كل من رآه ، لا يدخل هذه الروضة إلا ذو قلب سليم ، نقي تقى ، خلع لباس الدنيا ومال عنها ، ولبس ثياب الآخرة وأقبل عليها ، فقلت لنفسي أخاطبها : هذا والله حق لا حرج فيه ، وصواب لا غبار عليه ، فهي روضة الزهد . لا يصلح لها ، ولا يليق بها من حرص على موجود ، أو أسف على مفقود ، أو خدع بكلمة مدح أو ثناء ، ولهذا وقفنا بالباب طويلا ، وخضعت قلوبنا لأجهزة حديثة ، للنظر فيها والكشف عليها ، على طريقة إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى حيث قال : قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح ، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب والعجب يحبط العمل[1] .

خضعنا أخي الحبيب لتفتيش طويل ودقيق ، وقد علمنا أنه لا يدخل الروضة من اجتمعت هذه الثلاثة في قلبه ، وقد جمعتها أمامي ، ونظرت فيها ، فإذا هي من وحي القرآن جاءت ، ومن عبير نصحه خرجت ، واقرأ معي قول ربك عز وجل ﴿ لِّكَيْلَا

---

(1) الإحياء . جـ4 صـ 346 .

تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ﴾ [الحديد:23] .

فالحجاب الأول أخي الحبيب : الفرح بالموجود ويقابله قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ ﴾ .

والحجاب الثاني أخي الحبيب : الحزن على المفقود يقابله قوله تعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾

والحجاب الثالث أخي الحبيب : السرور بالمدح يقابله قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ﴾ .

إن أقل ما يطلب من أهل هذه الروضة وسكانها : ترك الفرح بالموجود ، وطرح الأسى على المفقود وعدم السرور بالمدح ، والمسلم كان كذلك ، فإنه لا شك يواجه الأحداث خيرها وشرها برباطة جأش ، وسكينة نفس ، فلا يجزع عند الضراء جزعاً تطير معه نفسه شعاعا ،ولا يفرح عند السراء فرحا يفقد معه الاتزان والثبات اللائق بالمؤمن ، أما السرور بالمدح فإنه يسوق لا محالة إلى الفخر والعجب ، والعجب يحبط العمل ويبطل السعي ، ويذهب بالأجر ، قال صاحبي وبدا عليه التأثر : اختصر لي الأمر في كلمات يسهل حفظها واستحضارها ، قلت : أبشر ، إن الذي يحجب اليقين **عن القلب ثلاثة أشياء** :

أ – الفرح بالموجود.   ب – الحزن على المفقود .   جـ – السرور بالمدح .

فأين نحن منها ؟ فنظر إلى صدره ونظرت ، ووضع يده على قلبه ووضعت ، ثم ... فتح الباب فدخلنا .

الزهد في كلمتين

لم تكد أقدامنا تطأ أرض الروضة حتى فاجأنا أمير المؤمنين وسراج المتقين ، علي بن أبي طالب ﷺ بجملة عبقرية جمعت الزهد من أطرافه وسأتركه يحدثك بما جاء عنه في نهج البلاغة ، لتأخذ عنه وتنقل منه دون واسطة ، فيتم النفع وتعم الفائدة ، فحروفه حية وكلماته مشرقة والسر أخي الحبيب في إخلاصه الذي يحمل المعاني إلى النفوس حملا ، ويؤثر في القلوب تأثيرا لا يخفى يقول ﷺ : الزهد

كله بين كلمتين من القرآن : قال سبحانه ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد:23]ومن لم ييأس – أي يحزن – على الماضي ، ولم يفرح بالآتي ، فقد أخذ الزهد بطرفيه(1) . قال صاحبي يحاورني : كأنه كان معنا على الباب قبل أن نلج ، إنها نفس الآية التى كنا نتجاذب حولها أطراف الحديث ، فقلت : إنها أخي الحبيب آية لا تفنى عجائبها ، ولا تنفد غرائبها ، ولو طهرت قلوبنا ما شبعت منها ، ولو تفتحت لها عقولنا لحارت ودهشت لما تحويه من دقائق ورقائق ، وهل أبقت هذه الآية أي معنى للخير لم تشر له أو تهدى إليه ؟ وهذا ما فقهه الإمام ﷺ ، فأراد ألا نلج الروضة قبل أن يلقننا هذا المعنى الذي يضرب الناس إليه أكباد الإبل شهورا ، ويشدون الرحال في طلبه دهوراً ، فكم أنت حكيم وعظيم يا أبا الحسن ، رعى الله دينا علمك ، ونبيا بوحي السماء هداك وأدبك.

وللزهد أقسام

نظر صاحبي إلى شجرة شكلها يسر الناظر ، ويبهج الخاطر ، ويسعد القلب ، لها أربعة فروع ، فقال : ما هذه ؟ قلت : شجرة الزهد ، وتلك الفروع الأربعة أقسامه ، قال : زدني وضوحا ، قلت : أبشر أخي بما يسرك ، وينفعك في دنيا ولا يضرك ، فقد كفاك الإمام ابن القيم رحمه الله هم السؤال وكفاني مؤنة الجواب حين قسم الزهد إلى أربعة أقسام وإليك **أيها الحبيب هذا البيان:**

الأول الزهد في الحرام

هذا أول أقسام الزهد وأعلاها ، وهو زهد فرض ، يلزم كل مسلم أقر لله تعالى بالعبودية ، ولشريعته بالحاكمية ، ولقد كان الموت أحب إلى الصالحين من أن يخوضوا فيما حرم الله تعالى ، حتى يطلب أحدهم الموت عند الفتنة ، ويسأل الآخر ربه أن يذهب ببصره ، إذا خشي زيغ البصر أو طغيانه بالنظر إلى ما حرم الله تعالى ، ولا تعجب أخي فهم القوم ليس لهم مثيل ، والرواحل التى

(1) نقلا عن : رسالة المسترشدين صـ 161 . تحقيق الشيخ أبي غدة .

تهدى الأجيال جيلا بعد جيل ، والقناديل التى تضيء في ظلمات البر والبحر ، يقول مالك بن أنس رحمه الله : كان يونس بن يوسف من العباد ، فأقبل ذات يوم وهو رائح من المسجد ، فلقيته امرأة ، فوقع في نفسه منها فقال : اللهم إنك جعلت لي بصري نعمة ، وقد خشيت أن يكون على نقمة ، فاقبضه إليك ، قال : فعمى ، وكان يقوده ابن أخ له ، فإذا استقبل به الاسطوانة ، انشغل الصبي يلعب مع الصبيان ، فإن بدت له حاجة حصبه فأقبل إليه ، فبينما هو ذات ضحوة في المسجد إذ أحس في بطنه بشيء ، فحصب الصبي ، فشغل الصبي مع الصبيان ، حتى خاف الشيخ على نفسه ، فقال : اللهم إنك كنت جعلت لي بصري نعمة ، وخشيت أن يكون نقمة ، فسألتك فقبضته إليك ، وقد خشيت الفضيحة ، فرده إلى ، فانصرف إلى منزله صحيحا يمشى ، قال مالك : فرأيته أعمى ورأيته صحيحاً [1]، يا الله ! إلى هذا المدى كانت السماء تستقبل دعاءهم فتتنزل الإجابة من فورهم ، وكيف لا ، وقد كف القوم عن الحرام جوارحهم وفطموا النفوس عن كل ما يغضب الله فكانت إجابة السماء أقرب لأحدهم من شراك نعله.

الثاني الزهد في الشبهات

وهناك أمور أيها الحبيب يختلط فيها الحلال بالحرام ، ويحار المرء أمامها : إلى أي القسمين تنتمي ؟ فاعلم أيها الحبيب أنه كلما قويت الشبهة في شيء كان الزهد فيه إلى الواجب أقرب ، وكلما ضعفت الشبهة في الشيء كان الزهد فيه إلى الاستحباب أقرب ، وفي الحديث الذي أحفظه وتحفظه ويحفظه القاصي والداني يقول المصطفى ﷺ : **" فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه "** [2]

وقد فسر رباني هذه الأمة ، وإمامها في الصبر واليقين ، الإمام أحمد الشبهة بأنها : منزلة بين الحلال والحرام ، وفسرها مرة أخرى بأنها : اختلاط الحلال بالحرام[3]. وقد رويت في هذا الباب عن الصالحين عجائب تقشعر لها الأبدان ، وتضطرب لها القلوب ، وتحار

---

(1) ذم الهوى . صـ 114 . ابن الجوزي.

(2) متفق عليه .

(3) جامع العلوم والحكم . صـ 79 .

لها العقول ، فقد كان علي بن الفضيل إماما في اتقاء الشبهة ، ونموذجا يحتذي في ترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن يقع الحرام ، يقول أبوه الإمام الرباني الفضيل بن عياض عنه : كانت لنا شاة بالكوفة أكلت شيئا يسيرا من علف أمير ، فما شرب لها لبنا بعد [1] ، وقبل أن يرتد إليك طرفك ، هذا أخ له على الطريق ، ورفيق له في الدرب يكمل الصورة ويزيدها بهاء وتألقا ، إنه الإمام كهمس الذي قال عنه الإمام الذهبي : من كبار الثقات ، وذكره الإمام أحمد مرة فقال : ثقة وزيادة ، أما خبره أخي فقد سقط منه دينار ، ففتش حتى لقيه ، فلم يأخذه ، وقال : لعله غيره [2] ، يا الله ! إنها آفاق عليا ، وسماوات علا ، ومقامات لا يطار إليها على أجنحة ولا تسعى إليها الأقدام ، إنما فقط تطالها قلوب هؤلاء الصالحين ، فسدد أخي وقارب ، وإذا اختلط عليك أمر فدعه ، فإنه أبرأ لدينك وعرضك ، وأيسر عليك في الحساب يوم العرض على الملك الوهاب.

الثالث الزهد في الفضول

وأريد بالفضول أخي ، فضول كل شيء ، النظر ، الكلام ، والطعام والشراب ، فضول الخلطة مع الناس وغير ذلك مما يزيد عن حاجة الإنسان في كل أمر ، وتلك والله منزلة ليست بالهينة ، ومطلب ليس باليسير ، ومن ثم لا يدركه كثير من الناس فهو زهد خواص الناس ، يحتاج إلى جهد كبير ، وجهاد شاق ، وكف للجوارح وفطام لها عما يزيد عن حاجتها ، ويشرح هذا ويوضحه قول حبيبك ﷺ : من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه [3] . فهو عام في ترك كل ما زاد عنك وعن حاجتك من الكلام والنظر والاستماع والبطن والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنه ، وسيرة القوم في هذا الباب مضيئة ، وأخبارهم مثيرة ، وآثارهم مشرقة ، يقول داود الطائي : كانوا – بعض السلف – يكرهون فضول النظر ، وكان في دار الإمام مجاهد علية قد بنيت ، فبقى ثلاثين سنة لا يشعر بها [4] ،

---

(1) سير أعلام النبلاء . جـ8 صـ 446 .

(2) نفسه : جـ 6 صـ 317

(3) رواه الترمذي وابن ماجة .

(4) التبصرة . جـ 1 صـ 161 . ابن الجوزي.

سبحان الله ! مكان استحدث في بيته ، فبقي لا يقيم إليه بصره ثلاثين سنة ولم يشعر به ، إن إقبالهم على الآخرة شغلهم عن النظر إلى الدنيا وزخرفها ، وصدق توجههم إلى مولاهم ، حول أبصارهم وبصائرهم إليه ، فما كانوا يهتمون بما وراء ذلك ، ولم يكن الأمر أيها الحبيب يتعلق بفضول النظر فقط بل بكل ما فيه فضول حتى وضع ابن عمر أصبعه في أذنيه عندما سمع زمارة راع ، ومال عن الطريق ، ثم قال : يا نافع ، أتسمع ؟ فقال : لا فأخرج أصبعيه من أذنيه وعدل إلى الطريق ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يصنع .[1]

الرابع
الزهد فيما سوي الله تعالي

وهي منزلة العارفين أخي الحبيب،أشرقت قلوبهم بأنوار اليقين،واتسعت صدورهم بأريحية الإيمان ، وحلقت نفوسهم بأجنحة من الزهد والورع فغابوا عما سوى الله عز وجل ، فلا يبصرون إلا بالله ، ولا يتكلمون إلا لله ، ولا يسمعون إلا لله ، ولا يفكرون فيما غير الله ، فهم يعيشون لله وبالله ومع الله ، وهذا الصنف أخي عزيز نادر ، بل مفقود في زماننا غير موجود ، قل أن تقع عين عليه ، أو تهتدي قدم إليه ، إن قلوبهم صفر من كل شيء ، خراب بلقع من الدنيا وزينتها ، عامرة بالله وحده ، وتأمل حال هذه الأسرة المباركة ، وعش معها قليلا ، فتتضح لك الأمور ، وترى كيف كان يعيش القوم ، وكيف كانوا يفكرون ، وما هو السر في ترقيهم في درجات الإيمان ومقامات الإحسان حتى أدركوا قمتها ،ووقفوا فوقها يصلحون الناس ويرشدون الدنيا إلى أمثل الطرق في التعامل مع النفس ومواجهة الدنيا وزخرفها والجهاد مع الشيطان ، فتأمل : دخل الفضيل مرة على ابنته يعودها ، وكانت تعاني من وجع في كفها ، فقال لها : يا بنية ، كيف حال كفك هذه ؟ فقالت : يا أبت قد بسط الله من ثوابها ما لا أؤدي شكره عليه أبدا ، فتعجب من حسن يقينها ، قال : فأنا عندها قاعد إذ أتاني ابن لي عنده ثلاث سنين ، فقبلته وضممته إلى صدري فقالت لي : يا أبت سألتك بالله ، أتحبه ؟ فقلت : أي بنية

(1) أخرجه الإمام أحمد وصححه الشيخ أحمد شاكر.

والله إني لأحبه ، فقالت : وسوأتاه لك من الله يا أبتاه ... إني ظننت أنك لا تحب مع الله غير الله ، فقلت لها : أي بنية ، أفلا تحبون الأولاد ؟ فقالت المحبة للخالق ، والرحمة للأولاد ، فلطم الفضيل رأسه وقال : يا رب هذه ابنتي هيمتنى في حبها وحب أخيها ، وعزتك لا أحببت معك أحدا حتى ألقاك .

أخي الحبيب : أمسك عليك عقلك ، وللم بقايا فكرك ، واسأل نفسك : إذا كان هذا حال الأولاد فكيف بالآباء الربانيين الذين علموا وأدبوا ؟ أخي الحبيب ، لما تعلق قلب إبراهيم بولده أمره ربه أن يذبحه ، فلما أسلم قلبه لخالقه ، وطرح منه حب المخلوق ، تم الفداء ونزل الذبح العظيم ، فكأنه قيل : يا إبراهيم ، لما رددت إلينا قلبك، رددنا إليك ولدك ، وتذكر دائما أيها الحبيب أن مولاك يغار على قلبك كغيرتك على من تحب بل أشد ، واسمع هذا النداء الأعلى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، ثم ..... ثم فتش في قلبك ، واصنع بعدها ما يلزم ، واغرس اليوم فيه ما يسر ، حتى لا تجد يوم العرض ما يضر .

هذا هو الطريق

يبدو أن للفضيل رحمه الله تعالى في كل روضة مكانا ، وفي كل منزلة ميدان يعرف باسمه ويشار إليه ، فنحن لا ندخل روضة ولا ننزل منزلا إلا وجدنا له فيها أثرا ، إما طريقا عبده أو بيتا بجهده بناه ، أو شجرة بيده غرسها ، يسكن تحتها السالكون ليمسحوا آلامهم ، ويأوي إليها المتعبون ليداوي جراحهم ، ويقصدها الغرباء ليبحثوا عن هوائها العليل وظلها الوارف ، فرحم الله الفضيل ، لقد وجدناه أمامنا على غير توقع منا ، يهدينا الطريق ، ويرشدنا إليه ، فكان مما قال : جعل الشر كله في بيت واحد ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت واحد ، وجعل مفتاحه : الزهد في الدنيا[1] ، لله درك يا فضيل ، صمت عن اللغو ، فنطقت بالحكمة ، ووقفت جوارحك عند حدود مولاك لم تتخطاها ، رغبا ورهبا ، فجري الحق على لسانك وقلبك ، إن قول أخيك الفضيل هذا ، من أجمع ما قيل في

---

(1) تنبيه الغافلين . صـ 166 . السمرقندي .

الزهد وأحسنه ، فلو اجتمع الشر كله في بيت وأغلق عليه ، وراح الناس يحاولون الدخول عليه والوصول إليه فلن يجدوا سوى مفتاح واحد هو : حب الدنيا ، وفي المقابل لو جعل الخير كله في بيت واحد ، وتحت سقف واحد وأغلق عليه ، وراح الناس يطلبونه ويحاولون الدخول إليه ، فلن يجدوا إليه سبيلاً ، سوى مفتاح واحد هو : الزهد في الدنيا ، لا تعجب أخي ، فنحن في روضة العجائب ، فمن ذا يقترب منها ؟ ومن يدنو من أسوارها ؟ ومن يقدر على مهرها ؟ إنها روضة الصفوة ، وملتقى النخبة ، وخلاصة الربانيين ، كالفضيل وإخوان الفضيل ، الذي أبي أن يتركنا نغادر بستانه ونفارق ميدانه ، دون أن يتحفنا بأخرى ، فإذا صوته الندى ، ونداؤه العذب الشجي يأتينا قائلا : طالت فكرتي في هذه الآية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾[الكهف:7،8] وإنها والله لتستحق الوقوف ، وما هو أكثر من الوقوف ، وتستحق التأمل ، وما هو فوق التأمل ، وهل أطلت التأمل فيها كما فعل أخوك الفضيل ؟ إن تكن فعلت فأنت على الدرب تسير ، وعلى نفس الخطى تمضى ، فسدد وقارب ، وإن لم تكن فعلت فدعني أقول لي ولك ولأمثالنا من القاعدين : لقد سبقنا القوم ولا طاقة لنا على اللحاق بهم ، ولا قدرة لنا على نزول منازلهم ، حتى نفعل ما فعلوا ، إن الآية التي طالت فكرة الفضيل فيها ، تلخص قصة الحياة ، وتبرز الغاية منها ، والنهاية المحتومة لها ، وأعد معي أيها الحبيب قراءة الآية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الكهف: 7] فقد جعل الله تعالى ما على الأرض من زخرف ومتاع وزينة ، جعله اختبارا وابتلاء ، ليجزى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته جزاء وفاقا ، وربك أخي الحبيب يعلم ، ولكنه لا يريد أن يحاسب الناس على مجرد علمه بهم ، بل بما يصدر عنهم من إيمان وكفران ، وشكر وجحود ،﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾[الكهف:8]ثم تكون النهاية المحتومة تعود الأرض صفرا من زخرفها ، خرابا من زينتها ، ويصير عاليها سافلها ، وتنتهى قصتها لتبدأ قصة أخرى ، وتلك هي الحكاية التى استوقفت الفضيل ، وطالت فيها فكرته وإنها لجديرة بالوقوف وبطول التأمل ، فرحم الله المرشد الناصح ،

والمعلم النابه، إمام الربانيين وقدوة الصالحين الفضيل بن عياض.

وهذه هي الحقيقة

لم يفضح الدنيا أخي ويكشف زيفها، مثل القرآن الكريم، وكيف لا وهو كلام الذي خلقها ويعلم حقيقتها ؟ ولهذا حذر منها، وأنذر أهلها، وأوصى بعدم التعلق بها، والاستسلام لفتنتها، وحسبك في بيان قيمة الدنيا وحقيقة متاعها هذه الآية فاقرأ أخي وتدبر : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد:20] ﴿ مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ هذه حقيقتها أخي حين توزن بميزان الحق، وتوضع في المكان اللائق بها، وسأترك **سيدا** رحمه الله يشرح لك فأنصت، ويهتف بك فأقبل يقول :

(الحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي، وتوزن بموازينها، تبدو في العين وفي الحس أمرا عظيما هائلا، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة ستبدو شيئا زهيدا تافها، وهي هنا في هذا التصور تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة، من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعب الحياة، لعب ولهو وزينة، وتفاخر وتكاثر، هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شامل)[1]

وأنت أخي الحبيب كيف تنظر إلى الدنيا ؟

وكيف ترى متاعها وغرورها ؟

وما هو الميزان الذي تزن به ما فيها من لعب ولهو وزينة ؟

أظن أنه قد آن لنا اليوم وليس غدا أن نقود معا حملة واسعة النطاق لنكشف من خلالها حقيقة الدنيا ونفضح بها الزيف والغرور والدجل الذي تصطاد به أهلها وترمي بها شباكها، تماما كما فعل القرآن، ولن نستطيع ذلك إلا إذا وضعناها وجها لوجه في مقابلة لن تكون متكافئة بينها وبين الآخرة.

---

(1) الظلال جـ 6. صـ 3491 .

الدنيا وضرتها

نعم أخي إذا أردت أن تعرف قيمة الدنيا وتفضح زيفها ، فضعها أمام الباقية وجها لوجه ، تتضح الصورة وينقشع الضباب ، ويزول كل وهم ، هكذا فعل ربك أخي لتتأمل وتقارن ثم تختار ، إلى أي جهة يميل قلبك ؟ وإلى أي الدارين تشتاق نفسك ؟ وهل أنت من أبناء الدنيا أم من أبناء الآخرة ؟ وتدبر هذه الآية ، يقول الله عز وجل : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:16،17] ، فقابل أخي العاجلة والآجلة ، وقارن بين الفانية والباقية ، ثم سل نفسك : أيليق بعاقل مثلك أن يقع في هذا الفخ الذي تضعه الساحرة ، والشرك الذي تنصبه الغدارة ؟ يقول سيد رحمه الله : (**إن إيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى ، فمن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى ، لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثرونها ، وهم يريدون الدنيا ويؤثرونها ، وتسميتها " الدنيا " لا تجئ مصادفة فهي الواطية الهابطة ، إلى جانب أنها الدانية : العاجلة ، .** ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:17]... **خير في نوعها ، وأبقى في أمدها ، في ظل هذه الحقيقة يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير ، لا يقدم عليهما عاقل بصير**)[1] ، إنه بيان حق وقول فصل ، كله جد ولا يشوبه هزل ، فعالج نفسك أخي لتشفى من التعلق بزائل ، لا يعرف حقيقته إلا من فر من شباكه ، ونظر إليه من عل ، ثم راح يشرح ما رآه ، فأخبر أنه لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة ، هكذا تكلم روح الله وكلمته ، هكذا تكلم عيسى بن مريم عليه السلام ، فقال في بيان واضح وتوجيه مشفق ناصح : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب المؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد [2] ، هذا كلام العارفين أخي : إن الإناء واحد ، وهو القلب ، والقلب لا يسع إلا حبا واحدا ، إما الرحمن وإما الشيطان ، إما الدنيا وإما الآخرة ، ضرتان لا تلتقيان ، فاحذر أن تأخذ من الأولى سوى ما تقطف ثمرته في الآخرة ، وتحمد يوم اللقاء عاقبته.

---

(1) نفسه . ج6 . صـ 3894 .

(2) مكاشفة القلوب . صـ 122 . الغزالي .

أخرجها من قلبك

نحن في روضة الزهد أخي ، وأنت ما دخلت معنا إلا بعد طول تفتيش في النفس ، وبحث في زوايا القلب ، فلما اتضح أن القلب سليم ، وأن النفس مستسلمة ، وأن الجوارح قد رفعت أعلامها البيضاء ، ودخلت في السلم كافة ، فتحت لك الأبواب ، وأكرمك أهل الروضة فلم يدع أحدهم وسيلة إلا ذكرها ، ولا دواء إلا وصفه ، ليسلم قلبك وتستريح نفسك من شقاء العاجلة وتعبها ، فتعال معى نسمع ما قالوا، ونرى ما وصفوا.

وصف حسن من أبي الحسن

رحنا نطلب واحدا من أهل الروضة ، يحدثنا عن الدنيا ، وعن خداعها لأهلها ، وعن مكرها بهم ، فلم نجد أعظم فهم لها ، وأكثر يقينا بحقيقتها من قوم صحبوا سيد الخلق ﷺ فرباهم وأدبهم ، وجعل الآخرة همهم ومبلغ علمهم ، وعلق بالباقية قلوبهم ، ففروا سالمين من شباك الدنيا ، وحلقوا ناجين من شراك الشهوات ، فهذا أبو الحسن أمير المؤمنين على رضي الله عنه ، كل سيرته ومسيرته تشير إلى رجل أهان الدنيا ، رجل وقف بقدميه فوق متاعها يرنو بقلبه إلى الآخرة ، وببصره إلى جنة عرضها السموات والأرض ، كل سلوكه كان في هذا الاتجاه ، وروا عنه من المواقف ما يثير الدهشة ويدعو إلى الإعجاب ، فقد خرج يوما إلى السوق وهو خليفة ينادى في الناس قائلا : من يشترى منى ثوبي هذا ؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشترى بها إزارا ما بعته ، سبحان من خلق هذا الرجل وسواه وألهمه خشيته وتقواه ، وأعطاه القدرة على مواجهة الفقر والصبر عليه ، والدنيا بقبضته ، ومال الأمة كله ملك يمينه ، سبحانك يا رب ، اللهم أعطنا ما أعطيت هذا الرجل وإخوانه من الربانيين ، يقينا يخالط قلوبنا ، وصبرا يملأ نفوسنا ، ويقوى عزائمنا ، حتى نفعل كما فعلوا ، ونعلوا براية الحق ، نرفعها ونرتفع بها ، نحميها ونحتمي بها ، والآن هيا أيها الحبيب ، أعد قراءة الموقف السابق ، ثم قارن حال هذا الرباني بحال ناس يرتعون في الدنيا كالوحوش في البرية ، يلغون في أموال الناس ، ويسمنون من حقوق الرعية ، لا يرجون ثوابا ، ولا يخافون عقابا ، نعم أخي أعد القراءة ،

وما عليك بعدها سوى أن تشكو إلى رب العباد ظلم العبيد إنه فعال لما يريد .

عودة إلى أبي الحسن

وأعود بك أخي إلى ما هو خير ، إلى سيرة أبي الحسن ، لتسمع وتستمتع ، وتشاهد وتتعلم ، فقد رآه بعضهم ذات يوم ، وقد ركب حماره ، وولى رجليه إلى ناحية واحدة ، ثم جعل يقول : أنا الذي أهنت الدنيا ، اسمع أخي وتأمل ، ونحن نقول لأبي الحسن : نعم ، أنت يا سيدي أهنت الدنيا ، وعرفتها قيمتها ، وفضحت على الملأ حقيقتها ، وأظهرت للناس كل الناس قدرها ، فرفع الله لك يا سيدي قدرك ، وأعلى بين العالمين ذكرك ، ألم يقل فيك رسولك وحبيبك وابن عمك صلوات ربي عليه وسلامه : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي[1] ؟.

على هذا أخي الحبيب سأله رجل يوما فقال : يا أمير المؤمنين صف لي الدنيا فقال : وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، في حلالها الحساب ، وفي حرامها العقاب ، وفي متشابهها العتاب[2] .

لقد لخص لنا أمير المؤمنين الدنيا وزينتها وزخرفها في كلمات ، فصحيحها يمرض ، والمرض ينغص العيش ويذهب بريقه ، ومن أمن مكرها وتقلبها بأهلها وسرعة تحولها ندم ، والندم لا يجدي ولا ينفع ، ولا يعود على صاحبه إلا بعض الشفتين وقضم الأصابع ، وفقيرها أخي الحبيب يحزن وتلك حقيقة ، فالفقر يكسر النفس ويجلب الهم ، ويضعف الهمة ، فالفقر والهم قرينان ، فمن افتقر حزن ، وغنيها لا يسلم ، فهو لا شك مفتون بماله مغرور بملكه ، والفتنة شر كلها ، وفي حلالها يكون السؤال والحساب ، وويل ثم ويل لمن أخطأ الجواب ، فإذا كان هذا شأن الحلال فما بالك أخي بالحرام ؟ إنه والله أجدر بالعقاب وأولى بضرب الرؤوس والرقاب ، بمقامع من حديد وشراب من حميم وغساق وصديد ، يصهر الجلود ويشوي الوجوه والسبب أخي هو الحرام ، أما

---

(1) الحديث صحيح أخرجه الترمذي وابن ماجه .

(2) مكاشفة القلوب . صـ 129 .

المتشابه الذي اختلط فيه الحلال بالحرام ، ففيه العتاب ، وهل لبشر صبر على العتاب من رب الأرباب؟ إن المرء منا يذوب حياء وخجلاً إذا ما عاتبه بشر ، فما بالنا بعتاب رب البشر ؟ وقد خلق فسوى وقدر فهدى ، وأخرج المرعى ، وأجرى السحاب وأنزل الماء وأخرج الزروع والثمار ليطعم الناس كل الناس المؤمن والكافر ، والجاحد والشاكر ، فهل لأحد صبر على عتابه ؟.

عمر قصير

لقد أيقن أهل هذه الروضة يقينا لا يخالطه شك ، ولا تشوبه شائبة ، أن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة ، ومهما عظمت فهي حقيرة ، فلم يخدعهم العيش ، ولم يغررهم الأمل ، وأنا ألتمس منك أخي ، بل استحلفك ، مهما كان عمرك صغيرا كنت أم كبيرا ، شيخا كنت أم شابا ، أن تنظر خلفك ، وأن ترد الطرف إلى ما انقضي من سني حياتك ، ثم تنظر أين ذهبت ، وكيف ولى الشباب بزهرته وبريقه وأقبلت الشيخوخة بذبولها وضعفها ؟ وكيف انقلبت القوة ضعفا والحكمة اضطرابا وخرفا ؟ يا الله ! هذه هي الدنيا وتلك هي حقيقتها ، وقد صورها خالقها فأحسن التصوير عندما قال سبحانه : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:45] هذه أخي قصة الحياة ، بل قصة الخلق ، ماء نزل من السماء واختلط به نبات الأرض ، ثم ... أصبح هشيما تذروه الرياح وانتهى الأمر ، حلم وسنان أو سحابة صيف ، ويا الله ما أسرعها ؟ ولهذا نجد إحساس الناس بالوقت غريبا عند البعث فإذا سئلوا : ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ [المؤمنون:112] يكون جوابهم : ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [المؤمنون:113] وكذلك الدنيا والله كأنها يوم أو بعضه ، هكذا رآها أهل روضتنا فتعاملوا معها بمنظور واضح ، وهو أنه لا خير فيها إلا ما كان بلاغا للآخرة ، وعونا على قطع الطريق وعبور المفازة وبلوغ الأرب ، وهذا هو هم الصالحين وشغلهم ، ومن طريف الأخبار هنا : أن جبريل عليه السلام سأل نوحا عليه السلام قال : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كدار لها بابان ، دخلت من

أحدهما وخرجت من الآخر[1] . سبحان الله ، يقول هذا وهو أطول الأنبياء عمراً ، فكيف بي وبك ؟ أخي الحبيب إن الأمر جد ، وهو أسرع مما تتصور ، فإياك أن تنسى ، أن يغرك الأمل ، فالنهاية قريبة ، والأجل قادم وهو أقرب لأحدنا من شراك نعله ، ولكن المشكلة أن بريق الدنيا يسبى العقول ، وزخرفها يأسر القلوب ويدع الحليم حيران ، إنها السحر أخي فاحذرها ، واستمع إلى أحد النزلاء الكبار في روضة العظماء ، ممن أهانوا الدنيا ، ووضعوها في مكانها اللائق بها ، فاستمع إليه وهو ينادى عليك ويهتف بك : اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء - يعنى الدنيا – فإذا كان هذا حالها مع العلماء ، فكيف حالها معى ومعك ؟ تعالى أخي نقول لها بلسان فصيح ، وننادي عليها : أيتها السحارة ، ما جئتي به السحر ، وإن الله سيبطله ، به نستعين وعليه وحده نتوكل.

ومتاع حقير

فإذا اجتمع أخي الحبيب إلى عمرها القصير ، متاعها الحقير ، فقد سقطت من نظر كل عاقل ، وقفزت من قلب كل تقي ، وكيف يتعلق بمتاعها قلب ، ومتاعها زائل ؟ وكيف يركض خلف ظلها ذو لب وظلها حائل ؟ إن غاية العاقل فيها لقمة تسد الجوعة ، وشربة تروى الغلة ، وخرقة تستر العورة ، فمن رزق هذا فقد جمع الدنيا بين يديه ، وما زاد على ذلك فهو إما حلال للحساب وإما حرام للعقاب ، وإما مختلط للوم والعتاب ، وصدق الحبيب المصطفى ﷺ حين جمعها في أجمل تعبير وصورها أروع تصوير فقال : من بات آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، وعنده قوت يومه ، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها " ، إنها نعم ثالث لا يدرك شأوها ، ويعلم خطرها إلا ذو عقل سليم وقلب صحيح : الأمن والصحة والقوت ، فماذا بعدها ؟ وماذا يريد المرء وراءها ؟ إن التطلع إلى ما وراء هذه النعم ، نوع من الأشر والبطر والإخلاد إلى الأرض والركون إلى الدنيا لا يليق بعاقل ، فتعال أخي إلى أمير المؤمنين على مرة أخرى ، يقص عليك من أنبائها ،ويأتيك باليقين من أخبارها ، لترى هذا المتاع

(1) مكاشفة القلوب . صـ 122 .

الذي يتهافت الناس عليه ، ما هو أصله ومن أين مصدره ، يقول جابر بن عبد الله الأنصاري ، خرجت مع على رضي الله عنه إلى خارج المدينة ، فتفكرت في أحوال الدنيا وغرورها وفتنتها لنا ، فقال : يا جابر إن الدنيا أحقر من أن يفتتن بها لبيب ، يا جابر إن لذاتها في **ستة أشياء** :

مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح ومشموم ومسموع :

فأما المأكول : فألين ما يؤكل العسل وهو رجيع ذبابة.

وأما المشروب : فألذ ما يشرب الماء ، وقد تساوى فيه جميع الحيوانات.

وأما الملبوس : فأفخر ما يلبس الحرير ، ومخرجه من دودة.

وأما المنكوح : فمبال في مبال .

وأما المشموم : فأطيبه المسك وهو دم دابة .

وأما المسموع : فألذ ما يسمع الوتر وهو إثم كله.

فيا مهلكا نفسه التى لا قيمة لها في طلب دنيا لا وضع لها ، أما تراها تبيد بأهلها وسكانها (1) .

إنك أخي لو رحت تبحث عن وصف لمتاع الدنيا ووضاعته فلن تجد أوضح من هذا ، ولو رحت تحقر الدنيا لأهلها ، وتزهدهم فيها وترغبهم عنها ، فلن تقع عينك على مثل هذه الموعظة ، إنها تتركك في النهاية حائرا مندهشا ، حين تفتح عينيك على هذه الحقيقة ، التى تزيل عن القلب سكرة الهوى ، وعن العين سنة النوم والغفلة ، وعن النفس آفة الخلود إلى الأرض والركون إلى الدنيا ، فإذا المرء أمام مشهد مضحك ، ومفارقة عجيبة ، هل هذه هي الدنيا التى تعلقت بها وأرهقت نفسي في السعي خلفها ؟

إنها لا تساوي شيئا ، إذا نظر المرء إليها بالبصيرة لا بالبصر ، وبميزان الحقيقة لا بميزان الهوى ، فانتبه أخي واحذر السحارة ، فإنها غدارة ، واستعن عليها بربك ، يكتب لك النجاة ، ويضمن لك السلامة .

---

(1) المواعظ والمجالس . صـ 34 ابن الجوزي.

إسراف هنا وخصم هناك

وهذه أخي الحبيب ثالثة هي أقوى وأشد فانتبه ، إن كل ما تأخذه هنا من هذا النعيم الزائل ، والمتاع الفاني ، سيتم خصمه هناك من رصيدك الباقي في الآخرة ، ولك أن تتأمل حال قوم يأتون يوم القيامة ، وقد استنفذوا طيباتهم في حياتهم ، فيقال لهم بكل وضوح وصراحة : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف:20] ، ويشرح سيد رحمه الله تعالى فيقول : (**فقد كانوا يملكون الطيبات إذن ، ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا ، فلم يدخروا للأخرى منها شيئا ، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حساب ، استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع غير ناظرين فيها للآخرة ، ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام ، ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة ، واشتروا تلك اللحظة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله**) (1) .

إن من شرب الخمر في الدنيا لن يشربها في الآخرة ، فقد ذهب بحظه من الخمر هنا ، وخسر عند المقارنة بين الخمرين ، ومن لبس الحرير من الرجال هنا ، فلن يراه هناك ، فقد ذهب بحظه من اللباس الناعم هنا وخسر عند المقارنة بين اللباسين ، وكل ما أخذه المرء هنا زائدا عن حاجته من حلال أو من حرام ، فهو بالخصم فانتبه ، ودع للآخرة حظا ، فالآخرة خير وأبقى ، ودعنى أذكر نفسي وإياك بحال من هو أكرم على ربه منى ومنك ، بل ومن الناس أجمعين ، إنه حبيبك الأعلى مقاما والأرفع مكانا ، هل تدرى أنه لم يجد ما يملأ به بطنه غير الدقل – رديء التمر – ثلاثة أيام متتالية ؟ يشبع اليوم فيجوع غدا ، ويشبع يومين فيجوع الثالث ، نعم بأبي هو وأمي ، نعم فداه نفسي وكياني ومالي وولدي ، نعم أخي لم تمر عليه ثلاثة أيام شبعها قط ، فاسأل نفسك أنت : هل جعت لله مرة ؟ وما هي أخر مرة جعت فيها ؟ لعلك لا تذكر ، أو لا تكاد تذكر ، أتدري لماذا ؟ لأننا فعلا نعيش في تخمة ، ونتقلب في سعة ، فلا نكاد نجوع أو نشعر بجائع ، ومع هذا

---

(1) الظلال جـ 6 صـ 3264 .

لا نكاد نكف عن الشكوى ، ولا نتوقف عن السخط ، ولا تكاد تلتقط أذنك كلمة شكر لمن خلق ورزق ، وأطعم وسقى ، وستر وآوى ، فاللهم لا تهلكنا بعذابك ، ونجنا قبل ذلك يا أرحم الراحمين.

تحذير خاص

إن الدنيا قد تخدع بعض الناس ، ولكنها لن تخدع كل الناس ، وقد تخدع بعض الناس بعض الوقت ، ولكنها لن تخدعهم كل الوقت ، إذ سرعان ما تظهر الحقائق ، وتتضح الصور ، ويزول الغبن ، فإذا الدنيا عارية من كل زينة ، صفر من كل زخرف ، فارغة من كل معنى ، فيفيق الغافل وينتبه المغرور ، ويستيقظ أصحاب الأوهام ، ولكن أخي الحبيب ، إذا سقط في شراك الدنيا رجل عابر ، فهذا وارد ، بل متوقع ، أما أن يقع في أسرها ، ويسقط في شباكها عالم ، فهذا يحتاج إلى نظر ، إذ العالم الرباني هو الذي يفضح الدنيا ، ولا تفضحه الدنيا ، يفضحها كما فضحها من قبل أبو بكر وعمر كما فضحها عثمان وعلى ، وكما فضحها مالك وأبو حنيفة ، والشافعي وأحمد ، وغيرهم عشرات بل مئات من الربانيين ، نعم أخي ، إن التعلق بالدنيا إذا حدث من عالم تكون المفارقة عجيبة ، والإشكالية عميقة ، وتحتاج إلى وقفة ، بل وقفات ، فليس من يعلم كمن لا يعلم ، وتأمل معي هذا الحوار الذي وقع بين رجلين من رباني هذه الأمة ، مررنا بهما في الروضة ، وأحدهما يسأل والأخر يجيب ، فرعى الله السائل وحفظ المجيب ، سأل مالك بن دينار الحسن البصري فقال : ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا ، فأجاب الحسن ونحن نسمع : موت القلب ، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة ، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ، ويبقى عليه رسمه (1) فيا الله سبحانك ، ما أقسى هذه العقوبة ، وما أشد هذا الجزء ! موت القلب وذهاب بركة العلم ، فماذا يبقى للعالم بعدها ؟

إن للعلماء الربانيين سمتا ليس لغيرهم ، وهو ما يتفردون به ، يبدو في أمور ثلاثة :

أ- حسن الصورة . ب – حسن السيرة. جـ – حسن السريرة .

---

(1) البداية والنهاية . جـ 9 صـ 268 .

فإذا اجتمعت في عالم وسمعت به ، فهو الذي تشد إليه الرحال وتهوى إليه الأفئدة ، وتميل نحوه النفوس ، إنه حقا العالم الذي تضرب إليه أكباد الإبل ، لأنه يعيش لله وبالله ومع الله ، فتولاه الله وكفاه ، ودفع عنه الدنيا وزخرفها ، والشيطان وغوائله ويضع عنه إصره والأغلال ، وهؤلاء أخي كانوا يزينون الوجود ، ويعطرون الدنيا في كل وقت ، لكنهم اليوم قليل لو رحت تطلبهم ، ولا خير في الدنيا إن لم يكن فيها هؤلاء ، ولا معنى للعيش بدونهم ، قال ابن عباس : قال رجل يا رسول الله : من أولياء الله ؟ قال : الذين إذا رؤوا ذكر الله [1] ، والعالم أخي إذا خرجت الدنيا من قلبه وألقاها وراءه ظهريا ، وولى وجهه شطر الآخرة ، وأطلق بصره ناحية الجنة ، وكان من هؤلاء الصنف الذي ما إن تقع عليهم عينك حتى ينطلق لسانك بالتسبيح ، ويخفق قلبك بالتهليل ، وتهتف روحك بالتكبير ، تذكرك رؤيتهم بالله ، فرؤيتهم تنفع ، ومجالسهم ترفع ، والعيش في رحابهم فوز عظيم وفلاح دائم .

إنهم الذين عناهم القائل :

إذا سكن الغدير على صفـاء — وجنب أن يحركه النسيـــــم
بدت فيه السماء بلا امتــراء — كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك وجوه أرباب التجلي — يرى في صفوها الله العظيــم

الربانيون يتكلمون

فإذا ظفرت أخي برجل هذا سمته ، فتمسك به ، فإنه حر ، والحر في الدنيا قليل ، وتذكر أننا في زمن العبيد ، إن الواحد من هؤلاء كان قبلة للناس يقصدونه من كل ناحية ، ويأتون إليه من كل صوب ، ليس لغزير علمه فقط ، وإنما لعظيم هديه ، وحسن سلوكه ، وجمال سمته ، وهذا إبراهيم بن أدهم يضع لنا القاعدة الذهبية التى كان السلف يزنون بها الرجال ، ويمحصون بها الأفراد ، يقول رحمه الله : كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه ، نظروا إلى صلاته وإلى سمته وإلى هيئته ، ثم يأخذون عنه[2] ، وصدق الرجل ، وما أروعها من قاعدة ، فالعالم ليس وعاء للعلم

---

(1) رواه البزار بسند صحيح .
(2) الآداب الشرعية : جـ 2 صـ 149 .

فقط ، وإنما للعلم والعمل وحسن السمت وجمال الهدي ، ولن تنتفع بعلم أحد حتى ينفعك هديه وسمته ، هكذا كانوا يحكمون ، وإلى الأمور ينظرون ، وهل هدي الرجل إلا ثمرة علمه ؟ ثم يأتي ابن الجوزي رحمه الله شمس الهداية ، وواعظ الدنيا ، ليؤكد لك تلك القاعدة ، لترى وتتعلم ، وتزداد يقينا ، يقول رحمه الله : قد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى هديه وسمته ، لا لاقتباس من علمه ، ذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته[1] ، إن الزهد في الدنيا كسا هؤلاء الناس بهاء ، ومنحهم رضا ملأ أقطار نفوسهم ، ورزقهم عند الناس قبولا ، فإذا الأفئدة تهوى إليهم ، والوجوه تقبل عليهم ، وبهذا وحده تفرد القوم وسبقوا وغردوا خارج السرب ، أما حين تدخل الدنيا قلب الرجل فتملأه ، وتطرق نفسه فتستولي عليها ، فلن يبقى عنده من العلم سوى صورته الظاهرة ، أما الهدى الجميل ، والسمت الحسن ، فسوف يحمل عصاه ويرحل ، ليستقر في قلب طلق الدنيا ثلاثا فبانت منه وانصرف عنها.

أخرجها من قلبك تسكنه الحكمة

فإذا أردت أخي أن تسكن الحكمة قلبك ، وأن تأرز إليه كما تأرز الحية إلى جحرها ، فأخرج الدنيا منه حتى تفسح للحكمة مكانا ، وتأمل هذه الحكمة من أحد الربانيين الذين سكنوا روضتنا واستوطنوها منذ أمد بعيد ، يقول يحي بن معاذ الرازي : الحكمة تهوى من السماء فلا تسكن في قلب **فيه أربع خصال** :

الركون إلى الدنيا وهم غد وحسد أخ وحب شرف [2] ، وآه أخي الحبيب من هذه الخصال ، إنها حين تجتمع في قلب ، **فلن تترك للحكمة مكانا** :

1 – الركون إلى الدنيا ، فإن الإنسان إذا ركن إليها وحط رحاله فيها ، وظن أنها النهاية ، وأيقن أنها الغاية ، نبتت بذور الجهل في قلبه وترعرعت ، وتسلقت جدران نفسه من كل جانب ، فكيف ومن أين تأتيه الحكمة عندها ؟

2 – وهم غد ، وهل يترك لهم في القلب مكانا لفكرة نيرة أو خاطرة مشرقة ؟ وهم غد ،

---

(1) صيد الخاطر صـ 216 .

(2) تنبيه الغافلين . صـ 162 .

إنه هم الرزق ، والرزق بيد مالكه ، وهم الأجل والأجل بيد مانحه ، وهم الولد ، والولد قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وهم الزوجة والزوجة مخلوق لله ، فإذا رضي الله عنك ، أمال قلبها إليك وأتتك وهي طائعة ، فما عليك أخي إلا أن تقبل على ربك ، وأن تعيش له يومك ، يكفيك هم غدك .

3- وحسد أخ ، ولم الحسد ؟ والحسد نار حارقة ، وكارثة ماحقة ، تأكل كل أثر للحكمة ، فتدع القلب منها خرابا بلقعا ، وهل يحسد عاقل ؟ إنما يرتكب خطئية الحسد جاهل يعترض على الله تعالى في خلقه ، إن الله سبحانه يعطى ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل ، فإن منعك وأعطى غيرك ، فلا تقتل نفسك حسدا ، ولا تملأ قبلك حسرات ، وسلم له الأمر ، فإنما منعك ليحميك ، ويذهب عنك ما يطغيك ، وما عليك سوى أن تقترب من الرحاب ، وتطرق الأبواب ، وتسعى جاهدا في تحصيل الأسباب ، والتعرض لنفحات الملك الوهاب ، فعما قريب يأتيك الفرج ويطرق الخير بابك فدع الحسد.

4- وحب شرف ، وحرص المرء على الشرف أخطر على المرء من ذئبين انفردا بقطيع ، وحب الشرف أصله من حب الدنيا ، وحب الدنيا مصدره اتباع الهوى ، يقول وهب بن منبه : من اتباع الهوى : الرغبة في الدنيا ، ومن الرغبة في الدنيا : حب المال والشرف ، ومن حب المال والشرف : استحلال المحارم.

وهذا كلام حسن وتفصيل جميل ، فتأمله ففيه خير كثير ، إنه يعتب على صاحب المال والشرف : الرغبة في الدنيا ، وإنما تأتي الرغبة في الدنيا من اتباع الهوى ، لأن اتباع الهوى داع إلى الرغبة في الدنيا وحب المال والشرف فيها ، والتقوى وحدها تمنع من اتباع الهوى ، وترد عن حب الدنيا ، وحسبك في هذا المقام قول ربك عز وجل : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:37،41] ، ولسيد رحمه الله هنا كلام دقيق ورائع سأدعك معه قليلا ، لتعيش في رحابه وتستمع بخواطره ونفحاته ، يقول رحمه الله : (**ونهى النفس عن الهوى ، هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة ، فالهوى هو الدافع**

القوى لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية ، وهو أساس البلوى وينبوع الشر ، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى ، فالجهل سهل علاجه ، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التى تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها.

والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة ، وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى ، ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة ، فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس ، العليم بدائها ، الخبير بدوائها وهو وحده الذي يعلم دوربها ومنحنياتها ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها ، ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى ، فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقته ، ولكنه كلفه أن ينهاها ويكبحها ويمسك بزمامها ، وأن يستعين في هذا بالخوف ، الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب وكتب له بهذا الجهاد الشاق ، الجنة مثابة ومأوى ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:41] ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ، وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسمى ، إن الإنسان إنسان بهذا النهى وبهذا الجهاد وبهذا الارتفاع وليس إنسانا بترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركب في طبيعته ، فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه ، ونهى النفس عنه ، ورفعها عن جاذبيته وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى.

وهنالك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان ، تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس ، والانطلاق من أسر الشهوة ، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنساني ، وهنالك حرية حيوانية هي هزيمة الإنسان أمام هواه ، وعبوديته لشهوته وانفلات الزمام من إرادته ، وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية ، مستعبد يلبس عبوديته رداء زائفا من الحرية.

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى ، تهيأ للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى ، أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهيأ للحياة في درك الجحيم ، حيث تهدر إنسانيته ، ويرتد شيئا توقد به النار التى وقودها الناس – من هذا الصنف – والحجارة).(1)

---

(1) الظلال جـ 6 صـ 3819 .

فكن من العقلاء

لعلك الآن أخي تتفق معي ، أن حب الدنيا والتعلق بها ، هو رأس كل خطيئة ، وأساس كل بلية ، والزهد فيها هو نقطة الانطلاق نحو الجنان ، والركض إلى ما هو خير وأبقى ، فكن من عباد الله ذوي الفطنة الذين طلقوها ثلاثا ، وطردوها بالجملة ، وأقبلوا بقلوبهم على ضرتها ، فهذا أجدر بك وأليق ، لقد قال ربك : ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:17] فصدق وكن من الموقنين ، إن عقل المسلم ودينه لا يكتمل إلا بمعرفة ذلك والإيمان به ، ولكن السؤال هو : كيف الوصول إلى ذلك ودونه من زخرف الدنيا ووساوس الشيطان ورغبة النفس مشقات ومفاوز وعقبات ؟ هذا هو السؤال ، أما جوابه فعند الربانيين الخبر اليقين ، والشرح الوافي لأبعاد الطريق ، لتصل إلى ضيافة القوم سالما ، وتحل بساحتهم آمنا ، وتنزل ديارهم بأمن وسلام ، يقول يحي بن معاذ الرازي : العاقل من عمل ثلاثة أشياء : من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبني قبرا قبل أن يدخل فيه وأرضي خالقه قبل أن يلقاه [1].

وصية يحيى لمن أراد أن يحيا

ويبدو أن ليحي بن معاذ مكانا مرموقا في روضتنا ، فما زالت نفحاته تأتينا من كل جانب ، ونلحق بنا من كل ناحية ، وتلك أخي الحبيب ثلاثة من نفحاته ، تصف الطريق لمن أراد السلوك ، **وتفصل الحدود لمن طلب جنة الخلود** :

الأولى : أن تترك الدنيا قبل أن تتركك ، نعم أخي ، فكن عاقلا ، وامتلك أنت زمام المبادرة ، إن الدنيا تولى مدبرة ، فحول وجهك شطر ضرتها فإنها تأتى مقبلة ، وكن ذا لب وصاحب بصيرة ، فهذا هو الظن بك ، وأخرجها قبل أن تطرحك ، وألقها خلف ظهرك قبل أن تلقيك خلف ظهرها ، فإن لها سطوة ، وبها تسلط ، وعندها رغبة ، وكلها غرور

(1) تنبيه الغافلين . صـ 162 .

وكبرياء ، فحطم أخي غرورها وأهن كبرياءها ، كما فعل مسروق بن عبد الرحمن الكوفي – وغيره – فهل أتاك خبره ؟ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، جاء في حلية الأولياء أن مسروق هذا كان يركب كل جمعة بغلته ، ويحمل أحد أصحابه خلفه ، ثم يأتى كناسة بالحيرة القديمة ، ويصعد عليها ببغلته ، ثم يقول : الدنيا تحتنا.

ما رأيك أخي الحبيب ؟ الحق أقول لك ، إنها واحدة من أبدع اللوحات التى مررنا بها في روضة الزهد ، لوحة لا يرسمها إلا هؤلاء ، بريشة اليقين وقلم الإيمان ، وحبر الإخلاص ، وروح الفنان المقبل بجمعيته على الرحمن ، ولكن انتظر، إنها لم تكتمل بعد ، فلا زالت لها بقية ، وإليك التفصيل : يقول عبد الله بن عتبة : بلغنى أن مسروقا أخذ بيد ابن أخ له ، فارتقى به كناسة بالكوفة وقال : ألا أريك الدنيا ؟ هذه هي الدنيا ، أكلوها فأفنوها ، لبسوها فأبلوها ، وركبوها فأضنوها ، سفكوا فيها دماءهم واستحلوا فيها محارمهم وقطعوا فيها أرحامهم[1] ، فماذا تنتظر أخي ؟ فقد سبقنا والله القوم ، أما نحن ، فلا زلنا في الطريق نصارع الدنيا ، فنصرعها مرة وتصرعنا مرات فقم بنا نفك قيودنا ، ونحطم أغلالنا ، ونفر إلى الله في عزمة ، تزيل عن القلب غبش الدنيا ، وعن النفس غبار الشهوة ، وعن الروح إصرها والأغلال التى رانت عليها.

الثانية : أما الثانية أخي في قول العبد الصالح يحي : وبنى قبرا قبل أن يدخل فيه : فهل تفعل ؟ إننا لن نواجه الدنيا بسلاح أشد عليها ولا أفتك بها من : ذكر الموت ، وأعظم ما في الموت هولا أخي هو القبر ، فهل أتاك خبره وخبر ظلمته ، وخبر وحشته ، وخبر شدته ؟ وهل أتاك نبأ إخوانك الذين نقلوا من أضواء القصور إلى ظلمة القبور ، ومن أنوار المهد إلى ظلام اللحد ، ومن مؤانسة الأهل والولدان إلى مراتع الهوام والديدان ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ في الثرى والتراب ؟ أخي الحبيب بالله عليك ، اسمع هذا الخبر ، وأسلم قلبك

---

(1) حلية الأولياء جـ2 صـ96 .

للفكرة ، وعينك للعبرة ، فقد والله بكيت حين وقعت عليه عيني ، يقول البراء : كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى وأبكى حتى بل الثرى ، ثم قال : يا إخواني ، لمثل هذا فأعدوا[1] . نعم أخي لقد بكيت لهذا المشهد ، **لا لسبب واحد بل لأسباب ثلاثة** :

أولها : بكاء حبيبي ﷺ ، فتصوره وهو يبكى ، وتأمل قول البراء : حتى بل الثرى ، بأبي هو وأمي ، ما أغلى دمعته ، وأثمن عبرته.

ثانيها : قسوة قلبى وجمود عينى ، حيث وقفت هذا الموقف مرات ، وشهدت بدل الجنازة جنازات ، فلا خفق قلبي ولا أسعفت عيني ، والسبب لا يخفى ، فإلى الله المشتكي.

ثالثها : قوله ﷺ لمثل هذا فأعدوا ، لقد نظرت فما وجدت لنفسى فضيلة أدخل بها قبري ، ولا شمعة أضيء بها لحدى ، ولا عملا أقدمه بين يدى ليرد غربتى ويؤنس وحشتى ، فخفت واشتهيت ، نعم أخي ، خفت ذنوبي ، واشتهيت رحمة ربي.

فتأهب أخي للقبر ، قبل أن تدخله ، واستعد له قبل أن توضع فيه ، فإنما يأمن فيه غدا من دخله اليوم ، وتأمل حال الصالحين : جاء عن الربيع بن خثيم أنه حفر حفرة في بيته فكان إذا وجد قسوة في قلبه دخل فيها ، وكان يمثل نفسه أنه قد مات وندم ويسأل الرجعة فيقول :"**رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت**" ثم يجيب نفسه : " **قد رجعت يا ربيع ، فيقوم وينشط ، ويظل أياما يرى فيه العبادة والاجتهاد والخوف والوجل** " .

الثالثة : أما الثالثة أخي في كلام العبد الصالح يحيى فهي : وأرضي خالقه قبل أن يلقاه ، ولن ترضى ربك قبل أن يرضى عن ربك ، وأن ترضى بكل ما جاء من ربك ، وكيف لا ترضى عن ربك وأنت تعلم أنه أبر بك من أبيك وأرحم بك من أمك ، وأحني عليك من والدك وولدك والناس أجمعين ؟ كيف لا ترضى عن ربك وأنت

---

(1) رواه ابن ماجة .

موقن أنه أحاط بكل شيء علما ، وهو وحده أعلم بما يصلح للعبد وما لا يصلح له ، إن اختياره لك هو الأصلح وتقديره لك هو الأليق ، وكيف لا ترضى عن ربك وأنت تعلم أنه اللطيف الذي يبتلى عبده بالمصيبة ليطهره من كبيرة واقعها ، أو ذنب دنس به ثوبه ولوث به عرضه ؟ وكيف لا ترضى عن ربك أخي وهو يتودد إليك بالنعم ، ويتقرب إليك بالمنح ، ويعالج نفورك منه وبعدك عنه بعظيم الهبات ، وجليل العطايا ؟ أخي الحبيب ، كيف لا ترضى عن ربك ، ونعمه نعم وابتلاؤه نعم ؟ هكذا فهم سلفك فتأدبوا مع مولاهم في الحالين : إذا منحهم وإذا منعهم ، وأدركوا تمام الإدراك حكمته البالغة في العطاء والمنع ، فامتلأت قلوبهم ببرد الإيمان وسلام اليقين. واستوي عندهم المنح والمنع ، والعطاء والسلب ، حتى قال بعض العارفين : ارض عن الله في كل ما يفعله بك ، فإنه ما منعك إلا ليعطيك ولا ابتلاك إلا ليعافيك ، ولا أمرضك إلا ليشفيك ، ولا أماتك إلا ليحيك ، فإياك أن تفارق الرضا عنه طرفة عين فتسقط من عينه[1].

اقرأ أخي هذا الكلام مرة بعد مرة ، واعلم أنك لن ترضى ربك إلا إذا حلقت مع القوم في آفاقهم وطرقت منازلهم بقلبك قبل يدك ، وتعلم ولا تتردد ، قال سفيان الثورى يوما عند رابعة : اللهم ارض عنا ، فقالت : أما تستحي أن تسأله الرضا عنك ، وأنت غير راض عنه ؟ فقال : استغفر الله ، ثم قال جعفر بن سليمان : متى يكون العبد راضيا عن الله ؟ قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة ، فانظر أخي هل نحن كذلك ؟ أنا وأنت وفلان وفلان ؟ إن كلام القوم ينكئ جراحنا ، ويظهر عوارنا ، ويفضح تقصيرنا ، وإلى الله وحده نشكو سوء حالنا ، وقعود جوارحنا ، وعجز أرواحنا ، فادع معي : اللهم رضنا بما اخترته لنا حتى لا تهفو النفوس إلى سواه ، ولا تتطلع القلوب إلا إليه ، ردد هذا الدعاء ، وتعالى معي نطالع وجوه القوم فالنظر إليهم عبادة ، والنظر في أحوالهم بركة وزيادة ، نظر أحدهم إلى قرحة في رجل محمد بن واسع وقال له : إني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال محمد : إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم

(1) مدارج السالكين جـ 2 صـ 225.

تخرج في عيني[1] ، نعم أخي كان يمكن أن تخرج يوم خرجت في عينه ، أليس ظهورها إذن في رجله ليستحق الشكر ؟

بلى والله ، أليس من النعمة أنها كانت واحدة ولم تكن أكثر ؟

بلى والله ، فهل تذكرت ذلك وتدبرته ؟

إنها معان عميقة تحتاج إلى بصيرة ثاقبة وفكر نافذ ، ودعني أقص عليك في مقام الرضا ما هو أعجب ، كان عند بشير الطبري مزرعة فيها أربعمائة جاموسة – وهي ثروة – فهجم الروم يوما عليها ، وساقوا الجواميس فيها ، وكان عنده مائة عبد يحرسونها ، فأسرع مع ولده إليها ، فلقيه العبيد يبكون – ويصرخون قائلين : يا سيدنا ، يا مولانا ، أخذت الجواميس ، فقال : وأنتم أيضا اذهبوا فأنتم أحرار لوجه الله ، فقال له ابنه : أفقرتنا يا أبتاه ، فقال له : اسكت يا بني إن الله أراد أن يبتلي رضائي به ، فأحببت أن أزيده[2]،رحم الله هذا الرجل ، إن الله أراد أن يختبرني : أأرضى أم أسخط ؟

فكان رده على الاختبار عظيما ، لقد أعتق عبيده زيادة من عنده ليبرهن عن عظيم رضاه بما قضى ربه ، فقال وبكل تسليم : اذهبوا فأنتم أحرار لوجه الله.

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر ... والدهر ذو دول والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالقنا ... وفي اختيار سواه اللوم والشوم

إنها أخي آفاق عالية ، ومقامات غالية ، لا يدركها إلا عاقل ، فضع الدنيا في مكانها الصحيح وأقبل على الآخرة برضا تام وإيمان كامل.

تسبيحة خير من ملك سليمان

لقد أوتى سليمان من الملك ما قد علمت ، وقد آتاك نبؤه وهو يدعو ربه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص:35] فكان عطاء ربه له واسعا ، وكان فضله عليه عظيما ، يقول تعالى ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦

(1) نقلا عن : أصول الوصول . صـ 187 .
(2) نفسه .

وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [ص:36،39]

أرأيت أخي هذا الملك العريض والعطاء الواسع والرزق الممدود ؟ ومع هذا كان سليمان أزهد الناس ، وظل هذا الملك في يده ، ولم يتقدم نحو قلبه شبرا واحدا ، فقلبه حصين ، لا يطرقه سوى رب العالمين ، وهذا هو الزهد على التحقيق ، أن تكون الدنيا في اليد لا في القلب ، وتأمل هذا الخبر : روي أن سليمان بن داود مر في موكبه والطير تظلله ، والجن والإنس عن يمنيه وشماله ، قال : فمر بعابد من بنى إسرائيل فقال : والله يا ابن داود لقد أتاك الله ملكا عظيما ، قال : فسمع سليمان وقال : لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أوتى ابن داود ، فأما ما أوتي ابن داود فإنه يذهب والتسبيحة تبقى، أما أنا فليس عندى من تعليق على هذا المشهد خير وأروع من قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ [الكهف:46] .

ذهب وخزف

إن ملك ابن داود أخي مهما طال فهو قصير ، ومهما عظم وامتد في عين أمثالنا فهو في أعين الصالحين حقير ، إنها الموازين الحق يستخدمها أولو الألباب للحكم على الأشياء ، فيضعون كل شيء في موضعه الصحيح الذي يليق به ، فللدنيا حدودها ، وللآخرة مكانها ومقامها ، ولقد كان الفضيل رحمه الله يستخدم هذه الموازين بعينها ، موازين سليمان عليه السلام ، ليعيش بها ، ويحكم على الأشياء من خلالها ، ولقد كان مما سمعته منه ونحن نتجول في ظلال الروضة قوله : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، فكان ينبغي لنا أن نختار خزفا يبقى ، على ذهب يفنى ، فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى على ذهب يبقى ؟ (1) أعد القراءة أخي فالنص في حاجة إلى أن يقرأ أكثر من مرة ، مع التأمل والتدبر ، والنتيجة التى ستصل إليها تقول : إن الآخرة من ذهب يبقى ، وإن الأولى من

(1) نفسه . صـ 127 .

خزف يفنى ، فليتق الله صاحب قلب حي ، وعقل واع ، وليعلق آماله بما يبقى ، لا بما يفنى ، وما أجمل قول المولى ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:96] .

اهرب منها تطلبك

عجيب أمر الدنيا ، تتعب من طلبها ، وتقطع رقبة من سعى وراءها ، وكلما زاد تعلق المرء بها ، كلما زاد دلالها ونفورها ، تلك والله حقيقة ثابتة ، وتجارب واقعة ، فإذا أردت أن تأتيك الدنيا راغبة ، وتخر أمامك راكعة ، فأعرض عنها ، وانظر كل أثر لها في قلبك ، فاغسله بالماء والثلج والبرد ، فإذا نظفت القلب من أدرانها ، وطهرت النفس من كدرها ، وأقبلت على الآخرة بكل ما تملك ، ستبحث هي عنك ، وتأتي إليك ، وسترى عندها ذلها وهوانها ، وانظر هذا المثل الرائع والتصوير البديع ، للعبد الصالح الذي لا يخفى عليك اسمه ، ولا يغيب عنك جهاده ، إنه البطل الشهيد **نور الدين محمود** ، لقد ركب يوما مع بعض أصحابه ، والشمس في ظهورهم ، والظل بين أيديهم لا يدركونه ، ثم رجعوا فصار الظل وراءهم ، ثم ساق نور الدين فرسه سوقا شديدا وظل يتبعه ، فقال لصاحبه : أتدرى ما شبهت هذا الذي نحن فيه ؟

شبهته بالدنيا ، تهرب ممن يطلبها ، وتطلب من يهرب منها ، وقد أنشد هذا المعنى **بعضهم فقال** :

مثل الرزق الذي تطلبــه مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه مستعجلا فإذا وليت عنــــه تبعــك[(1)]

مشهد طريف أخي ، أليس كذلك ؟

مثل الدنيا أخي مثل الظل ، إذا سرت وراءه أتعبك ولا تدركه ، وإذا أعرضت عنه تبعك وسوف يدركك ، وهذه هي الحكاية باختصار ، فكن من الأبرار ، وتعلم من هؤلاء الكبار ، حتى لا تقع في حبائلها فتلهو بك كما تلاعبت بالصغار ، وعبثت بالأغرار.

---

(1) انظر : الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي جـ 1 صـ 246 .

فضول العيش أشغال

أطلت عليك في هذا الباب أخي فعذرا ، ولكن عن عمد فعلته ، فإني وإياك في معركة دائمة ومواجهة عنيفة ، وموقعة فاصلة ، مع النفس والهوى والشيطان والدنيا ، ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى وضوح الرؤية ، وطول التفكير ودوام التذكير ، فإذا قررت أخي الحبيب ، الفرار إلى الله ، والانحياز إلى الدار الآخرة ، ومن ثم المواجهة الدائمة مع قوى الباطل ، فإن أول شيء يجب عليك أن تفعله هو : أن تحدد صلتك بالدنيا وما فيها من متاع ، وأن توضح حقيقة العلاقة بينك وبين ما تطرحه بين يديك من مغريات ، وما تلقيه في طريقك من عقبات ، فإن التعلق بمتاعها ومغرياتها ، يشغلك عما يجب أن تكون خالصا له ، ورحم الله أبا الطيب المتنبى ، فإن مما تمسك **الذاكرة من شعره** :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ما فاته وفضول العيش أشغال

فتأمل أخي قوله : وفضول العيش أشغال ، فإنها والله جملة كافية شافية ، فوطن نفسك على مستوى من العيش يضمن لك ما يكفى ، وينفى عنك الفضول والزيادات ، فهذا أعون لك على الشعور بالغنى التام ، وأجلب شيء لعزة النفس وراحة القلب .

مع شيخنا الغزالي

أنت أخي الحبيب صاحب دعوة ، وحامل الرسالة ، وتسير في طريق مشى فيها الصالحون قبلك ، رسموا لك المعالم ، وحددوا لك الأهداف ، وأوضحوا لك الحدود والغايات ، وأرشدوك إلى ما فيه صلاح حالك وسكينة روحك ، ونجاة نفسك ، فإذا أردت أن تعرف حقيقة الزهد وتقف على مدلوله الذي خاض فيه كثيرون بغير ، علم وخبطوا فيه بدون فقه فعكروا صفاءه وشوشوا نقاءه ، فتعال معى إلى بلبل الدعوة في عصرنا الحديث ، وقيثارتها الربانية ، فضيلة الشيخ محمد الغزالي يشرح لي ولك ، فأنصت معي : (**ونحن لا نحرم حلالا ، ونحجر واسعا ، وإنما نصف الطريق التى لا بد من سلوكها لأصحاب الرسالات وحملة الدعوات ، فإنه لا يتفق طمع في الدنيا وانتصار للمثل العليا ، ولا ينسجمان : الحرص على إعلاء كلمة الله والحرص على تكثير المغانم واسترضاء الخلائق ، وفي الحديث : يا**

أيها الناس : هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى [1].

إن التعلق بأذيال الدنيا والخلود إليها أذل أعناق الرجال ، والتهافت على جمعها أصاب أصحابها بالعمى ، عمى القلوب لا عمى الأبصار ، وتغلغل حبها في القلوب أورث الناس الجبن والانكسار ، والسعي في تحصيلها – من أي وجه كان – أخرس الألسنة عن قول الحق ، وأعمى الأعين عن الآخرة ، وأصم الأذن عن سماع النصيحة ، وحجب عن القلوب نور الإيمان وأجج في النفوس نار الشهوات ، وأمات في الأفئدة الضمائر ، وجفف في القلوب منابع الخير والرحمة والإحسان ، فيا تعاسة عباد الدنيا وقادة الشهوات) [2].

فقصة الزهد إذن تتلخص في أننا لا نحرم حلالا ، ولا نملك ذلك ، ولا نضيق واسعا وهذا لا يجوز ، إنما أصحاب الدعوات لهم أفق أخر يغردون فيه خارج السرب ، ليدلوا غيرهم على الطريق ، ويهدونهم بالفعال قبل المقال ، ويضعون النظريات الربانية موضع التطبيق ، حتى يكونوا نجوما يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر ، أما العوام أخي فلهم شأن آخر ، فلا أحد يتبعهم ، ولا أحد ينظر إليهم ، فلهم أن يأخذوا من الطيبات وأن يستمتعوا بها شرط ألا تصدهم عن الحق وألا تخرجهم عن القصد ، ومن أجمع وأروع ما قيل في الزهد حتى لا تلتبس الأمور ، ما جاء عن الحسن أو غيره : ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة – إذا أصبت بها – أرغب منك فيها لو لم تصبك ، فهذا من أجمع الكلام في الزهد وأحسنه[3].

استعن بهذه الكلمات

إن شيمة أهل هذه الروضة الكرم – فقد غمرونا والله بكرمهم الحاتمي ، فلم يتركونا حتى جمعوا لنا من معاني الزهد ما ملأ نفوسنا رضا ، وأرواحنا يقينا ، وسكب في القلوب رحيق التسليم لقسمة الله والنزول عند قضائه ، بل إنهم أصروا

---

(1) مسند الإمام أحمد .
(2) الجانب العاطفي في الإسلام . صـ 164 .
(3) مدارج السالكين جـ2 صـ 14 .

على أن يضعوا في أيدينا قبل الرحيل مصابيح ثلاثة نستضيء بها ، كلما نشب الظلام مخالبه في الأرواح وأرخى سدوله **على القلوب فأخذناها فإذا :**

المصباح الأول : اليقين بأن الدنيا ظل زائل ، وخيال زائر ، وبريق خادع ، وسراب عما قليل تظهر حقيقته ، وينفضح زيفه ، فهل تعلم ذلك أخي ؟ أعنى هل تؤمن به ؟ وإلى أى مدى بلغ يقينك بهذه الحقائق ؟ إنها الحطام ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ [الحديد:20] ، وقد نهى ربك عنها ، وحذر منها ، وسماها " **متاع الغرور** " فانتبه وانظر إلى حقيقة الدنيا ممن خبرها : قال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإن عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل إما بنعمة زائلة ، أو بلية نازلة ، أو منية قاضية[1]، وهذه هي الدنيا.

المصباح الثاني : اليقين بأن وراء هذه الدار دار هي أجل منها قدرا وأعظم منها خطرا ، وأعلى منها مقاما ، وهي الباقية ، فزهد الإنسان في الفانية إنما يكون لتمام الرغبة وكمال الإقبال على ما هو خير وأبقى ، ولعل ذكر الموت وزيارة القبر أخي أنفع دواء لك في هذا الباب فكلاهما يحقق اليقين بالآخرة .

أما ذكر الموت : فإن كتائب الأموات التى نودعها كل يوم ونشيعها ، تقدم لك الدليل المادي على قرب أجلك ، فلماذا تأمن من أن تنضم إلى هؤلاء بين طرفة عين وانتباهتها ، وأن تكون عبرة لمن وراءك كما كانوا عبرة لك ؟ وتأمل حال القوم تنشط ، وانظر في سيرهم تعلو همتك ويزداد يقينك ، فعن إسماعيل بن زكريا وكان جارا لأبي محمد حبيب الفارسى قال : كنت إذا أمسيت سمعت بكاءه وإذا أصبحت سمعت بكاءه ، فأتيت أهله فقلت : ما شأنه يبكى إذا أمسى وإذا أصبح ؟ فقالت لي : يخاف والله إذا أمسى ألا يصبح وإذا أصبح ألا يمسى [1]. ولم يكن

(1) قصر الأمل . صـ 59 . ابن أبي الدنيا . دار ابن حزم .

البكاء وحده هو وسيلته ليغرس اليقين بالآخرة في القلوب ، بل كانت له وسائل أخرى منها : أنه كان كل صباح يوصى امرأته قائلا : إذا مت اليوم فأرسلي إلى فلان يغسلني ، وافعلي كذا وكذا ، واصنعي كذا ، فقيل لامرأته : أرأى رؤيا ؟ قالت : هذا يقوله كل يوم(1) .

أما زيارة القبر أخي فهي تجعلك في حضور واستحضار دائم لأجواء الآخرة ، ويتعلق قلبك للدار التى تتهيأ لاستقبالك ، وتستعد لنزولك ، فزر القبر فلعل الزيارة أخي تحملك على أن تقدم لنفسك عملا ينفعك ، وحتى لا تكون الطيور أذكى منك ، كما أخبر ابن الجوزى رحمه الله قال : هذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت ، أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع ، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر ؟ فهلا بعثت لك فراش تقوى ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:44] .

المصباح الثالث : اليقين التام بأن الزهد في الدنيا لن يمنعك شيئا كتبه الله تعالى لك ، وأن حرصك عليها لن يجلب لك ما لم يكتب لك ، إذا أدركت هذا وبلغ إيمانك به درجة اليقين ، فستصغر الدنيا في عينيك وتصير أقل معنى ، وتتقلص مساحتها في قلبك لتفسح للآخرة مكانا هي أجدر به وأولى ، أخي الحبيب إن ربك ربط الرزق بالخلق فقال : ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم:40] فأكد أن الرزق من الخالق لا من الخلق ، ثم وعدك فقال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:58]، ثم ضمن لك الرزق فقال : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:6] ، ثم لم يكتف بذلك أخي حتى أقسم : ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات:23]، فإياك أن تغفل عن هذا ، فيقتلك

(1) نفسه صـ 60 .

الحرص ، ويقعد بك الهم ، وتضرب خيامها حولـك الحسرة ، ثـم لا يأتيك فيها إلا ما كتب لك ، **وثق في الرزق ثقة هؤلاء :**

كان على بن أبي طالب يقول : إن أرجى ما يكون الرزق إذا قالوا : ليس في الدنيا دقيق .

وشكا رجل إلى إبراهيم ابن أدهم كثرة عياله فأجابه بموعظة صاعقة :

انظر كل من في بيتك ليس على الله رزقه فحوله إلى منزلي.

وإلى كل شاك في رزقه يقول ميمون بن مهران : يقول أحدهم : اجلس في بيتك وأغلق عليك بابك ، وانظر هل يأتيك رزقك ؟ نعم والله لو كان له يقين مريم وإبراهيم عليهما السلام وأغلق بابه وأرخى ستره(1).

أخي الحبيب ، لا تشغل نفسك بالرزق فقد ضمن لك ، وانشغل بالطاعة فقد فرضت عليك ، وخذها ربانية من فم ابن عطاء الله : اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك ، فتأملها أخي فإن فيها الخير وأنت لكل خير أهل ، ولست أزكيك فإن ربك أعلم بمن أتقى.

مدرسة الحسن

وقبل الرحيل خطر لنا أن نمر على مدرسة الحسن البصري ، فما ينبغي لأحد زار الروضة أن يتركها دون أن يحل بها ، فأتينا فإذا هو جالس ، بهديه المعروف وسكينته الجارفة ، وهيبته الآخذة ، فقلت : يا إمام ، إنك جئت إلى الوجود بسمت السلف الأول ، ولك في الروضة مدرسة باسمك ، فهلا أخبرتنا بحال من سبق ؟ وشرحت لنا من هديهم طرفا ؟ فأشرق وجهه وتكلم ، فكأنما نبي يتكلم ، وكان مما قال : أدركت أقواما وصحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شيء منها أدبر ، ولهى كانت في أعينهم أهون من التراب ، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة ، لم يطو له ثوب ، أو ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر من في بيته بصنعة طعام قط ، فإن كان

---

(1) انظر : البحث عن اليقين صـ 87 . خالد أبو شادي .

الليل فقيام على أقدامهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم ، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم ، فلم يزالوا على ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة ، رحمة الله عليهم ورضوانه(1) . وسكت الرجل ، ونظر إلينا ، فإذا العيون قد فاضت ، والوجوه قد استقبلت أمواجا من الدمع فاغتسلت بها ، وإذا الأرواح تحن إلى عهد القوم حنين الطيور لأوكارها ، فقلت : رحمك الله يا حسن البصرة بل يا حسن الدنيا ، لقد كان كلامك يشبه كلام الأنبياء وصدق من قال ذلك ، فقد جددت الحزن وأججت الشوق ، وهيجت الذكرى ، فلله درك ، طال شوقنا إلى رجل مثلك ، يعلمنا كيف نطرح عن أنفسنا ثقلة الأرض ، وننفض عن أرواحنا حمأ الطين المسنون.

زهد سلمان

قال صاحبي يحاورني : أتينا مدرسة الحسن ، أفلا نأتى مدرسة سلمان ؟ إني أراها قريبة ، قلت : أحسنت إنه العبد الصالح ، سلمان الفارسي ، صاحب رسول الله ﷺ وأحد الكبار الذين سكنوا الروضة وفتحوا لهم فيها مدرسة ، تعلم اليقين ، وتشرح الزهد ، وتربى أبناءها على التخفف من أثقال الأرض ، فتعال أحكى لك من أخباره عجبا ، لما أتاه ملك الموت بكى ، بأبي أفديه وأمي ، قالوا : ما يبكيك ؟ قال : عهد إلينا رسول الله ﷺ عهدا وما أراني إلا تجاوزته ، قالوا : وما عهد إليكم ؟ قال : عهد إلينا أن يكون زاد أحدنا كزاد الراكب ، فلما مات حسبوا تركته ، فوجدوا عنده ستة عشر درهما ، هذا ما وجدوه عنده ، ثم هو يبكى ، سبحان الله ، يخشى أن يكون جاوز عهد نبيه ، يخاف أن يكون قد خاض بيديه ورجليه في وحل الدنيا ، وركن إلى باطلها ، رحم الله سلمان ، ورضي عنه ، فكيف به لو رأي الناس اليوم يتركون المليارات والأرض والعقارات ؟ كيف بك يا سلمان لو رأيت هؤلاء ؟ أترانا قد بدلنا ؟ أترانا قد نقضنا العهد ، وتجنبنا الطريق ؟ بالله يا سلمان رفقا بنا ،

(1) الإحياء جـ 4 صـ 346 .

فإن نفوسنا تغيرت ، وقلوبنا تغيرت وثوابتنا تغيرت ، وإلى الله نشكو ضعف الحال ، وقلة الصبر ، وجفاف اليقين.

إمام الزاهدين

قلت لصاحبي لا تعجب ، فالشيء معدنه لا يستغرب ، وأنت تعلم أن سلمان والحسن وعلى ومصعب ، وغيرهم ، تلاميذ في مدرسة عرضت على مؤسسها الدنيا فلم يلتفت إليها ، وأتته الدنيا راغمة فأعرض عنها ، إنها مدرسة الحبيب ﷺ ودعني أذكرك بمشهد واحد من حياته ﷺ ، يشير إلى ما وراءه ، فليس في الوقت متسع ، وقد أوشكنا على الرحيل ، تقول أمنا عائشة : دخلت امرأة من الأنصار فرأت فراش النبي ﷺ ، عباءة مثنية ، فرجعت إلى منزلها فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف ، فدخل على رسول الله ﷺ فقال : ما هذا ؟ فقلت : فلانة الأنصارية ، دخلت على فرأت فراشك ، فبعثت إلى بهذا ، فقال : رديه ، فلم أرده ، وأعجبني أن يكون في بيتي ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال : يا عائشة رديه ، والله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة[1] .

انظر أخي : الذهب والفضة لو أراد ، ولكن لم ؟ والأمر أعجل والعمر أقصر ، والحياة أهون من أن يركن إليها لبيب أو عاقل ؟ قلت لصاحبي : سلمان تلميذ هذا الأستاذ ، وخريج هذه المدرسة ، فإذا سمعت عن سلمان وأصحاب سلمان شيئا فلا تتعجب ، فإنهم تلاميذ هذه المدرسة وأصحاب هذا الإمام صلوات ربي وسلامه عليه.

الزهرة الأخيرة

وقفنا بالباب ، ننتظر الإذن بالمغادرة ، والقلوب لا زالت معلقة بالروضة وأهلها ، والعقول لا زالت تسرح في طرقاتها وتسبح في أنهارها ، فإذا محمد بن واسع يدركنا بزهرة أراد أن نحملها معنا ، فمد صاحبي يده فأخذها فإذا فيها : قال رجل لمحمد بن واسع : أوصنى : قال : أوصيك أن تكون ملكا في الدنيا والآخرة قال : كيف هذا ؟ قال : ازهد في الدنيا ، قرأنا الخبر فسبحنا

---

(1) صحيح أخرجه الإمام أحمد في المسند .

وكبرنا ، هذا هو طريق الملك : الزهد ، فكن ملكا في الدارين وأرح نفسك ، ثم فتح لنا الباب فخرجنا ، وعلى بعد خطوات من الباب أتانا صوت **الإمام الشافعي ينشد** :

إن لله عبادا فطنـــــا   طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلما علموا   أنها ليست لحـــي وطنـا

جعلوها لجة واتخذوا   صالح الأعمال فيها سفنـا

قال صاحبي : إلى أين ؟ قلت : انطلق وعما قليل سوف تعلم ، فانطلقنا .



الروضة الرابعة

الدعاء
لغيرك ما مددت يدا

يقول الله تعالي :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:60]

الروضة الرابعة

ويقول حبيبك ﷺ :

إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ : " وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ "

رواه أصحاب السنن والحاكم وقال الترمذي : حسن صحيح

وقال العبد الصالح :

ها قد مددت يدي إليك فردها

بالفضل لا بشماتة الأعداء

تمهيد

من روضة الزهد انطلقنا بعد أن عشنا في رحابها مدة وحللنا بساحتها زمناً ، فعرفنا قيمة الدنيا وخبرنا زورها وزخرفها ، بعد أن طالعنا أقوال الصالحين ، وأحوال الربانيين ، ثم بدا لنا أن نشد الرحال نحو روضة أخرى ، فجددنا النية وعقدنا العزم ، ومضينا في راحة ورضا ، نبحث عن أقرب روضة من الزهد لنحط بها رحالنا ، فإذا شجرة ظلها ظليل ، وهواؤها عليل ومرأها جميل ، فيممنا وجوهنا شطرها وأسرعنا نحوها ، فإذا ورقة منها قد تدلت ، وعليها بخط ظاهر ، وحروف من نور باهر ، كلام في غاية الحسن يسر الناظر ويسعد الخاطر ، للعبد الصالح : مطرف بن عبد الله يقول : تذكرت ما جماع الخير ، فإذا الخير كثير ، الصوم والصلاة ، وإذا هو في يد الله عز وجل ، وإذا أنت لم تقدر على ما في يد الله عز وجل إلا أن تسأله فيعطيك ، فإذا جماع الخير : الدعاء[1] ، فلما قرأنا أدركنا أن الخطى تقودنا نحو روضة الدعاء ، وإذا الباب قريب ، وعليه بأروع حرف وأجمل خط مكتوب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:186] فأسرعنا يحدونا الشوق إلى إدراك هذه الروضة ، لننعم بما حباها المولى من خيرات ، ونتفيئ ظلالها لحظات ، ونمتع الروح ببهائها ، ونطعم القلوب من خيراتها ، ونسعد النفوس بحورها وولدانها ، ونزكي أبصارنا برؤية شواطئها وأنهارها ، قال صاحبي : لقد شوقتنا وهيجت نفوسنا ، فقلت : نحن على بعد خطوات ، وها هو الباب يفتح ، فترجل أيها الحبيب ثم انطلق.

فن يحسنه الفقراء

أخي الحبيب : إن رفع اليد ، وبسط الكف ، وكسرة القلب ، وخضوع الوجه ، وهيئة الطالب الذليل والسائل الفقير ، كل ذلك فن لا يحسنه إلا الفقراء ولا يتقنه إلا السعداء ، أولو النهى وأرباب التقى ، وأصحاب القلوب المنكسرة لمولاها ، والجباه المعفرة لسيدها وخالقها ، نعم أخي إن الفقر إلى الله فن لا يحسنه سوى الفقراء الذين يمرغون وجوههم في التراب ، ويدمنون

(1) الزهد صـ 295 . الإمام أحمد . ط دار الريان .

قرع الأبواب ، طمعا في الوصول إلى حضرة الملك الوهاب ، هؤلاء هم الناس أخي ، وعيب أن يقال لغيرهم ناس ، فتراهم يتقلبون على بساط الفقر والذل والخضوع والانكسار ، لا يعرفون الغنى إلا مع مولاهم ، ولا العز إلا في الإقبال على سيدهم الذي أطعمهم من جوع كما أمنهم من خوف ، فهم الفقراء الأغنياء ، فقرهم إلى الله ، وغناهم عمن سواه ، الله عز وجل مولاهم ، ورضاه مرادهم ، وحماه ملاذهم ، وحبه زادهم ، واسمع أخي الحبيب إلى شيخ الإسلام ابن القيم وهو يصف أحدهم فيقول : (**فالفقير خالص بكليته لله سبحانه ، ليس لنفسه ولا لهواه في أحواله حظ ونصيب ، بل عمله بقيام شاهد الحق وفناء شاهد نفسه ، قد غيبه شاهد الحق عن شاهد نفسه ، فهو يريد الله بمراد الله ، فمعوله على الله ، وهمته لا تقف دون شيء سواه ، قد فنى بحبه عن حب ما سواه ، وبأمره عن هواه ، وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه ، فهو في واد والناس في واد ، خاضع متواضع سليم القلب ، سلس القياد للحق ، سريع القلب إلى ذكر الله ، برئ من الدعاوى لا يدعى بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله ، زاهد في كل ما سوى الله ، راغب في كل ما يقرب إلى الله ، قريب من الناس أبعد شيء منهم ، يأنس بما يستوحشون منه ، ويتسوحش مما يأنسون به ، منفرد في طريق طلبه ، لا تقيده الرسوم ، ولا تملكه الفوائد ، ولا يفرح بموجود ، ولا يأسف على مفقود ، من جالسه قرت به عينه ، ومن رآه ذكرته رؤيته بالله سبحانه ، وقد حمل كله ومؤنته عن الناس ، واحتمل أذاهم وكف أذاه عنهم ، وبذل لهم نصيحته وسبل لهم عرضه ونفسه لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز ، لا يدخل فيما لا يعنيه ، ولا يبخل بما لا ينقصه وصفه الصدق والعفة والإيثار والتواضع ، والحلم والوقار والاحتمال ، لا يتوقع لما يبذله للناس عوضا منهم ولا مدحة ، ولا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ، ولا يرى له على أحد حقا ، ولا يرى على أحد فضلا مقبل على شأنه ، مكرم لإخوانه بخيل بزمانه ، حافظ للسانه ، مسافر في ليله ونهاره ، ويقظته ومنامه ، لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه ، قد رفع له علم الحب فشمر إليه ، وناداه داعي الاشتياق فأقبل بكليته عليه ، أجاب منادى المحبة إذا دعاه حي على الفلاح ، ووصل السرى في بيداء الطلب فحمد عند الوصول سراه ، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح**) (1) .

---

(1) طريق الهجرتين . صـ 48 ، الإمام ابن القيم . ط المطبعة السلفية .

الآن عذرا أيها الحبيب : فقد أطلت في هذا الفصل ولا يد لي ولا حيلة ، فقد سحرني الإمام بسحره الحلال ، وسبى قلبى بهذا العذب الزلال ، فأعد قراءة هذا الوصف بقلبك قبل لسانك ، وأجل فيه البصيرة قبل البصر ، لتستشعر حقيقة الفقر التى أريد ، وتعلم أنك لا زالت بخيرمادام الفقر إلى مولاك هو وصفك ، ومادامت يدك ممدودة إلى سيدك تسأل وتطلب وتدعو.

لا بد من الدعاء

نحن إذن أيها الحبيب في روضة لا غنى لمسلم عنها ، أينما حل ، وحيثما نزل ، وفي أي وقت كان ، فالفقر مركبك ، والشوق حاديك ، والدعاء سلاحك ، ولن تواجه تحديات الحياة على كثرتها إلا بسيوف لا ترتد ، وسهام لا تخطئ وهتاف لا يرد ، ودعوات هي والإجابة قرينان لا يختلفان ولا يفترقان ، فانظر أخي ، هل لك عن الدعاء غناء ؟ لا والله ، **فالأخذ بالدعاء حتم لازم، لأنك** :

- إما أن تكون راعيا ولاك الله تعالى أمر رعية ، فأنت أفقر الخلق إلى الدعاء ، ليشد الله ملكك ، ويثبت حكمك ، ويرزقك التوفيق ، ويهديك إلى العدل ، ويحبب إليك الرعية ، ويحببك إلى الرعية،ولذا فالدعاء أنفع شيء لك ، وأصلح دواء لقلبك وبدنك.
- وإما أن تكون داعيا إلى ربك عز وجل ، وصاحب رسالة ، وحامل راية ، وطالب إصلاح ، وهادي أمة نحو ثورة مباركة خضراء تحمل الخير وتجلب البر وتحارب الشر ، ومن ثم فأنت أيها الحبيب أحوج الخلق إلى الدعاء وطلب العون ، وسؤال النصرة والتثبيت ، حتى يحق الله الحق بكلماته ، ويقطع دابر الذين ظلموا ، ويأمن الخلق في ظلال الإيمان والتقى وترتاح قلوبهم وخواطرهم بأنوار الحق وهدايات الوحي.
- وإما أن تكون مجاهدا في سبيل الله ، ترفع لواء الحق ، وتعلي راية الأمة ، وتحمل روحك على كفك فداء لدينك ، ونصرة لنبيك ، ودفاعا عن أمتك ، تطلب الأجر ، وتحتسب الوقت ، وتجعل من دمك الزكي وقودا يشعل الأرض تحت أقدام الغاصبين ، ويضيء طريق الحق أمام السائرين ، فإذن أنت إلى ربك أحوج ، وإلى

مولاك أفقر ، فأسأل ربك النصر ، واستنزل بالدعاء السكينة ، واطلب من ربك أن يفرغ عليك صبرا ، وأن يجمع شملك ، ويفرق شمل عدوك ، فهو منك قريب وأنت تشعر بذلك دائما وتحسه لا محالة في كل وقت.

- وإما أن تكون مريضا مبتلى ، جرت عليك سنة البلاء كما جرت من قبل على الأنبياء ، فتصبح وتمسى صريع دائك ، طريح فراشك ، ترجو السلامة وتطلب العافية وتنتظر الفرج ، فأنت إذن إلى الدعاء أشد فاقة ، وأعظم حاجة ، وأكثر فقرا ، فمد يدك ، وابسط كفك ، وفرغ قبلك ، وتوجه إلى ربك فاسأله أن يفرج كربك ، وأن يكشف ضرك ، وأن يرفع بلواك ، كما رفع عن أيوب بلواه ، وعندها لن تعود يدك خاوية ، لأنك تدعو كريما ، وتسأل مجيبا وتناجي قريبا .
- وإما أن تكون ذا عيال ، كثر عددهم ، وزادت مؤنتهم ،وتشعبت بك السبل في رعايتهم ، وعندها لا أنعت لك أيها الحبيب أفضل ولا أغلى من الدعاء فهو لك خير معين على حسن الرعاية ، ومشاق التربية ، وحسن التوجيه ، وهموم العيش ووسوسة الرزق ، فأسأل ربك أن يقوى ظهرك، وأن يثبت فؤادك ، وأن يهب لك من الزوج والذرية ما تقر به عينك ، وتطيب به نفسك ، وأن يكونوا جميعا يوم العرض في ميزان الحسنات بحسن التوجيه ، وسلامة التربية وجميل الهداية والتعليم.
- وإما أن تكون أيها الحبيب صاحب مال وتجارة ، تسعى في طلب الحلال ، لتكفى نفسك وتطعم أهلك، وتتصدق بعد ذلك من رزق الله على من هم حولك ، ويحتاجون إلى فضلك ، فأنت إذن أفقر الخلق إلى ربك وأحوجهم إلى مولاك ، في زمن اختلطت فيه الأمور ، واشتبك الحق بالباطل ، وصار الفارق بين الحلال والحرام شعرة وعرضت الفتن نفسها على الناس عرضا ، فاسأل ربك أن يبارك مالك ، وأن يزكي تجارتك ، وأن يطيب مطعمك وأن يرزقك من الحلال الخالص ما يصح به بدنك وتزكو به نفسك ، وتقبل به طاعتك ، ويرفع به عملك.

وبالجملة أيها الحبيب أنت في أي موقع كنت ، وعلى آية حال تقلبت ، بالليل والنهار ، في الخلوة والجلوة ، في غناك وفقرك ، في قوتك وضعفك ، في صحتك ومرضك ، في

مسيس الحاجة إلى الدعاء ، فحذار أن تنسى ، وإياك أن تنقطع عن باب مولاك ، وارفع أكف الضراعة في كل وقت ، ففي ذلك سعادة الدنيا وفلاح الآخرة ، وربك الغنى ذو الرحمة ، يحب أن يسأل ويغضب على من لا يسأله وهو القائل سبحانه ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:32]

حتى لا يغضب عليك

أخي الحبيب ، ماذا لو سألت أخاك حاجة ؟ وماذا لو طلبت من جارك شيئا ؟ وماذا لو مددت يدك لقريب في ضر نزل بك أو ضائقة حلت بساحتك ؟ هل تراهم يفرحون بسؤالك أم يغضبون ؟ سأترك الجواب فهو ظاهر وعنوانه واضح ، وأنتقل بك سريعا إلى حديث عجيب من أحاديث الحبيب ﷺ أورده الإمام البخاري في الأدب المفرد والترمذي وقال : حسن ، أن النبي ﷺ قال : من لم يسأل الله يغضب عليه ، يالله ! سبحانك ربي ما أعظمك ، وما أكرمك ، وما أوسع فضلك وأسبغ نعمك ، تأمل أخي هذا الحديث ، وقف أمامه ، ثم قارن بين البشر ورب البشر ، بين مخلوق ضعيف فقير يغضب إذا سألته ، والخالق الغني الكريم الذي يغضب عليك إن تركت سؤاله ، إن المعنى اللطيف الدقيق الذي التقطه هذا العبد الصالح ثم قدمه إليك منظوما في بيتين من الشعر غاية في الروعة ، فإن استطعت أن تحفظهما فافعل لتظل يدك ممدودة إلى مولاك ، معرضة عن سؤال فقير مثلك ، يطرق الباب كما تطرق ويطلب من مولاه كما تطلب **يقول الشاعر :**

لا تسألن بنى آدم حاجـــــة　　　وسل الذي أبوابه لا تحجـب
الله يغضب إن تركت سؤاله　　　وبنى آدم حين يسأل يغضب

نعم أيها الرجل ، قد والله صدقت ، إن ابن آدم يغضب عند السؤال ، ويعرض بوجهه عندما تمتد إليه يد ، أما الذي برأ آدم وذرية آدم ، ورزق آدم وبنى آدم ، فإنه لا يغضب على أحد غضبه على من أعرض عنه وسأل غيره ، وهل يليق بعاقل أن يطرق بابا مغلقا قد يفتح أو لا يفتح ، ويترك بابا مفتوحا صاحبه قريب ، وقاصده لا يرد ؟ وهل من الصواب أخي أن تترك بيت غنى غناه ظاهر ، وعطاؤه وافر ، وكرمه منظور وفضله مشهور ، إلى بيت فقير مثلك ظهر فقره واشتهر بين الناس بخله ؟ لا أيها

الحبيب اللبيب ، فالفقير لا يسأل فقيرا ، وإذا مد الفقير يده فإنما يمدها لغنى ظاهر الغنى حتى لا تعود فارغة ولا تنقلب خائبة ، ولقد كان يحيي بن معاذ –رحمه الله تعالى– فقيها عندما راح يدعو مولاه بهذا الدعاء : يا من يغضب على من لا يسأله ، لا تمنع من قد سألك [1] ، الله أكبر ، اقرآ أخي هذا الدعاء ، ثم ادع به في خلوتك ودع معناه يمرق إلى قلبك ، فإني أخاف على عقلك أن ينبهر وعلى قلبك أن ينفطر ، فأسأل ربك الثبات أمام نفحات الصالحين ، والصبر على معاني الربانيين .

وحياء الرب يغرى

إن مما يحرك النفس للدعاء ، ويدفع المرء أن يمد كفه نحو السماء ، يستنزل النصر إن كان في معركة ، ويطلب العافية إن كان في شدة وبلاء ومرض ، ويسأل ربه التوفيق إن كان على مفترق أو في بداية طريق ، أقول أخي الحبيب ، إن ما يحرك النفس إلى الدعاء ويشوق القلب إليه : حياء الرب سبحانه ، نعم والله ، تخيل هذا وتصوره جيدا ولا تتعجب ، فحياء الرب يغري ، وكرمه الذي لا حدود له يدفع الصالح والطالح إلى السؤال ، ويهيج البار والفاجر إلى رفع اليد وبسط الكف ، وهذا ورب السماء والأرض ليس كلامي ، وإنما هو نفحة من نفحات شيخ الإسلام ابن القيم نور الله تعالى قبره ، ورفع قدره ، وأعلى في الجنة درجته ، حيث يقول– وفي قوله للنفوس صلاح وللأبدان شفاء – : (**ومما يغرى النفوس بالدعاء : حياء الرب تعالى من عبده ، فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول ، فإنه حياء كرم وبر ، وجود وجلال ، فإنه تبارك وتعالى حي كريم ، يستحى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا ، ويستحى أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام ، وكان يحيي بن معاذ يقول : سبحان الله ! يذنب العبد ويستحى هو**)[2] ، يا الله سبحانك ، بالله يا أخي الحبيب : اقرأ هذا الكلام مرة بعد مرة ، وأعد القراءة فإن ربك لا محالة سيفتح لك من المعاني ما يعينك على فهم تلك المقامات وإدراك هذه المنازل ، وقف وأنت تقرأ أمام قوله : إنه حياء كرم وبر ، وجود وجلال ، فهو يجيب قبل أن نسأل : وهل يستحى

---

(1) صفة الصفوة جـ 4 صـ 66 . ابن الجوزى .

(2) مدارج السالكين جـ 2 . صـ 272 .

الرب جل وعلا وما نوع هذا الحياء ؟ ويا له من رباني أنار الله تعالى بصره وهدى بصيرته ، فألهمه الجواب قبل أن نطرح السؤال ، إنه حياء الكريم يستحى أن يرد يدا مدت إليه ، أو أن يخيب رجاء عبد تعلق رجاؤه به ، ثم قف مرة أخرى عند قول يحي بن معاذ : سبحان من يذنب عبده ويستحى هو ، ولله در يحي وإخوان يحي من الربانيين الذين صفت قلوبهم وسمت أرواحهم فألهمهم ربهم الحكمة تجرى على ألسنتهم وتفيض من قلوبهم ، سبحان من يذنب عبده ويستحى هو ، فيارب أنا أحق بالحياء فأنا رب الذنب وصاحبه ، أنا المذنب بالليل المسيئ بالنهار ، والمفرط في جنبك على مدار اليوم والليلة ، أفأذنب أنا وتستحي أنت ؟ سبحانك عز جاهك وعظم سلطانك ، وجلت حكمتك ، أدنس بالذنب عرضي وألطخ بالفاحشة ثوبي ، وأسود بالمعصية صحيفتي ، ثم .... ثم تستحي أنت ؟ يا مولاي وسيدي ، يا ولي نعمتي إن لطفك لا حدود له ، وكرمك لا ينتهي ، وعطاؤك لا ساحل له ، وحياؤك لا سقف له ، تستحي منى وأنا أحق بالحياء منك ؟ تمن على بالإجابة على ما كان منى من جهل ؟ وتتحبب إلى بالنعم وأنا المسيء الذي يبارزك بالمعاصي ؟ وتتفضل على بأنواع الهبات وأشكال العطايا وشري إليك صاعد على الدوام لا يتوقف ؟ يا قلة حيائي منك أيها الملك ، أنا المخلوق وأنت الخالق ، مني الذنب ومنك العفو ، منى الإساءة ومنك الصفح ، فأنا بظلمي وجهلي أهل المعصية ، وأنت بكرمك وجودك وحكمتك وحيائك أهل المغفرة ، فلا تعاملني بما أنا أهله ، ولكن بما أنت أهله ، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة لا إله إلا أنت .

وقفة مع آية

إن حياء الرب يغرى بالدعاء ، وقربه يثير في المسلم الشوق إلى رفع اليد وبسط الكف ، وأنت عندما تدعو ، فإنما تدعو قريبا ، وعندما تسأل فإنما تسأل مجيبا ، وصف نفسه بأنه قريب وضمن لك مع السؤال الجواب ، وعند النداء العطاء ، فإذا أعرض عنك مخلوق فدعه ، وتوجه إلى الخالق ، وإذا أغلق بشر بابه دونك ، فثم رب البشر ، بابه مفتوح لا يغلق آناء الليل وأطراف النهار ، فلا حارس عليه ولا حاجب ، وهو القائل سبحانه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى

قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾ [البقرة:186] ، وعند تفسيره لهذه الآية يرسم سيد رحمه الله تعالى لوحة فريدة بقلمه ، ويصورها بريشته ، ويجسد المعاني القرآنية لتصير حية تتحرك في تناسق بديع وتجانس عجيب فانظر ماذا يقول : (**أية رقة ؟ وأي انعطاف ؟ وأية شفافية ؟ وأي إيناس ؟ وفي كل لفظ في التعبير في الآية كلها تلك النداوة الحبيبة ... "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان " إضافة العباد إليه والرد المباشر عليهم منه ولم يقل : فقل لهم : إني قريب ، إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال " قريب " ولم يقل : أسمع الدعاء ، وإنما يعجل بإجابة الدعاء " أجيب دعوة الداعي إذا دعان " إنها آية عجيبة ، آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة والود المؤنس والرضى المطمئن ، والثقة واليقين ، ويعيش منها المؤمن في جناب رضي وقربى ندية ، وملاذ أمين وقرار مكين**) (1) .

ألا تشارك سيدا رحمه الله رأيه في أنها آية عجيبة ؟ إنها والله كذلك ، وصدق سيد ، والآن أخي أعد قراءة هذه الآية ، وعش معها بعقلك ، وافتح لمعانيها قلبك ، وحلق معها في آفاق من الندى والرضى ، وسماوات من الإيمان والإحسان ، فذلك مقامك ، وهنالك أيها الحبيب مكانك ، ولم لا ؟وأنت تلميذ سيد ، ومن إخوان سيد ، على الدرب تسير وفي ذات الطريق تمضي وتصل الليل بالنهار ، وتستمد من سيرته الثبات ، ومن نفحاته اليقين ، حتى تدرك على الدرب إحدى الحسنيين : إما أهازيج النصر ، أو ترانيم الشهادة ، ويومها يفرح المؤمنون ، ويهنأ بالنصر الموحدون ، ويخسأ الشيطان وجند الشيطان وحزب الشيطان.

وهذه أختٌ لها

وتتوالى الآيات ، وتتواصل العطايا والهبات ، تمطر الروح بالنفحات ، وتملأ القلب باليقين والرضا والسلام والسكينة ، وهذا شأن القرآن الكريم أخي في كل وقت ، آياته جديدة وروحه وثابة ، ومعانية بحور بلا شطآن ، وعطاؤه بلا حدود ، وإذا كنا قد وقفنا مع آية سبقت ، فهذه أخت لها لا يسعنا إلا أن نقف أمامها ، نقلب الطرف فيها ، ونبلل الروح بنداها ، ونحي القلب

(1) في ظلال القرآن . جـ1 صـ 173.

الذي ران عليه الذنب وأحاطت به خطاياه بجميل معانيها ، فاسمع واقرأ وتدبر ، فأنت في روضة الدعاء ، أمام بحر زاخر ، وروض أنف ، وسماء لا تطال ، فيها من الأعاجيب كثير ، ومن الدواء والشفاء ما يكفى ويشفى ، ويسمن ويغنى ، فاقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:60] نعم أخي اقرأ وسأقرأ معك ، فأنا أشعر بها غضة طرية كأنها الآن نزلت ، وكأني لم أقرأها قبل اليوم ، أما عند الحديث عن معانيها وعطاياها فأدع سيدا رحمه الله تعالى يتكلم فهو أفصح منى لسانا ، وأزكى نفسا وأبر قلبا ، وأوسع علما ، وأعمق فهما وأعظم فقها ، وإذا تكلم سيد ، فليسمع الكل ولينصتوا ، فإنه لا محالة آت بخير الكلام وطيب الثمار ، يقول رحمه الله : (**والتوجه إلى الله بالعبادة ، ودعاؤه ، والتضرع إليه مما يشفى الصدور من الكبر الذي تنتفخ به ، فيدعوها إلى الجدال في آيات الله بغير حجة ولا برهان ، والله سبحانه يفتح لنا أبوابه لنتوجه إليه ، وندعوه ، ويعلق لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه ، وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس في النار**) (1).

وأمام تلك اللوحة التى رسمها سيد نتوقف ، نتوقف لنتأمل ونتعظ ، ثم نرفع الأيدي سائلين المولى الذي يغضب على من لا يسأله ، **يدفعنا إلى السؤال خوف ورجاء** :

أما الخوف فمن الكبر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر:60] فالذي لا يرفع يده ويسأل ربه أحد **رجلين** :

الأول : غافل ، فهو كالأنعام بل أضل .

والثاني : متكبر يستنكف أن يمد يده لمولاه.

وكلا الرجلين جزاؤه جهنم ، يساق إليها مذموما مخذولا ، أما أنت أيها الحبيب فلست غافلا : فالغفلة صفة القاعدين الذين لا يصلحون دنيا ولا ينصرون دينا ، ولست كذلك متكبرا ، فالكبر لا يليق بك وأنت ابن دعوة تطلب النصر بالفقر ، وترجو العزة بالذل ، الفقر لله والذل للخالق لا للمخلوق. وأما الرجاء أيها الحبيب ،

---

(1) نفس المصدر جـ 5 صـ 3091 .

فهو الطمع في الأبواب التى لا تغلق ، والرحمة التى وسعت كل شيء ، والفضل الذي يعم الخلق جميعا ، المؤمن والكافر ، البار والفاجر ، والصالح والطالح ، وحسبك أن تقرأ : ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ثم تستحضر ما ذكره الإمام القشيرى في لطائفه وهو يدندن حول هذه الآية قائلا : ويقال : ادعوني بالسؤال. استجب لكم بالنوال والإفضال ، ويقال : ادعوني بالتنصل ، استجب لكم بالتفضل [1] .

الدعاء قسمان

الأول : دعاء المسألة .

والثاني : دعاء العبادة.

وهذا التقسيم ليس وليد ذهني ولا ثمرة فكرى ، وإنما يأتيك به شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله وهو يأبي دائما إلا أن يتحفنا بمعانيه ، وينفحنا بخواطره التي هو في الأغلب لم يسبق إليها ، بل كان دائما هو السابق وله الفضل على اللاحق ، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء يقول رحمه الله شارحا المعنى المراد بكل قسم من أقسام الدعاء : (**ودعاء المسألة هو : طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه ، وكل من يملك الضرر والنفع فإنه المعبود بحق . أما دعاء العبادة فهو الذي يتضمن الثناء على الله بما هو أهله،ويكون مصحوبا بالخوف والرجاء**) [2].

نحن إذن أيها الحبيب في الدعاء أمام روضتين لا واحدة ، فلا يضرك بأيها نزلت ، وعلى أي منها حللت وتقلبت : روضة الطلب ، تسأل فيها ما تشاء ، وتطلب ما تحب ، والكريم منك قريب ، ولقلبك طبيب ، ولدعائك سميع مجيب ، يكشف الضر ، ويمنح العافية ، ويجود بالمعروف ، ويتفضل بالإنعام.

ثم روضة الثناء ، تحمد فيها مولاك ، وتثنى على ربك فهو أهل الثناء والمجد ، وأهل أن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يطاع فلا يعصى.

هاتان أيها الحبيب روضتان للدعاء ، لن يضرك أبداً بأيها نزلت ، وحططت رحالك وتريضت ، ولكن دعنى أهمس في أذنك ، وأنت من الرواحل التى تحمل القوم ، وتجر

---

(1) لطائف الإشارات . جـ 3 صـ 313 . ط الهيئة المصرية للكتاب .

(2) التفسير القيم . صـ 243 .

الخلق إلى الإصلاح جرا ، وتأطرهم على الحق أطرا ، دعني أهمس في أذنك : عليك بأعلى المنزلتين وأزكى الروضتين وأحب القسمين إلى ربك ، وهو الثاني ، فاشغل نفسك بالثناء يمدك مولاك بما تشاء ، ويجزل لك العطاء ، وأكثر من التسبيح والتنزيه والحمد والتمجيد ، يمنحك ما تطلب ، ويعطيك ما ترغب ، وتذكر دائما ما حكاه لك كعب الأحبار حيث يقول : إنا نجد في كتاب ربنا المنزل على أنبيائه : إن الله تبارك وتعالى يقول : من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيه فوق ما أعطى السائلين(1) .

شروط القبول وأجنحة الوصول

ونعيش الآن أخي مع جملة أسباب ، تساعد على فتح الأبواب ، أسباب تعجل القبول ، وتعين أصحاب الأيدي الممدودة ، والأكف المتضرعة على الوصول ، وهي وقفة مهمة لا بد منها ، ولا يجدر بنا ونحن في روضة الدعاء أن نتجاوزها حتى نعلم ونتعلم ، ونذكر ونذكر ببعض الآداب المعينة على رفع الحجاب ، وجملة من الأسباب تساعد على فتح الأبواب ، لينطلق الدعاء دون حاجز فيخترق السبع الطباق ثم يصل إلى العرش ، في الوقت الذي يدور صاحبه فيه على الأرض أو يتقلب على الفرش.

أولاً تخير الوقت

هذا أول أدب من آداب الدعاء، وأول ريشة تركب في جناحه ، أن تتخير الوقت ، وتغتنم أوقاتا بعينها ، فإذا كان الدعاء مطلوبا في كل حين ، وعلى آية حال ، فإن للقبول أوقاتا هو فيها أرجى ، وهي به أنسب وأليق ، فيوم الجمعة ووقت السحر ، وعند نزول المطر ، وفي يوم عرفة ، ورمضان وليلة القدر ، إلى غيرها من الأوقات المرطبة بالنفحات ، والمحملة بالخيرات ، وأوصى نفسي وأوصيك أيها الحبيب بوقت السحر ، فوقت السحر دواء كافي ، وبلسم شافي ، غال ثمنه ، مرتفع سعره ، قليل طلابه ، كثير خيره ، ظاهر فضله ، وإنما أغلاه ورفع سعره نزول الملك فيه ، نزولا يليق بجلاله ، ليعرض فضله ،

(1) تنبيه الغافلين . صـ 229 . الإمام السمرقندى .

وينشر رحمته ، ويقول – كما في صحيح مسلم وسنن الترمذي – : أنا الملك . أنا الملك . من ذا يستغفرني فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر ، ولأجل هذا كان الصالحون يضنون بهذا الوقت أن يضيع في النوم ، أو يهدر في اللهو ، وتأمل حال هذا العبد الصالح ، ثم اضرب كفا بأخرى من التعجب ، وقل : سبحانك يا من خلقت هذا وأضرابه من الربانيين الذين برهنوا للدنيا على عظمة الإسلام وريادة المسلمين ، بإخلاص النية وصدق الهمة وإحسان العمل ، فقد روى أن طاووسا جاء في السحر يطلب رجلا ، فقالوا : هو نائم ، فقال ما كنت أرى أن أحدا ينام في السحر [1]. سبحان الله !! ما كنت أرى أن أحدا ينام في السحر ، نعم أخي ، وكيف ينام عاقل في وقت يتجلى فيه المليك على عباده ، ويتنزل عليهم برحماته ، ويفيض عليهم برضوانه ؟ وهل تذكر هذه المرأة أخي ؟ هل تذكر تلك الربانية التى قيل لها : ألا تنامين ؟ – وقد أكثرت من القيام – فقالت : وكيف أنام وحبيبي لا تأخذه سنة ولا نوم ؟ يا الله ما أروع هذا المعنى ، وما أعظم هذه المنزلة ، نحن هنا أمام قمة عالية ، وأفق لا يكاد يطال ، لا يتثنى لآحاد الناس أن يسبح فيه أو يرتقيه ، فهؤلاء تلاميذ مائدة القرآن ، وطلاب مدرسة الحبيب ﷺ صاروا من بعده أئمة الدنيا ، فبهداهم اقتدى ، ورحم الله الشافعي حيث قال.

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما تـدرى بما صنـــع الدعاء
سهام الليل لا تخطـى ... ولكن لها أمد وللأمد انقضاء

ثانيا غض الصوت أدب

إن ربك أدنى إليك مما تتصور ، وأقرب إليك – كما يقال – من حبل الوريد ، فإذا جلست للدعاء وبسطت كف الرجاء فكن على يقين أن ربك قريب ، يسمع دعاءك ويرى مكانك ، فاحذر الاعتداء في الدعاء ، واخفض صوتك ، حتى تشعر براحة القرب ، ولذة الوصل وحلاوة الدعاء ، وإذا كانت الحكمة ضالة المؤمن فخذها ولو من أعرابي يحسن السؤال ليظفر بحسن الجواب وفصل الخطاب ، فقد ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره أن أعرابيا قال : يا

(1) حلية الأولياء . جـ 4 صـ 6 .

رسول الله : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ، فسكت النبي ﷺ . فأنزل الله تعالى قوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:186] فربك أخي قريب ، ومولاك ليس بينه وبينك مسافة ، وكلما أخفيت الدعاء ، كلما تذوقت معنى القرب ، وطويت في نفسك مراحل البعد ، وهذا سلوك الأنبياء ، وما خبر زكريا عليه السلام ببعيد ، وبدايات سورة مريم لها حلاوة وعليها طلاوة ، وسأتركها تحدثك عن نفسها ، يقول تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم:3،2] أكمل قراءة الآيات وعش معها محلقا ، ثم انظر ماذا يقول فيها سيد رحمه الله تعالى : (**إنه يناجى ربه بعيدا عن عيون الناس ، بعيدا عن أسماعهم ، في عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ، ويكرب صدره ، ويناديه في قرب واتصال ، " رب " بلا واسطة حتى ولا حرف نداء ، وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ، ولكن المكروب يستريح إلى البث ، ويحتاج إلى الشكوى ، والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر ، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم ... " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم " ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى هو أقوى وأقدر ، وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه**) [1].

ألا تلاحظ أخي ، أننا مع سيد في ظلال وارفة ، وعيون جارية ؟ إنه يحلق بنا في آفاق من الربانية عال لا يدركه إلا أصحاب القلوب الحية والنفوس التواقة ، فأخفض عند الدعاء صوتك ، وناد في خفاء ربك كما فعل العبد الصالح زكريا ، واعلم أن في إخفاء الدعاء **فوائد منها أنه** :

1 – للإخلاص أدعى .
2 – وفي الخشوع أبلغ.
3 – وإلى الأدب أقرب .
4 – وفي اليقين أعظم ، لأن صاحبه قد وقر في صدره أن ربه قريب يسمعه.

---

(1) في ظلال القرآن . جـ 4 صـ 2302 . سابق .

ثالثا والبس مسوح الفقر

أخي هل رأيت السائل كيف يبدو ؟ هل رأيت هيئته ؟ إن يده ممدودة ، وكل عضو في جسده يقول : أنا الفقير ، ولذلك لا تخطؤه العين ، ولا يجاوزه البصر ، ونحن أخي أمام الخالق ذلك الرجل ، فقراء نتسول الفضل من صاحب الفضل ، ونرجو النوال من صاحب الأفضال ، نعم أخي كلنا ذلك الفقير الذي وصفه الإمام ابن القيم بقوله : (**الفقير هو الذي حاجاته إلى الله بعدد أنفاسه أو أكثر ، فالعبد له في كل نفس ولحظة وطرفة عين حوائج إلى الله لا يشعر بكثير منها ، فأفقر الناس إلى الله من شعر بهذه الحاجات ، وطلبها من معدنها بطريقها ، إن هذا الفقر الذي يجلل الإنسان في كل لحظة ، ويملك عليه كل خلجة من خلجات نفسه ، هو أفضل ما تقرب به العبد لربه ، وخير ما توسل به المخلوق لخالقه ، يقول أبو حفص : أحسن ما توسل به العبد إلى مولاه : دوام الفقر إليه على جميع الأحوال ، وملازمة السنة في جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال**) (1) ، يا الله على الحكمة حين تفيض سلسبيلا على ألسنة الفقراء ، إنهم والله قوم أظهروا لله فقرهم ، وشكوا إلى مولاهم ضعفهم ، فأغناهم من فضله ، وحباهم من نعمه ، ودفع عنهم كل مكروه وسوء ، إنها إذن ثلاثة أشياء يحتاج إليها كل سائل ، **ويفتقر إليها كل طالب** :

1 – إظهار الفقر .
2 – التزام السنة.
3 – أكل الحلال .

فإذا تمكن من قلبك معنى الفقر ، واستشعر كل عضو فيك حاجته إلى مولاه ، فمد يدك كحال السائل ، واجلس كما يجلس المسكين ، واسأل سؤال الخاشع الذليل ، وعندها ستأتيك النفحات ، وتتنزل عليك الرحمات وتأمل هذا الخبر : ذكر أن أبا سليمان الداراني رحمه الله تعالى قال : كنت ليلة في المحراب أدعو ويداي ممدودتان ،

---

(1) طريق الهجرتين . صـ 46 . مصدر سابق .

فغلبني البرد ، فضممت إحداهما وبقيت الأخرى مبوسطة أدعو بها ، وغلبتنى عينى فنمت ، فهتف بي هاتف : يا أبا سليمان ، قد وضعنا في هذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها ، قال : فآليت على نفسي ألا أدعو إلا ويداي خارجتان حرا كان أو بردا [1].

رابعاً واطرق بكف الذل

ثم اطرق الباب أخي ، لكن بكف الذل ، وأصابع المسكنة ، واخضع لربك واخشع لمولاك وفتش في قلبك عن كل ذرة من كبر فاغسلها بماء الذل ، وطيبها برحيق الفقر وعبير المسكنة والانكسار للواحد القهار ، فإنك إن فعلت ، نظر إليك مولاك ، ومن نظر إليه مولاه رحم ضعفه وجبر كسره ، وأغنى فقره ، وقضى حاجته ، وسد فاقته ، وأعطاه سؤاله ، هذا هو طريقك أيها الحبيب ، ولا طريق غيره ، وإلا كان نداؤك صرخة في واد ، ودعاؤك نفخة في رماد لا يحقق غاية ، ولا يمضى إلى نهاية ، وما أجمل ما يقوله ابن القيم في وصف الطريق إلى القبول :(**فمن أراد الله به خيرا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجوء إلى الله تعالى ، والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده ، فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين ، لا يمكنه أن يسير إلا بهما ، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه**)[2].

إن أعظم آداب الدعاء أيها الفقير ، أن تري ربك كل شيء وألا ترى نفسك أصلا ، إلا بجهلها وفقرها وتمردها وعصيانها ، فنفسك إذن هي العقبة الكؤود بينك وبين أسباب الإجابة ، فأسقط هذه العقبة ، تفتح لك السماء أبوابها ، وتمدك الأرض بخيراتها ، ويعطيك مولاك مما سألت ومما لم تسأل ، ولله در ابن عطاء الله حيث يقول في المحفوظ من حكمه : ما الشأن وجود الطلب ، وإنما الشأن أن ترزق حسن الأدب ، الله أكبر ، أظن أخي الحبيب أنه قد آن لنا أن ندرك أن حسن الأدب هو مفتاح القبول عند الطلب ،

(1) البداية والنهاية . جـ5 صـ 787 . ابن كثير .

(2) الوابل الصيب ، صـ 14 . دار الكتاب العربي .

ولكن تعالى نكرر هذا القول ، ونعيد قراءة هذه الجملة : إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب ، أجرها على لسانك ، وأدرها في عقلك ، وتدبرها بقلبك ، وحاول أن تقبض بيدك على ما طاب من معانيها ، وسأقرب لك المعنى ، فمن حسن الأدب أن تمد يدك كحال السائل الفقير ، وأن تخشع نفسك كهيئة الطالب الذليل ، وأن ينكسر قلبك انكسار المساكين على أبواب الأغنياء كحال هذا العبد الصالح الذي قال عنه ابن رجب رحمه الله : وقد كان بعض الخائفين يجلس بالليل ساكنا مطرقا برأسه ، ويمد يديه كحال السائل ، فتأمل هذا المشهد أخي ، إنه يقضي الليل على حال واحدة ، فيجلس في سكون وصمت ، رأسه إلى الأرض ، ويده نحو السماء ، لا يسأل شيئا بلسانه ، وحاله تنطق بكل شيء ، حبس الخوف لسانه ، وأغلق الحياء فمه ، ولكن كل جارحة من جوارحه تصرخ قائلة : مولاي ، أنا الفقير إليك .

خامساً اعترف ولا تكابر

وعليك أخي الحبيب قبل أن تطرق الباب ، أن تقدم بين يدي ذلك إقرارا بالذنب ، واعترافا مفصلا بالتقصير ، واسترجع أحداث يومك وليلتك ، وأعد النظر في تاريخك القريب والبعيد ، كل هذا بينك وبين نفسك ، ثم اعترف : كم فريضة ضيعتها ؟ وكم نافلة نمت عنها ؟ كم من خير دعاك مولاك لتسارع فيه فقعدت عنه ، وفي المقابل أخي : كم من ذنب فعلته ؟ وكم من إثم ركبته ؟ وكم من مخالفة دعاك مولاك للابتعاد عنها فسارعت فيها ؟ أظن أن مثلي ومثلك لو فتح هذا الباب فلن يغلق ، فلن تستطيع العد ولا الحصر ، فلا أقل من الاعتراف بالذنب والإقرار بالعيب ، ونسبة الشر إلى النفس والخير إلى الرب ، فلعلنا ندرك بذلك ما خسرناه بتقصيرنا في حق الله وتفريطنا في جنبه ، واقرأ معي هذا الخبر : يقول الإمام الأوزاعي رحمه الله : خرج الناس يستسقون ، وكان فيهم بلال بن سعد – من خيار التابعين – فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر ، ألستم مقرين بالإساءة ؟ قالوا : بلى ، فقال : اللهم إنا سمعناك تقول : ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن

سَبِيلٍ ﴾ [التوبة:91]وقد أقررنا بالإساءة ، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا ؟ اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا ، فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا (1).

وإنه لمشهد معبر ، ولوحة مؤثرة ، فتأمل سؤاله العبقري : ألستم مقرين بالإساءة ؟ إنه سؤال ملهم ، يحدد الطريق التي لا طريق سواها نحو أبواب السماء ، وبركات الأرض ، فاللهم رب السموات والأرض إنا مقرون بذنوبنا ، معترفون بتقصيرنا ، فاجبر إله العالمين كسرنا ، وارحم ضعفنا وتقصيرنا ، فلا رب لنا سواك ، ولا إله لنا غيرك ، وطمعنا في رحمتك بلا نهاية ، وحسن ظننا بك لا حدود له ، فأدخل عظيم ذنوبنا في عظيم عفوك يا كريم.

واعلم أيها الحبيب أن أبواب السماء لا يسدها ، وآفاق الرجاء لا يحجبها مثل الذنب ، فالذنوب في شجار دائم ، ومعركة أبدية مع الإجابة ، معركة ميدانها الأفق ، وساحتها عنان السماء ، تنزل الإجابة فيستقبلها الذنب ويبدأ الصراع ، فإذا لبست ثياب الفقر ، وأحسست بشدة الحاجة إلى مولاك ، فأحدث قبل الدعاء توبة بشروطها ، ولا تقل – بغفلة – مما أتوب ؟ فتقصيرنا في جنب الله واضح ، وقعودنا عن الطاعة وأوامر المولى فاضح ، وتجرؤنا على المعصية صارخ وظاهر ، وكل نفس يدخل الصدر أو يخرج شاهد على ذنب لنا أو خطيئة ، وجوارحنا كالرحى تطحن المعاصي ليل نهار دون كلل أو ملل ، ثم تسأل أيها الحبيب : مما أتوب ؟ إن التوبة لازمة لك مع كل نفس ، ومع التوبة يأتي الفرج ، وسل سفيان الثوري يأتيك بالخبر ، ويتحفك بهذه اللوحة : (**بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين ، حتى أكلوا الميتة من المزابل ، وأكلوا الأطفال ، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم : لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفى ركبكم ، وتبلغ أيديكم عنان السماء ، وتكل ألسنتكم من الدعاء ، فإني لا أجيب لكم داعيا ، ولا أرحم لكم باكيا ، حتى تردوا المظالم إلى أهلها ، ففعلوا فمطروا من يومهم**) .

---

(1) الأذكار للإمام النووي صـ 612 .

فإذا كانت المظالم تمنع الإجابة ، فإن كل واحد من أخواتها يفعل مثل ما تفعل ، فاللقمة الحرام تمنع الإجابة ، والنظرة الحرام كذلك ، والكلمة الخبيثة تمنع الإجابة ، والظن السيئ كذلك ، وهكذا دواليك ، فاتعظ ولا تكن من الغافلين.

سابعا وقدم عملا صالحا

أيها الأخ الحبيب ، يا رفيق الرحلة ، وأنيس الدرب ، وشريك المحنة والمنحة ، إن العمل الصالح يرفع الدعاء ، ويحمله إلى عنان السماء ، حتى يصل إلى العرش ، فلا يزال يطوف به طواف الموحدين حول البيت ، حتى إذا وجد صاحبه في بلاء فيدفعه ، أو في خير فينفعه ، فإذا وفقت لطاعة ، أو رزقك مولاك عملا صالحا ، فارفع بعده يدك وسل مولاك من فضله العظيم ، وخيره العميم ، ورحمته الواسعة ، ونعمته السابغة ، فإن أبواب السماء مفتوحة ، والمولى الكريم إذا استعمل عبدا في طاعة ، قبل منه الدعاء في ذات الساعة ، وكان ما قدمه من عمل شفيعا له إذا عزت الشفاعة ، وتأمل هذا الخبر العجيب ، وأعلم أن الله تعالى لا يضيع إحسان المحسنين روى عن ابن عباس ﷺ قال : أتى سائل امرأة وفي فمها لقمة ، فأخرجت اللقمة وناولتها للسائل فلم تلبث أن رزقت غلاما ، فلما ترعرع دخل خباءها ذئب فاحتمل ولدها في فمه ، فخرجت تعدو في أثر الذئب وهي تقول : يا رب ابني ، ابني ، فأمر الله تعالى ملكا أن يلحق بالذئب ويأخذ الصبي من فمه ، ويقول لأمه : الله يقرئك السلام ويقول لك : لقمة بلقمة [1] .

صدق أخي أو لا تصدق ، ولكن المعنى واضح ومقرر : أخرجت اللقمة من فمها فوضعتها في فم السائل ، فأخرج الله ولدها من فم الذئب ووضعه في حجرها جزاء وفاقا ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

قدم تجد : إن أي القرآن حق ، ودلائل صدق على ما نقول ، وقد جاءك نبأ يونس عليه السلام عندما سقط في بطن الحوت ، واحتوته ظلمات ثلاث : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ، فماذا كان من أمره ؟ سأدع القرآن يحكى ، يقول الله تعالى :

---

(1) في ملكوت الله . صـ 78 . عبد المقصود سالم . مطبعة الشمرلى .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:87]، فلم يتأخر الرد ، وجاء في وقته ، ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:88]، أتدرى أيها الحبيب لماذا جاءه الرد وأسرع إليه الجواب ؟ إن القرآن يتكفل بالجواب ، يقول مولانا عز وجل : ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الصافات:143،144] ، لقد قدم لنفسه في الرخاء عملا نفعه يوم تقلبت الأمور ، وتبدلت الأحوال ، وحلت الشدة محل الرخاء ، فلولا أنه قدم لنفسه لظل في هذا الضيق يعيش إلى يوم يبعثون ، واسمع نصائح القوم فإنها من مشكاة الوحي تخرج ومن حول العرش تنزل ، فتأتى معها بالروح والريحان والعافية والشفاء ، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك قال: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، فإن يونس كان عبدا صالحا ذاكرا لله ، فلما وضع في بطن الحوت قال الله تعالى : ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ . تأمل هذا أيها الحبيب ثم قارنه بما بعده : وإن فرعون كان عبدا طاغيا ناسيا لذكر الله فلما أدركه الغرق قال ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:90] ، فقيل له : ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [يونس:91] ، ووالله إن في ذلك لعبرة ، ولكن أين الذين يعتبرون ؟ فابعث أخي بين يدي نجواك عملا صالحا يمهد للدعاء طريقه ، ويفتح له الأبواب فذلك دأب الصالحين وسنة النبيين ، وأنت وارث علم النبوة ، ورائد إلى الإصلاح ، فخذ بأسباب الفلاح وقدم لنفسك خيرا .

ثامنا وأخيرا لا تنس

وأختم هذه الجملة من الآداب أيها الحبيب ، بسيد الآداب كلها ، فحذار ثم حذار أن تغفل عنه أو تنساه ، أتدرى ما هو ؟ إنه الأدب الذي يسبق الدعاء ويلحقه ، ويأتى قبله ولا بد كذلك يأتى بعده ، وأقصد : ذكر الله وشكره والثناء عليه ببعض ما هو أهله ، ومع الثناء على المولى وذكره وشكره لا بد من ذكر الحبيب ﷺ بالصلاة عليه

فإن الدعاء لا يجاوز رأسك حتى تصلي عليه ، وإلا فلم نفسك وحدها إن أخطأتك الإجابة أو تأخرت ، فعن فضالة بن عبيد الأوسي قال : سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو في صلاته لم يحمد الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال : عجلت أيها المصلى ، ثم علمهم رسول الله ﷺ ، " وسمع رسول الله ﷺ رجلا يصلى فمجد الله وحمده وصلى على النبي ﷺ فقال ﷺ : ادع تجب وسل تعط[1] . فإياك أن تعجل ، وتمهل ثم تمهل ، ومجد ربك وصل على حبيبك ﷺ ثم ادع بعدها وأنت على يقين بالإجابة.

لقد أدرك سلفك والذين سبقوك بإحسان ما لهذا الأدب من تأثير في قبول الدعاء ، فراحوا يبعثون إليك الهدية بعد أختها ، ويرسلون لك الإشارة بعد الإشارة ، لتفهم منهم ، وتستقبل منهم ، يقول عمر ﷺ : إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك[2] ، فخذ بهذا الأدب ولا تتردد ، وتمسك به تسعد فإن الثناء خير من الدعاء ، ومن شغله الذكر عن المسألة نال ما لم ينله السائلون من الخير والأجر ، فما بالك إذا جمعت بين الحسنين ، فأثنيت ثم دعوت ، فتأدب أخي بهذه الآداب وانتظر بعدها " **أستجب لكم** " ولا تنس أخاك بدعوة هو أفقر الخلق إليها.

ثم احذر الموانع

كلنا فقير ، وكلنا يمد يده ، يسأل ويطلب ، يدفعنا الأمل ويحدونا الرجاء ، أن نتعلم لنعلم ، وأن نعمل اليوم ما ينفعنا يوم الحصاد ، فعليك بالدعاء أخي ، فهو سلاحك ، وهو حصنك ودرعك ، واحذر في هذا المقام عدة موانع ،ترد الإجابة أحيانا أو تؤخرها ، ومصيبة أن تحرم الإجابة وعذاب أن تتأخر عنك ، وقد رصد الربانيون هذه الموانع ، وقدموها إليك لتتجنبها ما استطعت ، أو تتخطاها إن استطعت ، وهاأنذا أذكرك بها واحدة بعد الأخرى ، وتذكر دائما أن هدايا القوم أثمن من أن تلقى ، وأعظم من أن تهمل ، وإنك إن فعلت ، فلم نفسك وحدها ، وإن تأخر عنك الجواب فلا تسل لما تأخر ، ولكن تذكر " **قل هو من عند أنفسكم** " .

---

(1) أبو داود والنسائي ، حديث حسن .

(2) رواه الترمذي .

المانع الأول لا تعجل

إن الدعاء أيها الحبيب شفاء ، فهل استطعت أن تدرك ذلك ؟ أم أنك لا زلت تستثقله ؟ إنها والله حقيقة دينية ، وقاعدة شرعية ، وتجربة بشرية ، فإفراغ الهم يترك القلب في سلام ، وبث الوجد يملأ الصدر سكينة ، وشرح الحاجة يعود على النفس بالصبر والرضا ، فإذا نزلت بساحتك الهموم ، وأحاطت بك النوازل ، ورماك الدهر بالدواهي ، وعجز الظهر ، وضاق الصدر ، وتألم القلب وباتت النفس على بعد خطوات من اليأس والاستسلام ، فقط جرب أن تمد يدك ، وتفتح قلبك ، وأن تبث لمولاك شكواك ، فالشكوى راحة ، وبث الهموم باب إلى السلام والسكينة ، فإذا شكوت استرحت ، وأطفأت نارا توشك أن تحرق ، وأوقفت طوفانا يوشك أن يغرق ، وهذا لا شك ربح عظيم ، ثم يأتيك الجواب بعدها زيادة من مولاك ونعمة ، وتفضلا منه وكرما ، فلا تتعجل ، فإنه والله لمن العجب أن تتعجل الجواب بعد أن فزت بالراحة وظفرت بالسكينة ، ورجعت بعد الدعاء بسلامة الصدر ، وسكينة النفس ، وماذا يريد المرء من دنياه بعد هذا ؟ إنك مع الدعاء من الفائزين . والقسمة معروفة ، فقد أخبرك حبيبك ﷺ أن لك بالدعاء **واحدة من ثلاث** :

1 – الجواب في الحال .

2 – دفع بلاء لا تعلمه .

3 – الادخار ليوم الحاجة.

أليست كلها مكاسب ؟ مع ما تقدم من راحة بالشكوى ، وسكينة بإفراغ الهم ، فلم العجلة التى تؤدي إلى اليأس ثم ... إلى ترك الدعاء ؟ يقول ابن القيم رحمه الله : (**لا تسأم الوقوف على الباب ولو طردت ، ولا تقطع الاعتذار ولو رددت ، فإن فتح الباب للمقبولين دونك ، فاهجم هجوم الكذابين ، وادخل دخول الطفيلية ، وابسط كف "وتصدق علينا "** [1]) ، يا الله ، ما أروع هذا الكلام ، لا تسأم الوقوف وإن طال بك المقام ، ولا تمل من الطرق وإن كلت يدك ، فإن من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له ،

(1) الفوائد . صـ 51 .

ففرج المولى قريب وبابه واسع ، وعطاؤه دائم ، فلا تتعجل ، وإن كان الإلحاح مع الخلق سوء أدب فإنه مع الخالق عين الأدب ، فاطرق الباب وحاول الدخول ، وتملق ربك ، واهجم مع من دخل وإن لم تدع ، وارفع كفك وأرق ماء وجهك ، واسأل مولاك أن يتصدق عليك ، فإن ربك يحب ذلك ، ولن يمل حتى تمل ، واحذر أن تمل أنت أو تغضب ، وكن كمورق العجلى الذي قال عن نفسه : ما امتلأت غيظا قط ، ولقد سألت الله تعالى حاجة منذ عشرين سنة ، فما شفعني فيها ، وما سئمت الدعاء[1] ، فانظر أخي الحبيب ، عشرون سنة كاملة ، يطلب حويجة ، ويسأل مولاه شيئا ، لم يدركه ولم يمل الطلب ، عشرون سنة ، لم يتعجل ولم يغضب ، ولم يغادر الباب ، فاحذر أن تتعجل .

المانع الثاني
لا تتكلف

إن السائل أيها الحبيب ، متلبس بفقره ، مشغول بحاجته ، يدفعه ذله ، وتحركه فاقته ، عرف نفسه بفقرها ، وعرف ربه بغناه ، فهو يسأل مسألة الذليل ، خاشع النفس منكسر القلب ، مسكين الفؤاد ، والتكلف لا يناسبه هذه الحال ، ولا محل له في هذا الموطن ، فدع سجيتك تنطق ، واترك فطرتك تتوسل وتطلب ، ودع عنك التشدق والتفهيق والغلو والاعتداء وتأمل هذا الخبر : سمع عبد الله بن مغفل ابنا له يدعو ويقول : اللهم إني أسالك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال له : يا بنى سل الله الجنة ، وعذ به من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور[2] .

انظر أخي الحبيب : سل الله الجنة وعذ به من النار وكفى ، دون تكلف أو اعتداء ، هذا هو هدى الحبيب ﷺ وفقه أصحابه ، أخذه القوم بصدق وبلغوه بإخلاص ، فقام هذا الحواري يعلم ابنه ما تعلمه هو من أستاذه ، فكان أمينا في النقل مخلصا في النصح ، لقد سمع ولده يدعو ، ورأى في دعائه زيادة وتكلفا ، فعلمه كيف يدعو ، ولو بكلمات خفيفات ، لم تترك خيرا إلا تضمنته ، ولا شرا إلا أبعدته ، وماذا يريد العبد بعد ذلك ؟

---

(1) نزهة الفضلاء . صـ 398 .

(2) رواه أبو داود بسند صحيح .

هذا ومن التكلف أيا الحبيب : السجع في الدعاء ، وهو الكلام المقفى دون وزن ، فإذا خرج من القلب وجرى على اللسان ببساطة ويسر فلا حرج فيه ، أما أن ينشغل الإنسان باللفظ ، ويضع همه في القافية وموسيقاها فإن مقام الدعاء أرفع من هذا وأجل ، ولأجل هذا جاء النهى عن السجع على لسان بعض السلف ومنهم ابن عباس رضي الله عنه ، الذي روى عنه أنه قال : وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، وإنى عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لا يفعلونه ، وهذا هو الحق أخي ، وعليه مدار الأمر ، فالزم هدى النبي وصحبه وتذكر دائما هذه النصيحة : ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق والافتخار ، فدع التكلف ، واعلم أخي أن في أدعية القرآن الكريم ما يفي بحال كل سائل ، ويسد حاجة كل طالب ، وفي مأثور الدعاء عن خاتم الأنبياء ﷺ ما يغنى من فقر ويسمن من جوع ، وهو خير من أن يدعو الإنسان فيضر نفسه أو يدعو بما لا مصلحة فيه ، فليس كل سائل يحسن الطلب ، وما كل داع يجيد فن الدعاء.

المانع الثالث لا تشك

إذا سأل إنسان أخا له حاجة ، فلن يفعل إلا وهو على يقين تام بقدرته على تلبية حاجته وتحقيق رغبته ، ولله المثل الأعلى ، فكيف يكون حال من يسأل مولاه وسيده وولى نعمته ؟ فإذا سألت ربك فسله وكلك يقين أنه يرى مكانك ، ويسمع كلامك ، ويحيط علما بحالك ، وكن كذلك على يقين بأن الإجابة أقرب إليك من حبل الوريد ، وأن فرجه أدنى إليك مما قد تتصور ، فادع أخي بهذا اليقين ، وأزح الشك بعيدا حتى لا يحول بينك وبين الإجابة ، واعلم أن الشك في حصول المطلوب وتحقق الرجاء ينتج عن أمرين ينبغي أن **تنزه مولاك عنهما** :

الأول : الشك في غناه.

الثاني : الشك في كرمه وجوده وبره .

وهذا لا يليق ، فنحن نتقلب في ملكه ، وننام ونستيقظ على إحسانه ولطفه ، فإذا دعوت فاجزم ، وإذا سألت فافعل وأنت على يقين تام بأن الفرج قريب ، واليسر

حاضر ، والفجر لا محالة قادم ، وهي وصية حبيبك ﷺ إذ يقول : لا يقل أحدكم إذا دعا : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، وليعزم المسألة فإنه لا مستكره له [1] ، وصدق الحبيب أخي ، فربك لا يكون في ملكه إلا ما يشاء ، فاجزم في طلبك وأد وظيفتك ، وأبن فقرك ، وأظهر عظيم مسكنتك ، ودع ما تبقى لمولاك فإنه يفعل ما يشاء ، ولا راد لمشيئته ، إن الشك أيها الحبيب قد يأتيك أحيانا من قبل نفسك ، وما تعرفه عنها من قعود عن واجب ، أو تقصير في حق ، وهذا مدخل من مداخل الشيطان إليك ، فلا يمنعك ما تعرف من نفسك أن تمد يدك وأن تسأل مولاك ، واحذر أن تترك الدعاء لذنب وقعت فيه ، أو معصية سولتها نفسك أو زينها شيطانك ، واسمع سفيان بن عيينة رحمه الله يهمس في أذنك : لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه ، فإن الله تعالى أجاب دعاء شر الخلق إبليس اللعين ، إذ قال : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ [الحِجر:36،37] ، ما رأيك في هذه الوصية أخي ؟ إنها والله غاية في الحسن وآية في الوجاهة ، فمهما بلغ شرك فإبليس أشد شرا ، ومهما عظم ذنبك فذنب إبليس أعظم ، ومع ذلك فقد سأل النظرة وأجيب إليها .

إن أقصى ما يطلبه الشيطان منك أخي أن تتوقف عن الدعاء ، وأن تكف عن الطلب ، خوفا من ذنبك أو شكا في ربك ، فاحذر أن يظفر منك بهذا ، واعتصم بمولاك ، فقد ضمن لك الجواب بأفضل مما تطلب ، ولكن في الوقت الذي يحدده هو ، وبالشكل الذي يريده ، وما عليك إلا أن تدعو وأنت موقن بالإجابة.

المانع الرابع لا تتوقف

إن أقصر طريق إلى الإجابة أيها الحبيب ، أن تدعو بلا ملل ، وأن تسأل بلا انقطاع ، فإذا حضر قلبك ،وانطلق لسانك ، فالزم مكانك ، ولا تغادر سجدتك ، وادع بما يفتح عليك مولاك ، وإياك إياك أن تضيع لحظة والحال كذلك ، فتتحسر عليها حيث لا تنفع الحسرة ، وتندم يوم لا ينفع الندم ، ولك في

---

(1) أخرجه الشيخان .

سيدك أسوة ، وفي حبيب قلبك ﷺ عبرة ، لقد شغله الثناء والدعاء يوم عرفة عن كل شيء حتى ذهل عن الطعام والشراب ، فكان من الطرائف أن ظن أصحابه أنه ﷺ صائم ، ولم يكن صائما ، ولكنه اكتفى بطعام الروح وشراب النفس من ذكر وثناء ودعاء ، تقول أم الفضل بنت الحارث : إن ناسا تماروا عندها يوم عرفة في صوم رسول الله ﷺ فقال بعضهم : هو صائم ، وقال بعضهم : ليس بصائم ، فأرسلت إليه بقدح من لبن وهو واقف على بعيره بعرفة فشرب[1] . الله أكبر ، تأمل أخي سلوك حبيبك المصطفى ﷺ ، إنه يغتنم مواسم الخيرات ، وأيام النفحات ، وساعات الإجابة ، وعلى رأسها يوم عرفة ، أفضل الأيام ، ساعاته معدودة ، ومدته محدودة ، فاحذر أن ينصرم منك دون أن تسأل ربك أن يرزقك خيره وأن يمنحك بره ، وكن بخيلا بثوانيه أن تمر ، وبدقائقه أن تتسرب من بين يديك فإن الحياة – كما قيل – دقائق وثوان – ، ثم اقرأ وتعجب مما يرويه أسامة بن زيد إذ يقول : كنت رديف رسول الله ﷺ بعرفات ، فرفع يديه يدعو ، فمالت به ناقته فسقط خطامها ، فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى[2] بأبي أنت وأمي ونفسي يا رسول الله ، انظر أخي وتأمل ، واسبح بعقلك وتدبر بقلبك هذا الهدى النبوي الأكمل ، وإني استحلفك بالله أخي أن تعيد قراءة هذه الجملة : فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى ، يا الله ! لقد مد حبيبك يدا تتناول الخطام والأخرى لم تغادر مكانها تسأل وتلح في السؤال وتجزم في الطلب ، إنه مشهد يدفع المؤمن عمره ليرى مثله ، ووصف من أسامة من أعجب ما رأي الإنسان وسمع في الحرص على الدعاء ، واغتنام اللحظات ، ولكن لما العجب وهذا سيد الخلق ﷺ فكلامه سيد الكلام ومواقفه سيدة المواقف ، ومن أسامة إلى جابر لنتعلم ، ونتعظ ونسبح في رياض من الجمال تنعش الروح وترطب النفس ، يقول جابر رضي الله عنه : ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس[3] ، وأظنك أخي

---

(1) متفق عليه .

(2) أخرجه النسائي والإمام أحمد .

(3) أخرجه أبو داود وابن ماجه .

ستقف لا محالة عند قوله : فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وهذا من حقك ، فحبيبك ﷺ يدعو في هذا اليوم دون كلل ويسأل ربه باجتهاد دون ملل ، ويستفتح أبواب السماء بكل ما أوتى من قوة ، فهل آن لنا أن نعى الدرس وأن نستمر في الدعاء دون توقف ؟ إن من شروط القبول ألا تتوقف . فأين همتك أيها الحبيب ؟ .

المانع الخامس لا تنسه

هل رأيت أخي أو سمعت أن أحدا دخل دار ملك كريم يسأله حاجة ، وقلبه معلق بغيره ، أظن أن هذا لا يكون ، فكيف يليق بك أن تطرق باب مولاك ، وتجلس في حضرته ، يدك إليه ممدودة ، وقلبك في كل واد يسرح ، وفي بحار الهوى يسبح ، ونفسك خلف الزوجة والولد والمال تجرى وتلهث ؟ لا أيها الحبيب وألف لا بعدها ، هذا لا يليق بجلال مولاك ومقام سيدك وولى نعمتك ، ولا يليق بالأحرى بك وأنت الفقير الذي ظهر فقره ، والضعيف الذي بدا ضعفه فراح في كل حين بطلب النصر ويرجو القوة ، ويستمد العون ويسأل التمكين ، إن دعاء كهذا لن يجنى المرء من ورائه سوى إضاعة الوقت وربما يلحق بها الطرد والمقت فأحضر القلب قبل البدن ، والروح قبل الجسد ، فمولاك لا ينظر إلا لقلبك ، ولا يراقب إلا نفسك ، فإذا ما فتح عليك مولاك فخشعت نفسك ، وخفق قلبك ، واهتزت روحك ، واقشعر جلدك ، فثم الحلاوة كلها والجمال كله ، والنعيم المقيم ، إنها إذن حلاوة الدعاء ، وما أدراك ما حلاوة الدعاء ؟ ، علامة قبول ، وإشارة وصول ، وعلامة رضا ، يفشى لك سرها هذا العبد الصالح فيقول : لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال : ما أراني إلا مقتولا وسأخبركم : إني كنت أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء ، ثم سألنا الله الشهادة ، فكلا صاحبي رزقها ، وأنا أنتظرها ، قال : فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء[1] . إن القلب حين يحضر الدعاء ، تتحطم القيود ، وتزول الحدود ، وينشرح الصدر ، ويتذوق القلب حلاوة القرب ، وتشف الروح ، وتحلق النفس ، وتفرح بالمناجاة ، وتسعد بنعيم لا يدركه إلا الربانيون ، ولو علم به الملوك وأبناؤهم لجردوا من أجله السيوف ، ولقاتلوا على

(1) حلية الأولياء . جـ4 صـ 274 .

حلاوته أولياء الله وأحباءه ، ولكن هيهات ، فوجل القلب ، وخلجة النفس ، وخفقه الروح خاصة بالمؤمنين ، يشرحها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:2] ، وإليك ما يقوله سيد رحمه الله ،في تلك الحالة التى تصيب القلب المؤمن عند الذكر يقول : (**إنها الارتعاشة الوجدانية التى تنتاب القلب المؤمن حين يذكر ربه في أمر أو نهى ، فيغشاه جلاله ، وتنتفض فيه مخافته ، ويتمثل عظمة الله ومهابته ، إلى جانب تقصيره هو وذنبه ، فينبعث إلى العمل والطاعة ، أو هي كما قالت أم الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، أما تجد له قشعريرة ؟ قال : بلى ، قالت : إذا وجدت ذلك فادع عند ذلك ، فإن الدعاء يذهب ذلك ، إنها حال ينال القلب منها أمر يحتاج إلى الدعاء ، ليستريح منها ويقر، وهي الحال التى يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في أمر أو نهى فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله ، وجلا وتقوى لله**) (1).

إن حضور القلب إذن وإدراكه حال الدعاء شرط لازم من شروط القبول ، أما حضور البدن وانصراف الروح إلى أمنياتها ، وطيران القلب في شهواته ، فذلك لا يسمن ولا يغنى ، ولذا حذر النبي ﷺ من تلك الحال فقال : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل لاه (2).

المانع السادس
بالشبهات تتعثر الدعوات

إن الحرام داء ، والحلال شفاء ، وكل شيء يمرق إلى جوفك فيه شبهة فهو بلاء ووباء ، فهل سألت نفسك مرة عن مصدر ما يدخل جوفك ويستقر في بطنك ؟ هل تريثت شيئا قليلا قبل أن تلقى اللقمة في فمك وفكرت : أهي طيبة المعدن طاهرة المصدر أم دنستها الشوائب ولوثتها الشبهات ؟

ووالله : إن الأمر جد ، والأثر خطير ، والعواقب وخيمة ، فرب لقمة من حرام لا تلقى لها بالا ، تفسد عملك

(1) الظلال جـ3 صـ 1475 .
(2) أخرجه الترمذي والحاكم .

وتحبط سعيك ، وتهدم بنيانك وأنت تظن أنك أحسن الناس صنعا ، وأعظمهم كسبا ، وأكثرهم ربحا ، ويضحك الشيطان ويسخر منك العدو ، وأدعوك أيها الحبيب لتتأمل هذا الخبر ، جاء في شعب الإيمان للبيهقي عن يوسف بن أسباط قال : إن الشاب إذا تعبد قال الشيطان لأعوانه : انظروا من أين مطعمه ؟ فإن كان مطعمه سوء قال : دعوه يتعب ويجتهد ، فقد كفاكم نفسه . يا الله إن الخبيث يعلم من أين يأتي الفقراء أمثالنا فانتبه ، وتذكر دائما أن العمل الصالح مع الحرام بنيان فوق رمال وسراب إلى زوال .

إن أكل الحلال أخي يفيد الجسم ، ويصحح الأعضاء ، ويجلب الشفاء ، وينعش الروح ، ويحصن النفس من كل داء ، ويزود العمر بالبركة والنماء ، وينور القلب ويرققه ، ويجلب له الخشية من الله تعالى ، والخشوع لعظمته ، وينشط الجوارح بالطاعة والعبادة ، ويزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة ، ولأجل هذا كله خصك ربك أيها الحبيب بهذا النداء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة:172] يقول سيد رحمه الله : (**إن الله ينادى الذين أمنوا بالصفة التى تربطهم به سبحانه ، وتوحي إليهم أن يتلقوا منه الشرائع ، وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام ، ويذكرهم بما رزقهم فهو وحده الرازق ، ويبيح لهم الطيبات مما رزقهم ، فيشعرهم أنه لم يمنع عنهم طيبا من الطيبات ، وأنه إذا حرم عليهم شيئا فلأنه غير طيب ، لا لأنه يريد أن يحرمهم ويضيق عليهم**) [1].

الصالحون يستوعبون

وقد استوعب الصالحون الدرس ، وأدركوا الحكمة ، والتقطوا الموعظة ، فآمنوا أن العمل لا يقبل ، وأن الدعاء لا يرفع ، إلا بالحلال ، وأن الحرام مانع من قبول العمل ، وحائط صد أمام الدعاء ، وخذ هذه النفحة من وهيب بن الورد يتحفك بها ، يقول رحمه الله : لو قمت مقام هذه السارية – العمود – لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل بطنك ، حلال أم حرام [2]، لو قمت كالسارية في المسجد لا تفارقه ، وأضنيت نفسك في الطاعة ، وأذبت بدنك قاعدا وقائما ، ما نفعك

(1) الظلال . جـ 1 صـ 156 .

(2) جامع العلوم والحكم . صـ 109 .

ذلك ، حتى تطيب مطعمك ، ويقول إبراهيم بن أدهم : رأيت عابدا يقوم إلى الصلاة بثقل ، فنظرت فإذا هو من عدم صفاء مأكله ، ولو أنه أكل حلالا ، لم يحصل له ثقل [1]، اقرأ هذا الكلام أخي . وقف أمامه طويلا وتدبره جيدا ، واعلم أن الحلال الخالص ، نادر عزيز لا يطلبه إلا القليل ، ولا يحرص عليه إلا كل تقى نقى ، وهذا ليس اليوم فقط بل من قديم ، وما أجمل وأغلى قول يونس بن عبيد : ما ثم اليوم أقل من درهم طيب ، ولو وجدناه لاستشفينا به مرضانا[2] ، وهذا في زمانه ، فكيف أيها الحبيب بزماننا ؟ فطهر جوفك وأطب مطعمك يرفع عملك ، ويقبل سعيك ، وتستجاب دعوتك.

كانت هذه أيها الحبيب بعض الموانع التى تحول بينك وبين القبول ، فاقرأها بدقة ، وقف أمامها بعناية ، وتطهر منها حتى لا تحرم خير" **استجب لكم** " ولا تفوتك بركة : " **فإني قريب** ".

سلاح الفقير أقوى

أخي ، أنت بذاتك ضعيف ، وأنا أضعف منك ، والضعف صفة ملازمة لي ولك في كل حين ، فكيف إذا دار الزمن علينا دورة ، وصرنا قصعة تحلقت الكلاب حولها ، ونهشت الكلاب والذئاب وهوام الأرض ما بها ؟ إنها حال لا حول لي ولا لك عندها إلا بالله ولا قوة لي ولا لك إلا بالدعاء ، فإنه قذائف الحق ، وراجمات الباطل ، وسلاح الفقير أمام عتو الشياطين ، وعربدة أهل الكبر والاستعلاء ، وهذا المعنى يؤكده لك خالد بن صفوان بقوله : اتقوا مجانيق الضعفاء[3] ، ونحن اليوم أخي بأنفسنا ضعفاء ، وبموازين القوى لا حول لنا ولا قوة ، فكيف ننام عن تلك المجانيق ، ونغفل عن هذه السهام والقذائف ؟ إن مجانيق الدعاء إذا استجمعت شروطها تصيب ، وإذا أطلقت قذائفها لا تخيب، ولك في البطل الشهيد نور الدين محمود وفي خبره عظة ، فماذا كان من خبره ؟ لقد رأى أصحابه ورجالاته كثرة ما ينفق على المساكين ، واهتمامه الخاص بطلبة العلم ، وحرصه عليهم ، وطلب

---

(1) تنبيه المغترين . صـ 214 .

(2) نفسه : صـ 144 .

(3) البيان والتبيين للجاحظ . جـ1 صـ 352 .

الدعاء منهم ، فعاتبوه بحجة أنه يبدد الأموال على هؤلاء ، ويتلف خزائن الدولة على الفقراء ، والجند في ميادين القتال بذلك أولى ، فهل نزل على رأيهم ، ونسج على منوالهم ؟ لا والله ، وإنما واجههم بحجة بالغة ، ورأي صائب ، وإيمان عميق ، فقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بهؤلاء ، فكيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ ؟.

إن عليك الآن أخي أن تحنى رأسك إجلالا وإكباراً لرجل وهبه ربه كل هذا الفقه ، ورزقه هذه الفهم ، وملأ قلبه بأنوار الحكمة ، فأدرك حقائق الأمور ، في وقت يقف غيره عند ظواهرها ، فتدبر أخي قوله : كيف أقطع صلات قوم – يقصد الضعفاء والفقراء وطلبة العلم – يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ ؟ – إنه يقصد سهام الإصابة ومدافع الليل ، وقذائف السحر – وهي أسلحة الفقراء حين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يرفعون أكفهم ويناجون مليكهم ، يسألون النصر ، ويدفعون الضر ، ثم تأمل أخي قوله : وأصرفها – يقصد الهبات والصلات – إلى قوم – يقصد من معه من قادة وجند – لا يقاتلون إلا إذا أمرتهم ، وبسهام قد تخطئ وقد تصيب ، وتلك حقيقة ، فسهام الليل لا تخطئ ، أما سيوف الجند فقد تصيب وقد تخطئ ، فاملأ أخي جعبتك ، وارم سهامك ، وتخير وقت الإجابة ، وأنعت لك وقت السحر ، قو به ضعفك ، وأصلح به نفسك ، وانصر به أمتك في زمن صار النصر فيه أمنية تداعب الخيال ، وحلما جميلا من الماضي ، يتراقص فوق الجفون.

دعاء عجيب

لا تحمل هم الإجابة ، ولا ترهق نفسك بالتفكير فيها ، ولا تشتت ذهنك في انتظارها ، لأنك مع الدعاء في روضة يانعة ، وحدائق ذات بهجة ، فماذا يطلب ذو اللب بعد ذلك ؟ وربك أيها الحبيب هو الغنى ذو الرحمة ، فكن على ثقة أنه ما خلقك ليضيعك ، ولم يأت بك من العدم إلى الوجود ليضيق عليك ، فلا تحمل إذن هم الإجابة ، ولكن هم الدعاء ، فإذا فتح عليك باب الدعاء ، وهداك إليه فأبشر ثم أبشر ، ولله در ابن عطاء حيث يقدم لك زهرة ندية ، وثمرة غضة طرية ، وحكمة من بستانه عذبة شهية ، يقول : كفى من جزائه لك على الطاعة أن

رضيك لها أهلا ، ومتى أطلق لسانك فاعلم انه يريد أن يعطيك ، يا الله ، يا مثبت القلوب ، ثبت قلوبنا لتحتمل هذه المعاني ، إنه يقول لك : إن الكريم يلقى على لسانك ما يريد أن يمنحك فلا تحمل هم الجواب ، فإذا ألقى في روعك الطلب ، وأطلق بالسؤال لسانك ، فاعلم أنه يريد أن يتحفك ، ولهذا يقف المرء أحياناً على أدعية عجيبة ، يشعر أمامها ، أن ربك أوحى بها ، فاقرأ أخي هذا الدعاء ، ورdده مرة بعد مرة ، وتأمل لتعلم أن الدعاء عطاء ، وأن الطلب من المولى فن لا يحسنه كثير من الناس ، قال الأصمعى : وقف أعرابي أمام الروضة الشريفة فقال : اللهم هذا حبيبك وأنا عبدك والشيطان عدوك ، فإن غفرت لي سر حبيبك ، وفاز عبدك ، وغضب عدوك ، وإن لم تغفر لي غضب حبيبك ، وهلك عبدك ، ورضي عدوك ، وأنت أكرم من أن تغضب حبيبك ، وتهلك عبدك ، وترضى عدوك ، اللهم إن العرب الكرام إذا مات منهم سيدا أعتقوا على قبره ، وإن هذا سيد العالمين فأعتقنى على قبره ، قال الأصمعي : فقلت يا أخا العرب : غفر الله لك وأعتقك على حسن سؤالك[1]، اقرأ أخي هذا الدعاء مرة أخرى ثم أجب : هل رأيت أو سمعت بعد كتاب ربك وسنة نبيك دعاء مثل هذا ؟ إنه دعاء فطرة لم تلوث ، وطبيعة تسيل في بساطة ، نقية بيضاء كأمواج البحر لا تكلف فيها ولا تجمل ، فإن وفقت لمثلها فهنيئا لك ، وإن لم يكن ، فبما فتح الله لك ، وكن على يقين بأن البر الرحيم لن يرد دعاءك ولن يخيب رجاءك ما دام قد ألهمك وأطلق لسانك.

دعوات مستجابة

ولا يجمل بنا أيها الحبيب أن نترك هذه الروضة ، دون أن نعطر الأجواء ، ونرطب القلوب ، وننعش النفوس بنماذج من الدعوات المستجابة ، وصور مشرقة من استجابات السماء لدعوات الربانيين ، ليزداد المؤمن إيمانا ، ويمتلئ قلبه يقينا بأن المولى قريب ، وحاضر لا يغيب ، بابه مفتوح وسائله لا يخيب ، فإليك هذه الزهرات من الدعوات الطيبات ، التى اخترقت السبع الطباق ، **ولامست العرش** :

(1) في ملكوت الله . صـ 7 . عبد المقصود سالم .

1 – جاء خادم المأمون – الخليفة – إلى الإمام أحمد ، وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ، ويقول : يعز على يا أبا عبد الله أن المأمون قد سل سيفا لم يسله قبل ذلك ، وأنه أقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن [1]، ليقتلنك بذلك السيف ، قال : فجثى الإمام أحمد على ركبتيه ، ورمق بطرفه إلى السماء وقال : سيدي غر حلمك هذا الفاجر ، حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق ، فاكفنا مؤنته ، قال : فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل [2] .

ما تقول أخي في هذه الزهرة ؟ أرأيت كيف يدافع الله تعالى عن الذين آمنوا ؟ أرأيت سرعة استجابة الرب للعبد إذا كان العبد ربانيا كالإمام أحمد ؟ لقد كفي الله تعالى الإمام مؤنة الفاجر كما طلب ، فأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فليحذر الذين يحاربون الله ورسوله ويؤذون أولياءه ، فإن الله تعالى يغار على عباده كما يغار أحدنا على عرضه وماله .

2– وهذه أخت لها أيها الحبيب ، وهي أيضا للإمام الصابر المحتسب ، إمام أهل السنة ، الإمام أحمد ، لا تقل عن التى سبقتها جمالا وبهاء وروعة ، روى الإمام البيهقى أن رجلا جاء إلى الإمام أحمد فقال : إن أمي مزمنة مقعدة منذ عشرين سنة ، وقد بعثتنى إليك لتدعو لها ، فكأن الإمام غضب من ذلك ، وقال : نحن أحوج بأن تدعو هي لنا من أن ندعو لها ، ثم دعا الله عز وجل لها ، فرجع الرجل إلى أمه ودق الباب ، فخرجت أمه على رجليها وقالت : قد وهبني الله العافية [3].

لقد علمت أيها الحبيب أن ربك كريم ، لا يرد يد سائل ، ولا يخيب رجاء طالب ، فكيف إذا كان السائل وليا من أوليائه ، وصفيا من أصفيائه ، في وزن الإمام أحمد ؟ فتدبر أخي واعتبر ، وعش في هذه الروضة محلقا مع قصص الصالحين ، وأدعية الربانيين ، ففيها لروحك شفاء ، ولقلبك دواء ، ولإيمانك زيادة ونماء.

---

(1) يعتقد أهل السنة أن القرآن الكريم كلام الله ، منه خرج وإليه يعود وكفي .
(2) البداية والنهاية جـ 5 صـ888 . ابن كثير .
(3) نفس المصدر جـ 5 صـ 885 .

3- وهذه ثالثة من عبد فقير ، خامل الذكر لا يعرفه أحد ، ولا يشعر به الناس ، ولا ضير في ذلك ما دام معروفا ومشهورا عند رب الناس يقول عطاء السلمى : منعنا القطر فخرجنا نستسقى ، فإذا نحن بسعدون في المقابر ، فنظر لي وقال : يا عطاء أهذا يوم النشور ؟ أوبعثر ما في القبور ؟ فقلت : كلا ، ولكن منعنا القطر فخرجنا نستسقى ، فقال : يا عطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية. فقال : هيهات يا عطاء قل للمتبهرجين : لا تتبهرجوا ، فإن الناقد بصير ، ثم رمق السماء بطرفه وقال : إلهي وسيدي ومولاي ، لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ، ولكن بالسر المكنون من أسمائك ، وما دارت الحجب من آلائك ، إلا سقيتنا ماء غدقا فراتا تحي به العباد وتروى به البلاد ، يا من هو على كل شيء قدير ، قال عطاء : فما استتم كلامه حتى أرعدت السماء وأبرقت وجاءت بمطر كأفواه القرب ، **فول وهو يقول** :

أفلح الزاهدونا العابدونـــا إذ لمولاهم أجاعوا البطونـــا

أسهروا الأعين العليلة حبا فانقضى ليلهم وهم ساهرونا

شغلتهم عبـــادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا[1].

وإن شئت أن أعلق أخي على هذه الخبر فإنما تستوقفنى فيه بعض كلمات منها :

- قوله :" **بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية** " ، فهو يعنى : أنكم خرجتم تطلبون السقيا ، فبأي قلوب تطلبونها ؟ أبقلوب تفرقت بين الشركاء ، فملكها شركاء متشاكسون ، أم بقلوب ملؤها التوحيد وزادها الإيمان وشرابها التقوى ؟ بقلوب تعلقت بالتراب ، وغاصت في طين الأرض ووحلها ، أم بقلوب تحلق في سماء الإيمان وتسبح في سماوات التقى والإحسان ؟ ويا لها من جملة .

- ثم تأمل أخي قول عطاء يصف حال العبد الصالح سعدون صاحب هذا الدعاء : " **ثم رمق السماء بطرفه** " وهذه الجملة عندي أعجوبة الدهر ، فما سمعت أختا لها أجمل منها في موضعها وفي سياقها ومدلولها ، وهي والله أحب إلي وأشد تأثيرا في نفسي ووقعا في قلبي من آلاف الصفحات ، سودتها الأقلام ، وأخطأها الإحسان : " **ثم رمق السماء**

(1) إحياء علوم الدين . جـ1 صـ 505 . الإمام الغزالي

بطرفه " فكأنه أيها الحبيب ينظر إلى حبيبه من طرف خفي على استحياء ، وهو يعلم أن حبيبه يراه ويسمعه ، ويوقن تمام اليقين أنه لن يرده إذا سأل ، ولن يتأخر عنه إذا طلب ، وهو بالفعل ما قد حدث ، فلم يستتم دعاءه أخي حتى فاضت السماء بماء منهمر كأنه أفواه القرب ، إن لله في خلقه شئون ، وللصالحين عند ربهم مقامات ، وللأولياء مع مولاهم أحوال ، فاللهم ارزقنا حبهم ، ولا تحرمنا بركتهم ، ولا تحجب عنا يوم نلقاك شفاعتهم يا قريب يا مجيب.

4- والأخيرة أخي أجمل وأعجب ، فخذها سماوية ربانية ، تحي القلب وتنعش النفس ، وتحلق بالروح في آفاق من الأمل والرجاء ، لا يطار لها على جناح ، ولا يسعى إليها على قدم ، روى أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس ﵁ فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس : اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بي القوم إليك ، لمكاني من نبيك ﷺ ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة ، وأنت الراعي لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكبير بدار مضيعة ، فقد جزع الصغير ورقد الكبير ، وارتفعت الأصوات بالشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، قال : فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء كالجبال(1) .

ما رأيك أيها الحبيب في هذا المشهد ؟

وما الذي استوقفك فيه ؟

أما أنا، فقد طرق قلبي وأسر نفسي جملتان :

أما الأولى فقوله : لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، إنه كلام يشبه كلام الأنبياء ، ولم لا والسماء مصدره وعرش الرحمن منبعه ؟ ورب السماء والعرش العظيم هو القائل ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى:30] ولعلك بهذا أخي تدرك تمام الإدراك ، لماذا تنقلب الأمة في كل ميدان بهزيمة ، وتبوء من كل رحلة بفشل ، فنحن في ميدان السياسة أمة مستضعفة ، أرضها

---

(1) صحيح وصايا الرسول جـ2 صـ 679 . سعد يوسف عزيز.

منهوبة ، ومقدساتها مغصوبة ، وأقصاها أسير ، لا تدعى إلى شيء ، ولا تستأذن في شيء ، وكأنما **يقصدنا الشاعر بقوله** :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود .

والسبب واضح أخي : لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب أخي ، متى نتوب ؟؟؟؟

ونحن في ميدان الاقتصاد على حال لا تسر ، فقر مدقع ، ومرض مقعد ، وجوع قاتل ، وحاجة مذلة ، نعيش على السؤال ، ونحيا على المعونة ، ونأكل بالتسول ، والسبب أخي واضح : لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب أخي ، متى نتوب ؟؟؟؟ .

وفي ميدان الأخلاق أيها الحبيب ، حدث ولا حرج ، تهتك وانحلال ، وفوضى تامة ، ومصائب عامة ، وسلوك مرفوض ، وأوضاع مذمومة ، وأثرة بغيضة ، وأنانية مقيتة ، وفردية قاتلة ، ناهيك عن الكذب والنفاق والغش والخداع إلخ إلخ ... والسبب أخي : ما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب ، أخى متى نتوب ؟؟؟؟

وفي ميدان العلوم أخي : تخلف ظاهر ، وجهل فاضح ، وأمية مخزية ، وتبعية مذلة ، وحال مهينة ، والسبب واضح أخي : ما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب أخي متى نتوب ؟؟؟؟ .

أما الثانية أخي فهي قوله : اللهم أغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، إنه فقه المقربين ، أصحاب القلوب الحية ، والنفوس الزكية ، والأرواح المحلقة ، قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، يقنطوا من الجواب ، فيصيبهم الشك والارتياب ، في وجود رب الأرباب وقدرة مسبب الأسباب ، وهذا هو الهلاك بعينه ، قبل أن يقنطوا فييأسوا ، ومن ثم يتوقفون عن الدعاء فيهلكوا ، فترك الدعاء لتأخر الجواب يأس وهلاك ، وقد علمنا ما قال ربنا في اليائسين ، فإياك أن تستبطئ النصر أخي وتسأل : متى هو ؟ فالنصر قريب ، بل هو على مرمى حجر ، ولكن المولى لا يعجل لعجلة أحد ، فلا تقنط أخي إذا تطاول الباطل ، وتأخر النصر ، وكن على ثقة تامة ، أن مولاك لن يتخلى عنك أبدا ، ما دمت تولى وجهك شطره ، وتوجه قلبك نحوه ، وترفع يدك إليه ، فقد قضى سبحانه لك

بالنصر ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:21]

لوحة أعجبتني

وهذه لوحة بديعة ، تسر الناظر وتسعد الخاطر ، أقدمها إليك على طبق من ذهب ، قبل أن نغادر هذه الروضة ، فضمها إليك ، متع بها نظرك ، وقلب فيها طرفك ، وأنعش بها روحك ، وأسعد بها قلبك ، إنها هدايا الصالحين إليك ، وهم القوم لا يشقى جليسهم ، فاسمع إلى أبي حفص وهو يقول : أحسن ما يتوسل به العبد إلى مولاه : الافتقار إليه ، وملازمة السنة ، وطلب القوت من حله[1] ، إن دعاءك أيها الحبيب مرهون بهذه الثلاث ، فلا تطمعن أن يحلق في الآفاق ، ويخترق السبع الطباق ، حتى تملأ قلبك بها ، وتطوى النفس عليها ، وتلزم هديها ظاهرا وباطنا ، انكسار على باب القهار ، وملازمة لسنة المختار ، ولقمة طيبة من حلال ، فيها للبدن شفاء وللقلب دواء ، وللإيمان بركة ونماء ، إنها ثلاثية لا بد منها لقبول الدعاء ، فخذها أخي وضمها إليك ، انتفع بها ، وانشرها ، ففي نشرها زيادة أريجها ، وعلمها غيرك ففي تعليمها بركة ، وأي بركة ؟

من بستان النبوة

الآن أخي الحبيب ، نحن على الباب ، نوشك أن نغادر ، وليس أزكى للنفس ، ولا أحلى في القلب من حديث الحبيب المصطفى ﷺ فدعنى أتحف نفسي وإياك ، وأزكى روحك وروحي ، وأستنهض همتي وهمتك بحديث في فضل الدعاء ، ليظل معك بعد الوداع ، دافعا إلى الرجاء ، وهاديا إلى الدعاء ، فإليك أخي : عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء[2] ، إنه مسك الختام من سيد الأنام ، يذكرك بأن مولاك يحب الدعاء ، وللدعاء عنده مكان وأي مكان ، فالزم هذه الروضة ، وكن من الفقراء أهل الحاجة والدعاء ، فهم القوم ولا قوم غيرهم ، وإذا هممت بالدعاء الآن أو غدا ، فتذكر

---

(1) موسوعة الأخلاق . جـ1 صـ502 . سعد يوسف عزيز .

(2) حسن رواه الترمذي وغيره .

أخاك بدعوة هو فقير إليها ، بعد أن أمرضته ذنوبه ، وأحاطت به خطاياه ، فلعل الشفاء في دعوة منك بظهر الغيب فبالله عليك أيها الحبيب: لا تنس.

من خارج الأسوار

أغلقت الباب خلفي ، وقلبي بروضة الدعاء معلق ، وروحي بها هائمة ، ونفسي تلتفت إليها وتأبى أن تودع ، وإذا صوت من داخل الروضة بأعذب لحن وأجمل صوت ينشد ويردد :

يا من أجبت دعاء نوح فانتصـر
وحملته في فلكك المشحـــــون.

يا من أحال النار حول خليلـــه — روحا وريحانا بقولك " كـــون "
يا من أمرت الحوت يلفظ يونسا — وسترتـــه بشجيرة اليقطيـــــن
يـــا رب إنا مثلـــه في كربـــــة — فارحم عبادا كلهم " ذو النون "

قال صاحبي : ما أجمل هذا الصوت ، وما أحلاه ، كأني قد سمعته من قبل ، قلت كما قال الفرزدق في مثل هذا الموقف : وليس قولك من هذا بضائره ، إنه صوت الدعوة المغرد ، وبلبلها الصداح ، إمام عصره ، ووحيد دهره ، ومن نتقرب إلى الله بحبه ، ونبرأ إلى الله تعالى ممن يبغضه ، إنه صوت شيخنا القرضاوي ، ثم انطلقنا وخلفنا روضة الدعاء وراءنا نبحث عن روضة أخرى.



بعض المصادر

1- مدارج السالكين. الإمام ابن القيم دار الحديث
2- شخصيات استوقفتني . د / محمد سعيد البوطى . دار الفكر
3- طبقات ابن سعد. دار صادر.
4- سير أعلام النبلاء . الإمام الذهبي. دار الرسالة.
5- المواعظ والمجالس . ابن الجوزي. مكتبة الإيمان.
6- مكاشفة الذنوب . الإمام الغزالي . مكتبة الإيمان .
7- التذكرة في الوعظ. ابن الجوزي. دار ابن خلدون.
8- في ظلال القرآن. سيد قطب دار الشروق.
9- زاد المعاد. ابن القيم.
10- حلية الأولياء. أبو نعيم .
11- مختصر منهاج القاصدين. دار التراث .
12- إحياء علوم الدين. الإمام الغزالي .دار الحديث .
13- تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي .
14- ذم الهوى . ابن الجوزي.
15- لطائف المعارف . ابن رجب .
16- إيقاظ الهمم في شرح الحكم. ابن عجيبة.
17- تفسير ابن كثير.
18- مختصر تاريخ ابن عساكر.
19- أصول الوصول . الشيخ محمد حسين يعقوب .
20- صفة الصفوة. ابن الجوزي.
21- البيان والتبيين. الجاحظ.
22- المنتظم. ابن الجوزي.

23- رسالة المسترشدين. الإمام المحاسبى.
24- التبصرة .ابن الجوزي .
25- تنبيه الغافلين. الإمام السمرقندي.
26- صيد الخاطر.ابن الجوزي.
27- الجانب العاطفي في الإسلام. محمد الغزالي.
28- الزهد . الإمام أحمد .دار الريان.
29- طريق الهجرتين. ابن القيم . المطبعة السلفية.
30- الوابل الصيب . ابن القيم . دار الكتاب العربي.
31- الأذكار . الإمام النووي.



الفهرس

